الناقد

الكاتب ٧٨

للثقافة الإنسانية والتقدم .

العدد
الثامن والسبعون
تشرين اول ١٩٨٦

- تلك سياسة الادارة الامريكـ
وتلك نتائج الاعتماد عليهـ
- جبهة القوى المعادية للامبريا
سبيلنا لتحقيق اهدافنا الوط
- بعض قضايا الصراع في جن
القارة الافريقية .
- تنمية بمفهوم جديـ
- الاتجاهات العامة في نظ
الاقتصاد الاسرائيلي
- ازمة ثقافة ام ازمة حكـ
- تجربة تضاف الى تجارب شعـ
النضالية ـ حول اضرا
العاملين في جامعة بيرزيـ
- مذكرات انجيلا ديفيـ
- شهادات فيليتسيا لانغر عن عص
الحجارة .
- امسيات من وحي التلفزيون والادا
- على هدى طريق نجيـ
- عشر سنوات على وف
المناضل فؤاد نصـ

أفكار هادية في ذكرى خالدة

Digitized by Birzeit University Library

الكاتب

ثقافة الإبانة والتقدم

صاحب الإبانة - المسؤول
أسعد الأسعد
القدس

رئيس التحرير
أسعد الأسعد

مدير التحرير : نظام عطايا

مجلس التحرير

بسام الصالحي — تيسير عاروري
جميل السلحوت — فضل البورنو
محمد البطراوي — محمود الشيخ

سكرتير التحرير : عبير أبو خريس

المراسلات :
الكاتب - ص.ب: ٢٠٤٨٩ القدس
تلفون ٨٥٦٩٢١

AL-KATEB

For human culture and progress

Editor -
Asa'd Al-Asa'd

P.O.Box 20489
Jerusalem
Tel:856931

الاشتراكات :
بالدولار أو ما يعادله لأول سنة دافعة

محليًا	٢٠ دولار
بلدان أخرى	٤٠ دولار

المؤسسات

المحلية	٥٠ دولار
بلدان أخرى	١٠٠ دولار

ترتيب المواد في هذا العدد يخضع لضرورات فنية
لا ترد المواد المرسلة إذا لم تنشر

Digitized by Birzeit University Library

المحتويات

العدد (٧٨) السنة (٧) تشرين اول ١٩٨٦ .

كلمتنـــــا

٣ افكـــار هاديـــة في ذكرى خالـــدة

سياســـــة

٥ تلك سياسة الادارة الامريكية وتلك نتائج الاعتماد عليهـا — أسعد الاسعـد

٩ جبهـة القـوى المعاديـة للامبرياليـة سبيلنـا لتحقيـق اهـدافنـا الوطنيـة — نعيم الاشهـب

٦٢ بعـض قضايـا الصـراع فـي جنـوب القـارة الافريقيـة — تيسيـر العـاروري

اقتصـــــاد

٤٢ تنميـة بمفهـوم جديـد — محرم البرغوثـي

٥٢ الاتجاهات العامة في تطور الاقتصاد الاسرائيلي — د.سمير عبدالله و سمير البرغوثي

مداخـــلات

٧٥ ازمـة ثقافـة ام ازمـة حكـم ؟! — محمود امين العالم

٣٧ تجربة تضاف الى تجارب شعبنـا النضاليـة ـ "حول اضراب العاملين في جامعـة بيرزيـت" — مراقـب

مـع الكتـــاب

٨٨ مذكـرات انجيـلا ديفيـز

١٠٨ شهـادات فيليتسيـا لانغـر عن عصـر الحجـارة

الاراء المنشورة لا تعبّر بالضرورة عن وجهة نظر مجلس التحرير .

Digitized by Birzeit University Library

متفرّقات

١٠٢	امسيات من وحي التلفزيون والاذاعة	محمود الخطيب
٢٢	فؤاد نصار .. بعد عشر سنوات على الرحيل الاخير	مناضل قديم
٢٨	على هدى طريق مجيد	نظام عطايا
٣٣	في ذكرى وفاة المناضل فؤاد نصار	
١٢٦	اتحاد الكتاب الفلسطينيين وندوة الشهر في غزة	

تراث

٩٧	الأمثال الشعبية	عبدالله حسين

وثيقة

٧٢	بيان براغ	

قصة

١١١	تسع عشرة قصة قصيرة جدا	محمود شقير
١١٦	سجين القرية	د .ابراهيم العلم

شعر

١٢٠	بقايا صور لعائد من الزيارة	راجح غنيم السلفيتي
١٢٤	لو كنت استطيع	باسم النبريص

شهريات

١٢٧	اخبار ثقافية	

Digitized by Birzeit University Library

أفكار هادية في ذكرى خالدة

مع صدور هذا العدد تكون قد انقضت عشر سنوات على وفاة القائد الشيوعي الفذ، والمناضل الوطني البارز فؤاد نصار (ابو خالد). الذي كانت حياته ونضاله تجسيدا لقضايا الشعب الفلسطيني وكفاحه المرير من اجل الاستقلال الوطني واقامة دولته المستقلة .

من عادة الشعوب ان تكرم قادتها الافذاذ وتحيي ذكراهم ، ولعل من ابرز مظاهر التكريم للقائد فؤاد نصار، وخلود ذكراه، هو ان الافكار التي زرعها قد نمت وترعرعت ونبتت جذورها قوية في هذه الاراضي الطيبة وانتشرت فروعها وارفة في جميع ارجاء منطقتنا بحيث لا تقوى اعتى العواصف على اقتلاعها او المس بها .

قبل اربعين عاما رأى فؤاد نصار بحسه السياسي الثاقب وبأفكاره الماركسية اللينينية النيرة ضرورة عرض القضية الفلسطينية على منظمة الامم المتحدة " لتخلص (الشعب الفلسطيني) نهائيا من المساومات على حسابه . ولانه يعتقد ان هذا هو الميدان الوحيد الذي يمكننا ان نكشف فيه القناع عن وجه الاستعمار ولان لنا فيه اصدقاء سيؤيدون قضيتنا ". كما ورد في مقال فؤاد نصار عام ١٩٤٦ والذي اعادت نشره جريدة الطليعة المقدسية .

وها نحن اليوم نرى التأييد الواسع وعلى جميع الاصعدة التي تحظى به المبادرة السوفياتية الداعية لعقد مؤتمر دولي باشراف الامم المتحدة لحل القضية الفلسطينية ونزاع الشرق الاوسط بمشاركة جميع الاطراف المعنية بما فيها منظمة التحرير الفلسطينية، وان يكون المؤتمر صاحب الصلاحية الكاملة للتفاوض من اجل سلام وطيد من خلال اقرار الحقوق المشروعة للشعب الفلسطيني وفي مقدمتها حقه في اقامة دولته المستقلة، ومن خلال الانسحاب الاسرائيلي الكامل من الاراضي التي تحتلها اسرائيل منذ عام ١٩٦٧.

ومقابل هذا التأييد الواسع ، والذي طوره القادة السوفيات في مبادرتهم الاخيرة بالدعوة لتشكيل لجنة تحضيرية من الاعضاء الدائمين في مجلس الامن للاعداد لعقد المؤتمر الدولي والذي اكده وزير خارجية الاتحاد السوفياتي في خطابه امام الجمعية العمومية للامم المتحدة وفي لقائه مع نيكسون، مقابل ذلك تسعى اوساط الامبريالية الامريكية واسرائيل معتمدة على اطراف الحلول المنفردة

Digitized by Birzeit University Library

في العالم العربي الى افراغ المؤتمر الدولي من محتواه وتحويله الى مظلة يتم من خلالها عقد مفاوضات مباشرة بين اسرائيل وكل طرف عربي على حدة .

وتحاول هذه الاوساط مواجهة التحرك السوفياتي لعقد المؤتمر الدولي عن طريق وضع الشروط امام مشاركة الاتحاد السوفياتي ورفض مشاركة منظمة التحرير في هذا المؤتمر كما تحاول الامبريالية الامريكية معارضة عقد المؤتمر الدولي من خلال صيغة " التفاهم الثلاثي " التي اعلن عنها ريتشارد ميرفي امام لجنة الشؤون الخارجية التابعة لمجلس الشيوخ الامريكي . والتي يتم اعدادها من احد مساعديه بين مصر واسرائيل والاردن .

وعبر حسني مبارك في تصريحاته حول كون المؤتمر مظله للتفاوض وتهديد منظمة التحرير بوجود بدائل للتمثيل الفلسطيني ان هي لم ترضخ للشروط الامريكية ، من وجه نظر العرب المشاركون في " صيغة التفاهم الثلاثي " والذين لا يعارضون الشروط الامريكية المطروحة .

وهكذا نرى ان المخاوف التي طرحها فؤاد نصار من تآمر الملوك والامراء العرب على القضية الفلسطينية ومحاولة تصويرهم الخطر المتوقع من عرض القضية على منظمة الامم المتحدة ما زال موجودا وبوجوه وأساليب جديدة .

ان صرخة فؤاد نصار بأن الشعب " يريد اليوم ان يقرر مصيره بنفسه وعلى الملوك والامراء والحكام ان يؤيدوه " تمثل دعوة اليوم لتوحيد الحركة الوطنية الفلسطينية حول برنامج كفاحي معاد للامبريالية وأن يأخذ الشعب الفلسطيني زمام المبادرة في طرح برنامجه النضالي وعلى المخلصين من الحكام العرب ان يدعموا هذا الموقف ويهيئوا له فرص النجاح لا التآمر عليه كما يفعل دعاة الحلول المنفردة .

فالف تحية لذكراك الخالدة وستبقى افكارك تنير طريق المناضلين .

Digitized by Birzeit University Library

تلك سياسة الادارة الأميركية وتلك نتائج الاعتماد عليها!

أسعد الأسعد

في سعيها الحثيث، لتحقيق تسوية لقضايا المنطقة، تحاول الانظمة والدوائر المعنية ترتيب الاوضاع بشكل يتناسب ومصالحها الذاتية، بعيدا عن اية حسابات اخرى، ولذلك فان هذه المساعي قد تحقق اى شيء، لكنها بالتأكيد لن تجلب الخير والسلام لشعوب المنطقة، لان هذه الشعوب، ومصالحها، لم تكن على جدول اعمال اجتماعات ولقاءات زعماء هذه الانظمة ابدا.

فمنذ التوقيع على اتفاقات كامب ديفيد، والامور تجرى باتجاه اعادة ترتيب الاوضاع بشكل يتناسب ومخططات الادارة الامريكية وحلفائها في المنطقة، وكان للنجاح في اخراج مصر من دائرة الصراع، الاثر الكبير على مجريات الاحداث وتطورها فيما بعد، حيث نجحت الادارة الامريكية في التغلغل في ادق الامور واكثرها خصوصية، الامر الذى ادى الى تفاقم الاوضاع في مصر، الى حد مسخ قدراتها الذاتية، وتوريطها في خطط الادارة الامريكية، الى حد الصمت التام على القرصنة الامريكية ضد ليبيا، وضد قيام الطائرات الامريكية باختطاف طائرة مصرية مدنية .. الى التدريبات العسكرية المشتركة على ارض مصر، .. الى التدخل في الحياة المصرية عموما وتخريبها، وكل ذلك تحت سمع وبصر النظام، بل وبتشجيع منه.

وقد كان واضحا ان الادارة الامريكية تحضّر النظام المصرى وتعدّه للقيام بدور هام في تحقيق مخططاتها، وضمن هذا التوجه، كان لا بد من اعادة العلاقات مع الاردن والتي قُطعت لاسباب لا تزال قائمة، وكان النظام الاردني قبلها قد مهد لذلك بسلسلة من التصريحات الاعلامية، والتي كرست لتبييض

Digitized by Birzeit University Library

صفحة نظام مبارك، والترويج لاختلافه عن السادات .

وكان واضحا ان قطبي التسوية، الاردن ومصر، كانا على وفاق تام، وتساوق كبير في خطواتهما وتنسيقهما منذ اللحظة الاولى، الامر الذى اعاد لمصر دورها واهميتها في عملية ترتيب الاوضاع للدخول في تسوية على الطريقة الامريكية، بعد ان توهم البعض ان النظام المصرى قد استنفذ دوره، ولم يعد لديه ما يقدمه .

وقد برزت خلال هذه الحقبة، مجموعة من العوامل والظروف التي ادت الى التسريع في ترتيب الاوضاع، بما يتلائم والمخططات الجارى تنفيذها . فان كان النظام الاردني قد لعب دورا مهما في ادارة العملية ولا يزال، وخاصة فيما يتعلق بتحجيم منظمة التحرير، ومحاولات القفز عليها واحيانا من خلالها الى المناطق المحتلة واعادة ترتيب وضع مؤيديه ومحاسبيه، الى غير ذلك من فصول الدور المعروف للقاصي والداني، فإن احدا لا يمكنه اغفال دور الاخرين، وخاصة الملك الحسن الثاني ملك المغرب ،والذى يبدو وكأنه يحتكر دور العرّاب، ففي جولة الكاسب الاولى، كان له اليد الطولى، وها هو يلعب دورا اكثر تقدمًا، واكثر وضوحا في التحضير لكامب ديفيد الثاني، غير ان الحلقة المركزية، ظلت كما شاء لها وخطط لها مخططوها منذ اللحظة الاولى في كامب ديفيد ، واعني، السعي لتعريب كامب ديفيد، ومن خلال مصر، والتي تبقى المفتاح الاهم في سلسلة مفاتيح الشرق الاوسط، والذى تحرص الادارة الامريكية على عدم التفريط بها، ولتحقيق ذلك، فللادارة الامريكية طرقها، ولكلّ طريقة زمان ومكان. ولكل طريق انظمة ورجال، وتبقى سياسة التوريط، السياسة الاكثر نجاعة لابتزاز المواقف، ونجاح الضغوط وقد كان ذلك جزءا مهما في سياسة الادارة الامريكية عموما، وتجاه مصر على وجه الخصوص . بحيث اصبحت الاوضاع في مصر لا تطاق، وعليه فان اطراف التسوية يحاولون استباق الاحداث، وكسب الوقت قبل فوات الاوان، وتغير الظروف، خاصة وان بوادر اعادة اللحمة الى منظمة التحرير باتت قاب قوسين، وهذا ـ لو تحقق ـ فانه سيقلب حسابات اطراف التسوية، واول اشارة وردت على لسان الرئيس المصرى حسني مبارك حين لم يستطع اخفاء انزعاجه، فهاجم بيان براغ صراحة، حيث قال" ان بيان براغ من شأنه ان يضع صعوبات جديدة امام اطراف التسوية." وهذا يجب ان يشكل حافزا ودافعا لفصائل منظمة التحرير للعمل من اجل انجاز الوحدة الوطنية على اسس كفاحية ووطنية معادية للامبريالية وحلفائها .

من هنا فان الادارة الامريكية ـ والتي بدت وكأن صبرها قد نفذ ـ اوعزت بالتعجيل في عقد لقاء مبارك ـ بيرس، والتوقيع على مشارطة التحكيم، بأى شكل من الاشكال، وقد كان لها ما طلبت، فجرى التوقيع على مشارطة التحكيم، وتم التنازل عن نصف طابا قبل البدء بالتحكيم .

وقد كان واضحا ان مبارك سوف يرضخ في نهاية المطاف، نظرا لمجموعة من الاعتبارات والمؤشرات، التي كان من السهل معها استنتاج ما حصل .

وان كان مبدأ المقايضة قائم في السياسة الدولية للعالم الرأسمالي، فان ما اشرنا اليه

Digitized by Birzeit University Library

في عدد سابق من " الكاتب " من ان هذه الانظمة تسعى الى مقايضة الحقوق الوطنية للشعب العربي الفلسطيني، وحقوق شعوبها بتحسين احوال هذه الانظمة نفسها، لا يزال قائما، وقد وافقت على تحقيقه بأى شكل، بل سعت بنفسها الى ذلك، مقابل حمايتها وحماية مصالحها، ونفوذها . ومن اجل ذلك، فقد افرجت الادارة الامريكية فورا عن جزء من مساعداتها لمصر، في خطوة واضحة، كثمن للتنازل الذى قدمّه نظام مبارك، والذى كانت تدلوحت به قبيل التوقيع على مشارطة التحكيم، وقبيل لقاء بيرس ـ مبارك .. والادارة الامريكية تعرف تماما داء النظام ، وهي تعي جيدا الدواء ، فداء مصر يكمن في ديونها الخارجية، والتي ارتفعت في عهد مبارك الى اكثر من ٣٦ مليار دولار، في الوقت الذى كانت في عهد عبد الناصر لا تتعدى المليار وسبعماية الف دولار "١ر٧" ارتفعت في نهاية عهد السادات، الى ما يعادل العشرين مليار دولار، والطفت للانتباه ان حجم الديون العسكرية يبلغ اليوم ٤ر٥ مليار دولار، وتبلغ نسبة الفائدة المستوفاة عليه، ١٤ ٪ الامر الذى يؤكد مدى الخراب والدمار الذى لحق بمصر والمصريين جراء سياسة الاعتماد على الولايات المتحدة ،وربطها بمشاريع ومخططات الادارة الامريكية، بشكل سافر، ووقح، ولعل في الحديث الذى جرى بين بوش مساعد الرئيس الامريكي وحسني مبارك في زيارة الاول للقاهرة مؤخرا ما يكفي للتدليل على هذا الواقع، فقد قال بوش لحسني مبارك مذكّرا" ان اربعة من بين كل خمسة ارغفة يأكلها الشعب المصرى ، مصدرها الادارة الامريكية ومساعداتها " .. ولا نظن ان هناك ما هو اوضح او ادلّ على التهديد من هذا.. ومن جهة اخرى، فقد اجمع المراقبون على اختلاف توجهاتهم الى ان مبارك خضع فعلا لابتزاز الادارة الامريكية، ورضخ لضغوطها، غير ان هذا الرضوخ، لا يمكن فهمه بمعزل عن طبيعة النظام نفسه، وبنيته الطبقية، فقد ادت مختلف التراجعات التي قدمها نظام مبارك استكمالا لما بدأه السادات من قبل، الى تراكم العديد من المعطيات وهيأت الظروف لظهور فئات اجتماعية أثْرت على حساب قوت الملايين من ابناء مصر وسعادتهم ،وهي التي تشكّل اليوم اعمدة الحزب الحاكم في مصر، ومراكز النفوذ فيها، الامر الذى دفع بمصر الى رأس قائمة الدول التي تعاني من تراكم الديون الخارجية ، ولا تملك الخروج بسلام من مأزق كان من الممكن تجنبه لو ادرك النظام مصالح الامة والوطن، وعمل من اجلها .

ومع ذلك فان كافة الدلائل تشير الى ان النظام مغرق في سياسته، متمسك في نهج الاعتماد على الولايات المتحدة ومساعداتها ،حتى بدت ميزانية الدولة السنوية معتمدة على المساعدات الامريكية، الامر الذى يزيد من تردى الاوضاع عموما ، وبشكل مدمر .

ويلفت النظر في هذا السياق، الى التطور في سياسة المساعدات ، حيث اوعزت الادارة الامريكية الى حليفاتها لتقديم ما يمكن تقديمه ،فاليابان افرجت عن معونة بمبلغ ٤٠ مليون دولار مباشرة بعد لقاء بيرس ـ مبارك رغم ان الاتفاق على هذه المعونة تم في عام ١٩٨٤، مع ان المعونة ـ ثقافية ـ

ان تفاقم الديون وتراكمها ،حوّل كثيراً

Digitized by Birzeit University Library

من القطاعات الاقتصادية في مصر الى قطاعات تعتمد على توزيع المنتوجات الامريكية سواء المستوردة، اوتلك التي يعاد تصنيعها في مصر، مما ادى الى شل العديد من الصناعات الوطنية، وفي هذا السياق لا بد من التذكير بحقيقة المعونة الامريكية، والتي تتحول الى استثمار امريكي متعدد الاغراض، يسيطر على الاقتصاد المصرى ،ويحوله الى اقتصاد تبعي، مهمته الاساسية تسويق المنتجات الامريكية، ومن ثم تحويل مصر الى سوق استهلاكي، يعتمد اساسا على الولايات المتحدة .

ان الادارة الامريكية، تضيف الى ما حققته من جر مصر الى حظيرتها انجازا آخر، وخطوة اخرى على طريق اخضاع مصر لمخططاتها ومصالحها، فبعد تحويل مصر الى قاعدة للجيوش الامريكية متعددة الاسماء والاشكال والاغراض، وتدمير اقتصادها وتحييدها في الصراع الدائرو ربطها بعجلة السياسة الامريكية عموما، فانها تدفعها لجر المزيد من الدول العربية الى سياستها ، بل انها اليوم،المرشح الاقوى لقيادة جناح الدول المرتبطة بالسياسة الامريكية ومخططاتها .

من هنا فان الخطورة تكمن في استمرار تمسك بعض الجهات الفلسطينية، بعلاقاتها مع النظام المصرى، والاصرار على عدم رؤية المخاطر التي سوف تنجم عن استمرار هذه العلاقة، ليس فقط بتبرئة هذا النظام، ومنحه صك غفران ، بل ومن خلال التغطية على الدور الذى يقوم به النظام، باستكمال مخطط كامب ديفيد بل وتطويره في كثير من الاحيان

ان رؤيتنا للمخاطر الناجمة عن اتفاق عمان، يجب ان لا تدفعنا الى التغاضي عن المخاطر المترتبة عن استمرار العلاقة مع نظام كامب ديفيد، نظام حسني مبارك،فان كان الملك حسين يسعى لخلق البدائل في المناطق المحتلة، وخارجها . فان النظام المصرى هو الاخر لديه ما يفعله فيهذا المجال ولا يخفيه، فقد صرّح اسامة الباز ان على منظمةالتحريران تقبل بما يتفق عليه اطراف التسوية، والا فان هناك من الفلسطينيين من هم على استعداد للقبول به

ولذا فان من الاهمية بمكان،ان نعي ادوار جوقة الادارة الامريكية في !لمنطقة، لكي تستوعب اللحن الذىيعزفه كل منهم، رغم ان الالحان الصادرة عنهم، تبدو متساوقة ومتناغمة في هذه الايام، بشكل يدعونا الى ادراك الجهد الذى بذلته الادارة الامريكية، من اجل ان يعزف هؤلاء لحنا واحدا، وضعته الادارة الامريكية .

بقي انتذكّر البعض ممن كان يدافع عن الخطوات الاولى لهذا النهج، فانكر علينا تحذيرنا مرارا للسائرين على هذا النهج من مغبة التورط في هذه السياسة ، سياسة الاعتماد على الولايات المتحدة، وعلى الانظمة الرجعية خاصة في مصر والاردن، وبعد سياسة الاعتماد على الولايات المتحدة وانظمة الرجعية العربية ... وتلك نتائجها ،فهل يمكن لاحد ان يدافع عن هذا النهج بعد الان؟

Digitized by Birzeit University Library

جبهة القوى المعادية للامبريالية سبيلنا المضمون لتحقيق أهدافنا الوطنية

بقلم : نعيم الاشهب *

ليس خافيا ان مكانة وهيبة منظمة التحرير الفلسطينية قدأخذت بالتدهور المتواصل بعد العدوان الاسرائيلي على لبنان صيف ١٩٨٢. ومن مضاعفات هذا العدوان يتضح ان الامر لم يقتصر على ارغام منظمة التحرير الفلسطينية على الخروج من لبنان، حيث كانت تتمركز حركة المقاومة الفلسطينية وتمارس منظمة التحرير قدرا غير قليل من حرية الحركةواستقلالية القرار، بل ان آثار هذا العدوان وما خلقه من امكانيات افضل للتحالف الامريكي ـ الاسرائيلي، والتي جرى تجنيدها على الفور في مضاعفة الضغوط وتسعير الدسائس في المنطقة، قد ادت بالنتيجة الى تفكك حلقات التحالف السورى الفلسطيني ـ الوطني اللبناني . هذا التحالف الذى شكل، بعد خروج مصر من جبهة المواجهة ضد المحور الامريكي ـ الاسرائيلي ، خط المواجهة العربية التحررية الرئيسي في المنطقة ضد مكائد ومؤامرات اعداء الشعوب العربية .

وبدوره، اعطى تفكك حلقات هذا التحالف السورى ـ الفلسطيني ـ الوطني اللبناني دفعا جديدا لنشاط معسكر الاعداء وضاعف شهيته في السعي لكسر حلقات هذا التحالف المفكك كل على حدة .

واذا كان الشعب اللبناني، بقيادة حركته الوطنية، قد افلح في الغاء اتفاق آيار ١٩٨٣ ، وارغام قوات البحرية الامريكية على الجلاء فان التحالف الامريكي ـ الاسرائيلي ـ العربي الرجعي قد نجح في دفع لبنان من جديد الى دوامة الاحتراب الطائفي الدموى الرهيب والفوضى الشاملة .

اما الحركة الوطنية الفلسطينية وتجسيدها منظمة التحرير الفلسطينية، فقد تركز الضغط ، بعد فشل محاولة تصفيتها جسديا خلال حصار بيروت ، لجرها الى مزالق التسويات الاستسلامية . وفي هذا المضمار جرى توظيف واستغلال عدد من الظواهر السلبية المستجدة

* نعيم الاشهب : .. عضو المكتب السياسي للجنة المركزية للحزب الشيوعي الفلسطيني .

Digitized by Birzeit University Library

والمحيطة بوجود ونشاط هذه الحركة الوطنية الفلسطينية منها :

١) حالة التشتت الجديد بعد بيروت، للمقاتلين ولاجهزة منظمة التحرير، وضغوط البيروقراطية الفلسطينية التي تكونت ضمن هذه الاجهزة من اجل تأمين الظروف المريحة لبقائها واستمرارها .

٢) الوضع العربي المتردي والضاغط ،بدوره، بقوة على منظمة التحرير خاصة والحركة الوطنية الفلسطينية عامة، وتصعيد المساعي، من جهات عربية مختلفة، لاحتواء منظمة التحرير بالاستفادة من الظروف والصعوبات المستجدة .

٣) الاثار السلبية التي تركها على الجماهير الفلسطينية الموقف العربي العاجز خلال العدوان على لبنان، ولا سيما خلال الدفاع البطولي عن بيـروت .

ومعروف ان واشنطن قد بادرت، بمجرد مغادرة آخر مقاتل فلسطيني بيروت الى طرح مشروع ريغان، الذي لا يخرج عن كونه محاولة لخلق الاوهام حول " الحلول" الامريكية للقضية الفلسطينية خاصة وازمة الشرق الاوسط المزمنة عامة .

وينبغي الافتراض بان هذا المشروع في صياغته وتوقيت طرحه قد اخذ في الحسبان الطبيعة الطبقية لقيادة الحركة الوطنية الفلسطينية ومدى تأثرها بالعوامل السالفة الذكر،وكونها تمثل، في الاساس طبقة اجتماعية ذات امتيازات، تجعلها مستعدة لقبول اية صفقة، اذا بدا لها انها تؤمن مصالحها الاقتصادية وامتيازاتها . بل يمكن القول ، بأن هذا المشروع معنون، في الاساس ، لهذه الطبقة، ولا سيما لشرائحها داخل الارض المحتلة التي ارهقها استمرار الاحتلال الاسرائيلي هذه السنين الطويلة ومساعيه، ليس فقط لافقارها وتدميرها اقتصاديا، بل واقتلاعها مع بقية جماهير الشعب الفلسطيني من تلك الاراضي، ليحل مكانهم المستوطنون الصهاينة الجدد – وهي خاصية مميزة للاحتلال الاسرائيلـــي .

واذا اردنا اختزال هذا المشروع لقلنا انه حاول خلق الوهم لدى هذه الشرائح الاجتماعية بان الاراضي المحتلة يمكن استعادتها من الاسرائيليين، ولكن عبر البوابة الاردنية . اما الدولة الفلسطينية المستقلة، فقد نفاها هذا المشروع دون مواربة.

وفي الظروف المعقدة التي خلّفها العدوان الاسرائيلي على لبنان ١٩٨٢ ومضاعفاته، فقد انساقت هذه الشرائح الاجتماعية وممثلوها السياسيون وراء اوهام الحلول الامريكية . وهنا ، بدأ يبرز التباين بين طموح هذه الشرائح وممثليها السياسيين للتخلص من الاحتلال وبين استعدادها للتخلي عن هدف الدولة الفلسطينية . وتكريس هذا التباين على شكل شرخ داخل الحركة الوطنية الفلسطينية، وغدا نقطة للفرز السياسي المبكر وقد زاد من تعقيدات الخلاف داخل هذه الحركة، بعض الوسائل التي جرى اللجوء اليها لحله، والتداخلات من بعض الاطراف العربية ولا سيما الرجعية .

ويكمن جوهر خلافنا ، مع هذا الاتجاه وممثليه في قناعتنا المستندة الى التجربة الملموسة ان التخلي عن هدف الدولة المستقلة لن يعيد الارض الفلسطينية المحتلة، حتى ولا للاردن، ما دام الامر رهن الارادة

Digitized by Birzeit University Library

الامريكية. فهذه الاراضي وقعت مع غيرها، تحت الاحتلال الاسرائيلي، كما هو معروف، في حزيران ١٩٦٧، ومع ان مجلس الامن الدولي اتخذ قراره رقم ٢٤٢ في تشرين ثاني ١٩٦٧، المتعلق بهذه الاراضي المحتلة، ومضت سبع سنوات بعد هذا القرار حتى اتخذت الجمعية العمومية قرارها رقم ٣٢٣٦ الذي يعترف بحق شعبنا الفلسطيني في تقرير مصيره واقامة دولته المستقلة، فان الولايات المتحدة واسرائيل وحدهما قد حالتا خلال هذا الفاصل الزمني، بل وحتى اليوم، دون تسوية قضية الاراضي العربية المحتلة. وتبدو خطورة الوهم بحل مشكلة الارض عبر الحلول الامريكية، اذا لاحظنا ان العوامل الاساسية التي يمكن ان تجبر التحالف الامريكي — الاسرائيلي على التراجع غير متوفرة في الوقت الراهن، ولا سيما مناخ دولي يتجه نحو الانفراج وميزان قوى ملائم في المنطقة.

ولم تكن التطورات الخطيرة التي وقعت داخل الحركة الوطنية الفلسطينية بخافية عن عيون اعداء الشعب الفلسطيني والمتربصين به وبحركته النشطة التي كانت مصدر صداع دائم لهم. فقد جرى تركيز جهود هؤلاء الاعداء لتوسيع الخلاف وتحويله الى انقسام لا رجعة فيه.

وتمحور الضغط لدفع عملية الفرز الى النهاية، بدعوى ان ظروف التسوية تتطلب تشكيل منظمة تحرير من "المعتدلين" واستبعاد "المتطرفين".

وجاء انعقاد المجلس الوطني الفلسطيني في عمان اواخر ١٩٨٤ لتقنين هذا الفرز الخطير والمدمر. ولاول مرة منذ عام ١٩٦٨، حين راحت منظمة التحرير تتحول الى نوع من الجبهة الوطنية بانضمام منظمات العمل الفدائي الى صفوفها، بدأت هذه المنظمة تفقد، نتيجة مجلس عمان السالف الذكر، هذه الخاصية الهامة، حيث تشكل هذا المجلس، بشكل عام من لون سياسي واحد.

وكان مجلس عمان المقدمة الطبيعية لاتفاق عمان[٨] او ما سمي باتفاق التحرك المشترك بين النظام الاردني وقيادة منظمة التحرير، والموقع في شباط ١٩٨٥.

وجدير بالتنويه في هذا السياق ان الملك حسين قد افتتح مجلس عمان بطرح شعار "الارض مقابل السلام" وليس الحقوق الوطنية للشعب الفلسطيني مقابل السلام. هذا اذا سلمنا جدلا ان الجانب العربي هو الذي يتحكم في قضية الحرب والسلام في المنطقة. وقد تحول شعار "الارض مقابل السلام" بعد ذلك الى مضمون اتفاق عمان. وقد جاء هذا الاتفاق تتويجا لتوجهات الرهان على الحلول الامريكية. وكان اخطر ما فيه ليس الاستعداد للتخلي عن الدولة المستقلة لصالح كونفدرالية مع الاردن، او اشراك النظام الاردني في التمثيل الفلسطيني، بل تخويله الولايات المتحدة منفردة بمعالجة القضية الفلسطينية "وحلها". وقناعتنا بهذا الخطر ليس مردها فقط كون الولايات المتحدة متحيزة كليا لاسرائيل والتحالف بينهما يتعزز من يوم لاخر، بل استنادا الى تجربة مصر المريرة كذلك، التي قبل حكامها تخويل الولايات المتحدة منفردة معالجة النزاع بين مصر واسرائيل. ان هذه التجربة تشكل برهانا لا يقبل النقاش على المصير المدمر الذي يمكن ان تؤول اليه قضيتنا العادلة، اذا انفرد

Digitized by Birzeit University Library

حكام واشنطن بتسويتها . فقدكان على مصر، اكبر دولة عربية، ان ترهن استقلالها الى اجل غير معلوم، للولايات المتحدة وان تفتح ابوابها مشرعة للتغلغل الاسرائيلي، وان تدفع فوق كل ذلك، بقية قائمة الحساب الفادحة من حقوق الشعب الفلسطيني، حيث التزمت، بموجب اتفاقيات كامب ديفيد المشؤومة، بان تسهم في فرض تسوية للقضية الفلسطينية سقفها الحكم الذاتي واسقاط حق شعبنا في الدولة المستقلة، كل ذلك في سبيل استعادة سيناء الجرداء مشوهة ومنقوصة ـ كمايشير الى ذلك النزاع المستمر على منطقة طابا ـ منزوعة السلاح ، تنتشر في مختلف اركانهامحطات التجسس الامريكية اوالاطلسية وقواتهما . كان هذا حصيلة تفويض الولايات المتحدة، منفردة ، بمعالجة الصراع بين مصر واسرائيل وبمعزل عن مجمل الصراع العربي ـ الاسرائيلي . فماذا سيكون مطلوبا من الشعب الفلسطيني، والحالة هذه، ان يدفع ليستعيد حقوقه، اذا سلم بتفويض واشنطن منفردة بمعالجة قضيته الوطنية العادلة ؟.

ولكن يلفت الانتباه انه خلال عام واحد من توقيعاتفاق عمان وصل الرهان على الحلول الامريكية الى الطريق المسدود ، بعد سلسلة مثيرةمن المناورات الامريكية ـ الاسرائيلية ـ الرجعية العربية . وبات واضحا للعيان ان هدف واشنطن التي بادرت علنا لمباركة هذا الاتفاق لدى توقيعه ، وكذلك هدف حكام الاردن، لم يكن الا تدمير منظمة التحرير واخراجها نهائيا من حلبة الصراع.

وكانت الحلقة الفاصلة في ذلك ، هي مطالبة قيادة منظمة التحرير باعلان قبولها غير المشروط بقرار مجلس الامن ٢٤٢ الصادر في تشرين ثاني ١٩٦٧ والذى تنحصر صلاحيته في التعامل مع نتائج العدوان الاسرائيلي في حزيران ١٩٦٧ واحتلال الاراضي العربية . اى التعامل مع النزاع باعتباره نزاعا حدوديا وحسب . وغني عن القول انه في اطار هذا التعامل ليس هناك مكان لحق الشعب العربي الفلسطيني ، الطرف الاساسي في صراع الشرق الاوسط ، في تقرير مصيره وحقه في اقامة دولته الوطنية المستقلة على ارضه بعد تحريرها من الاحتلال الاسرائيلي ـ كما اعترفت له بذلك قرارات الجمعية العمومية المتلاحقة اعتبارا من ١٩٧٤ ،ومن قبل ذلك قرار التقسيم الصادر في ٠١٩٤٧/١١/٢٩ وبالتالي : ليس هناك مكان لمنظمة التحرير التي غدت تشكل تجسيدا لهذا الاعتراف الدولي الهام .

وجدير بالتنويه ان واشنطن كانت خلال ذلكالعام من حياة اتفاق عمان ـ كانت دوما ـ ترفض تقديم اى التزام يشير من قريب او بعيد الى اعترافها بحق الشعب الفلسطيني في تقرير مصيره، بل ولا حتى اعترافها بوحدة الشعب الفلسطيني داخل الاراضي المحتلة وفي الشتات ووحدة قضيته .

لكن السؤال الذى يطرح نفسه، في ضوء التطورات اللاحقة هو لماذا دفعت واشنطن مناورة اتفاق عمان، بهذه السرعة الى الطريق المسدود، ولماذا هذا الاستعجال الملفت للنظر ؟.

يمكن الاعتقاد بان وراء ذلك عدد من الاعتبارات من اهمها :

١ ـ ان ازمةالشرق الاوسط قد برهنت على كونها اكثر النزاعات الاقليمية تشابكا مع الوضع الدولي . ولم يكن من باب الصدف ان

Digitized by Birzeit University Library

اولى مظاهر التحول في السياسة الامريكية من الانفراج الى التوتير والمواجهة قد تجلت في هذه الازمة، حين اجهضت واشنطن بيان فانس ـ غروميكو في خريف ١٩٧٧، وذلك بعد ايام معدودات من توقيعه. ومعروف ان هذا البيان قد دعا الى عقد مؤتمر دولي في نهاية ذلك العام لمعالجة وحل ازمة الشرق الاوسط. ودفعت، بدل ذلك السادات للقيام بزيارته المثيرة لاسرائيل وصولا الى اتفاقات كامب ديفيد التي زادت، عمليا، من تعقيدات الازمة والتوتر في المنطقة بدل حلها. وواضح للعيان ان ادارة ريغان، تشدد، حاليا، من مساعيها في دفع العالم نحو مزيد من التوتر ونحو جولات جديدة من سباق التسلح، واستكمال ترتيباتها على النطاق الدولي لتأمين اوسع سلسلة من الاحلاف والقواعد العسكرية لخدمة استراتيجيتها الكونية. وفي هذا السياق، فان منطقة الشرق الاوسط الحساسة لموقعها الاستراتيجي ومصادرها النفطية تحتل موقعا خاصا. في ضوء ذلك، يبدو استعجال واشنطن لتصفية القضية الفلسطينية منسجما مع هذا السياق، وذلك لفتح الطريق واسعا لتكتيل دول المنطقة ـ اسرائيل والدول العربية سوية ـ فيما يسمى "بالاجماع الاستراتيجي".

١ـ الاحساس باقتراب انهيار النظام الكولونيالي العنصري في جنوب افريقيا، في ضوء النهوض الثوري المتعاظم لشعب جنوب افريقيا، مما يجعل مصير هذا النظام المشين محكوم بقصر زمن، ولا مناص من انهياره. ويدرك حكام واشنطن وحكام اسرائيل على السواء، عندها، واكثر من اي وقت مضى، على القضية الفلسطينية، باعتبارها آخر بؤرة ملتهبة لنظام كولونيالي يرفضه المجتمع الانساني المعاصر. من هنا يتزايد قلق حكام اسرائيل والولايات المتحدة واستعجالهم في السعي لاجهاض القضية الفلسطينية قبل فوات الاوان.

٢ـ توقع انفجار ازمات اقتصادية ـ اجتماعية في البلدان العربية، يسرع في انضاجها انخفاض مداخيل النفط انخفاضا حادا. مأخوذ في الحسبان ان الاموال التي تدفقت خلال ازدهار مداخيل النفط لم يجر استثمارها لتطوير مجتمعات انتاجية، بل استهلاكية في الاساس. لكن المحصلة الاساسية لذلك كانت الترسيخ الواضح لطريق التطور الرأسمالي في بلدان المنطقة مع كل السمات الموضوعية لهذا التطور، من فرز طبقي واستقطاب خطير للثروة والفقر. وبالتالي: فان توقع انفجار مثل هذه الازمات في هذا البلد العربي او ذاك وحتى في سلسلة منها، اصبح توقعا واقعيا. ومثال السودان هو مجرد اشارة اولية على ذلك. كما ان تمرد قوات القمع المركزي في مصر قبل عدة شهور والذي تسبب في ترك البلاد بلا سلطة لساعات طويلة، دليل واضح على نضوج الظروف الموضوعية لانفجار مثل هذه الازمات. ولولا غياب العامل الذاتي، في حينها، لكانت النتائج بالضرورة مختلفة. وفي هذا السياق، يكمن الاستعجال في السعي لاجهاض القضية الفلسطينية، في كونها احد العوامل التي تشحن الشعور القومي العربي بالتمرد على التحالف الامريكي ـ الاسرائيلي من جهة، ومن الجهة الاخرى لكون العامل الفلسطيني الذي ينوء، حاليا، تحت ضغط الوضع العربي المتردي

Digitized by Birzeit University Library

سينتعش في حال حدوث متغيرات ايجابية في هذا البلد العربي او ذاك، وستزداد المصاعب امام محاولات "ترويضه".

٤ ـ وبالارتباط مع العامل السابق ومضاعفاته، فان قلق واشنطن يتزايد على مصير الانجازات التي حققتها حتى الان في منطقتنا، بما فيها اتفاقات كامب ديفيد، في ضوء الادراك بان كامب ديفيد قد مضى عليها ثماني سنوات ولم تفلح كل الجهود في توسيع رقعتها بضم اية دولة عربية اخرى. مأخوذ في الحسبان ان توسيع كامب ديفيد، هذه المرة، موجه لكسر "الجوزة" الاصعب وهي القضية الفلسطينية.

٥ ـ القلق المتزايد من المبادرات السلمية المتتالية التي يطرحها الاتحاد السوفياتي والتي راحت تسبب حرجا متزايدا لحكام واشنطن وتل ابيب، بما في ذلك المبادرة الاخيرة التي طرحتها القيادة السوفياتية لدى زيارة الرئيس الفرنسي ميتران لموسكو في تموز الماضي، والتي تدعو الى تشكيل لجنة تحضيرية من الدول الخمس الدائمة العضوية في مجلس الامن والاطراف المعنية بالنزاع الشرق اوسطي، ومن ضمنها منظمة التحرير، للاعداد لمؤتمر دولي لمعالجة وحل ازمة الشرق الاوسط، هذه المبادرة التي قبلها ميتران، واحدثت ارتباكا وتباينا في اوساط التحالف الامبريالي الغربي.

واذا كان الملك حسين قد اعلن وقف التنسيق السياسي مع القيادة الرسمية لمنظمة التحرير بدعوى ان هذه القيادة تفتقر للمصداقية وراح يركز هجومه، عمليا، ضد حق شعبنا الفلسطيني في تقرير مصيره، ويصور هذا الحق باعتباره العقبة التي تحول دون تحرير الاراضي المحتلة ١١ فان اشارات سابقة قد انطلقت لتوحي بنفاذ صبر واشنطن على وجه الخصوص، والحاحها على الحصول على نتائج سريعة من المناورة مع قيادة منظمة التحرير. وقد كانت الغارة الاسرائيلية الجوية على مقر قيادة منظمة التحرير الفلسطينية في تونس، صيف عام ١٩٨٥، اشارة واضحة على ذلك. ومعلوم ان ريغان قد خرج فورا يؤيدها في بيان علني. وفي حينها لم يكن صعبا على المراقب السياسي ربط هذه الغارة برفض الجانب الفلسطيني في الوفد المشترك، الفلسطيني ـ الاردني، اعلان قبوله قرار مجلس الامن ٢٤٢ مجردا ودون اية اعترافات او التزامات بحق الشعب الفلسطيني في تقرير مصيره. وكان الوفد المشترك في زيارة للندن بدعوة من وزارة الخارجية البريطانية في الصيف الماضي، وليست الغارة في الاساس بسبب حادث السفينة الايطالية المشبوه كما بدا في حينها.

لكن اعلان الملك حسين ايقاف التحرك المشترك مع قيادة منظمة التحرير كان بمثابة مرحلة جديدة، وبداية لهجوم شامل ومكشوف لتصفية منظمة التحرير وخلق بديل لها. وقد باشر النظام الاردني هذا الهجوم مستفيدا من المرتكزات التي حققها على حساب المنظمة، خلال العام الذي انقضى على اتفاق عمان. ويتصاعد هذا الهجوم حاليا على عدة محاور منها:

١ ـ مصادرة التسهيلات النسبية التي حصلت عليها منظمة التحرير داخل الاردن في ضوء توقيع اتفاق عمان، بما في ذلك اغلاق العديد من مكاتبها وطرد بعض مسؤوليها وكوادرها.

Digitized by Birzeit University Library

٢ـ قيام ابوالزعيم واتباعه من قيادة وكوادر حركة فتح، بايعاز من النظام الاردني، باعلان تمردهم وتحديهم لفتح وقيادتها، والسعي لتكوين رأي عام فلسطيني من حولهم، وبخاصة داخل الاردن، يستغلون في ذلك نقمة الجماهير الفلسطينية على كافة مظاهر الفساد في اجهزة فتح و م.ت.ف. والتي يعرفها جيدا ابو الزعيم بحكم مركزه السابق في حركة فتح كمسؤول عن " المخابرات " فيها "

٣ـ تجميد نشاط اللجنة المشتركة الفلسطينية الاردنية لدعم صمود سكان الارض المحتلة والتي تشكلت في ضوء قرار من القمة العربية في بغداد بتخصيص مبالغ معينة لهذا الغرض والاستعاضة عن هذه اللجنة المشتركة بموءسسة اردنيـــة

٤ـ الهجوم لشامل على مواقع منظمة التحرير داخل الاراضي الفلسطينية المحتلة ذاتها، بالتنسيق والتعاون مع سلطات الاحتلال الاسرائيلية. وقد جند النظام الاردني، في هذا الهجوم كل المزايا التي يتمتع بها في هذا الصراع، بما في ذلك تحكمه في حركة الاشخاص والبضائع من الارض المحتلة عبر الاردن وقضايا جوازات السفر وسواها، مأخوذ في الحسبان كون الاردن يشكل البوابة الرئيسية لسكان الاراضي المحتلة، وكذلك تحريك العناصر البيروقراطية الفلسطينية التابعة للنظام الاردني، واحياء روابط القرى التي نشأت بمبادرة من المحتلين الاسرائيليين وعملت في خدمتهم لكنها توارت عن الانظار بسبب العزلة الخانقة التي اصيبت بها، وتجنيدها في هذا الهجوم ضد منظمة التحرير مع الايعاز للقائمين عليها بتغيير اسمها لتمويه حقيقتها، بالاضافة الى التعاون مع الاسرائيليين لتعيين مجالس للبلديات بدل المجالس البلدية المنتخبة التي اقالتها سلطات الاحتلال ومنع اجراء انتخابات جديدة

لكن يبدو ان اطراف التآمر على القضية الفلسطينية غير مطمئنين الى مفعول هذه العوامل وحدها. لذلك بدأ الحديث يتردد، في الاونة الاخيرة، من عمان وتل ابيب وواشنطن بنغمة متجانسة عن اهمية وضرورة " تحسين ظروف المعيشة" لسكان الاراضي المحتلة. بل ان عمان اعلنت في اواخر تموز الماضي ان وزارة التخطيط الاردنية قد اعدت خططا لتنمية الضفة والقطاع المحتلين لمدة خمسة اعوام تبلغ تكاليفها قرابة مليار ونصف المليار من الدولارات. وان واشنطن وعدت بتغطية نصف هذا المبلغ. وربما كان الغرض من اعلان مثل هذه الارقام الضخمة نشر الاوهام في اوساط اصحاب المصالح في الاراضي المحتلة الذين تطحنهم الازمة المتفاقمة واجراءات الاعتصار الاسرائيلية. وعلى اى حال، فانه من الاستخفاف بالعقل السليم تصور ان واشنطن المسؤولة الاساسية عن استمرار الاحتلال الاسرائيلي لاراضينا وعن معاناة شعبنا الفلسطيني طيلة هذه السنوات معنية بتحسين ظروف المعيشة لسكان الاراضي المحتلة. اما حكام اسرائيل والاردن، فما الذى يدفعهما، الان، لمثل هذا الحماس والغيرة للعمل من اجل تحسين ظروف المعيشة لسكان الاراضي المحتلة، في وقت يعاني اقتصاد بلديهما ازمات حادة، ناهيك عن ان حكام اسرائيل هم الذين اوصلوا بسياسة منهجية، طيلة تسعة عشر عاما، اقتصاد الاراضي المحتلة الى وضعه المزرى الحالي، وحكام الاردن كانوا

Digitized by Birzeit University Library

، من قبلهم قد عرقلوا تطور اقتصاد الضفة الغربية الفلسطينية لصالح الضفة الشرقية الأردنية وفق خطة مدروسة، وتحكموا في صرف اموال الصمود العربية المقررة من مؤتمر القمة العربية في بغداد ١٩٧٨ لسكان الاراضي المحتلة، فنهبوا، وما يزالون حتى اليوم، قسما اساسيا منها والقسم الاخر وجهوه لتعزيز مواقع رجالاتهم في الارض المحتلة، على حساب اية مشاريع ذات جدوى حقيقية في دعم الصمود وايجاد فرص عمل للعاطلين المحرومين.

اننا نعثر على مغزى هذه "الغيرة" المفاجئة للثالوث الامريكي ـ الاسرائيلي ـ الاردني في تعليق شولتز، وزير الخارجية الامريكية على اعلان منح حكومته الاردن مؤخرا مبلغ اربعة ملايين ونصف المليون دولار للانفاق على "تحسين ظروف المعيشة" لسكان الضفة والقطاع، اذ يقول: "قد تساعد الملك حسين في مواجهة عرفات". وعندما سئل "برنارد كالب" المتحدث الرسمي بلسان الخارجية الامريكية في هذا الصدد عن سبب تقديم هذا المبلغ عبر الاردن، اجاب: ".. لان الاردن هو القناة المناسبة، في رأينا، لتحقيق التنمية في تلك المناطق، كما ان خطة التنمية الاردنية تخدم الاهداف الامريكية الرامية الى ايجاد فلسطينيين معتدلين يمثلون الشعب الفلسطيني بدلا من متطرفي منظمة التحرير" (٢). لكن الطريف في تصريح "كالب" هذا، عدا دفاعه عن الاردن، انه يعتبر القائمين على منظمة التحرير الان "متطرفين". في حين جرى تصنيفهم، قبل عام ونيف، عندما وقعوا اتفاق عمان، بالمعتدلين، والذين رفضوا اتفاق عمان بالمتطرفين ١.

وفي الحقيقة، فان زيارة الملك حسين لواشنطن، قبل شهور، والتي تمت عقب اعلان تجميد التنسيق السياسي مع منظمة التحرير، قد اسفرت عن خطة اعتمدها الطرفان، من اثنى عشر بندا، مكرسة لتصفية منظمة التحرير وخلق بديل لها والمدخل لتحقيق ذلك هو ما يسمى بـ "تحسين ظروف المعيشة" لسكان الاراضي المحتلة، المستهدف، في الحقيقة، خلق قاعدة اجتماعية، في تلك الاراضي، للحل الامريكي بصيغته الاخيرة، والقائمة على التقسيم الوظيفي بين اسرائيل والاردن في الاراضي المحتلة (Condominium) وهذا المشروع هو التفسير الاسرائيلي للحكم الذاتي الوارد في اتفاقيات كامب ديفيد (٣). وبموجبه تتكرس تلك الاراضي فعليا ونهائيا كجزء من اسرائيل، مع اعفاء اسرائيل من تبعة حقوق المواطنة لسكان تلك الاراضي، باعتبارهم ـ كما كان حالهم قبل الاحتلال عام ١٩٦٧ ـ مواطنين اردنيين. وبذلك يتم تجنب المساس بالطابع العنصري لدولة اسرائيل، ومخاطر تحولها الى دولة ثنائية القومية، هذه الاشكالية التي واجهت حكام اسرائيل منذ اللحظة الاولى لاحتلالهم لبقية الاراضي الفلسطينية عام ١٩٦٧، والتي يتفقون جميعا، رغم هامش المناورة بين فصائلهم المختلفة، على عدم التخلي عنها. ومن جانبهم، فان حكام الاردن، قد اتخذوا، بالفعل الخطوات التشريعية الضرورية لجعل التمثيل الفلسطيني جزءا من مؤسسات الدولة الاردنية، ليس فقط فلسطينيو الاردن بل وكذلك فلسطينيو الارض المحتلة.

ويلاحظ مما نشر، حتى الان، حول مخطط

Digitized by Birzeit University Library

" تحسين ظروف المعيشة" المذكور، ان الاموال المخصصة له يجرى توجيهها لخلق وبدعم استثمارات خاصة، وليس مؤسسات عامة كالبلديات او تعاونيات في المدينة والريف. وهذا مفهوم، طالما الغرض الاساسي ،هو خلق شريحة اجتماعية يرتبط ولاؤها بسياسة الاطراف الممولـــة (٤).

كذلك يلاحظ اهتمام خاص، هذه المرة، بالريف. فالسلطات الاردنية تتحدث عن استعدادها تبني مخططات هيكلية تفصيلية لجميع قرى الضفة الغربية البالغة ٤٣٠ قرية، تمل كلفتها عشرة ملايين ونصف مليون دينار ، تتقسام صرفها الاردن واسرائيل بالتساوي! (٥) وعلاوة على ما يوحي به هذا الكلام من استعداد حكام الاردن للعمل المشترك المكشوف مع المحتلين الاسرائيليين، فان الهدف الاساسي من وراء ذلك هو محاولة كسب الريف الفلسطيني، واستغلال قلق سكانه على مصير اراضيهم عن طريق نشر الوهم في اوساطهم بان الارض يمكن تحريرها من الاحتلال، ولكن العقبة التي تمنع ذلك هي تفتت منظمة التحرير التي تصر على ربط تحرير الارض بحق تقرير المصير، وبالاستفادة في الوقت ذاته ، من اخطاء قيادة منظمة التحرير التي ركزت جهودها وامواليها على كسب ولاء برجوازية المدن على حساب الريف المهمل. وقد حاول الاسرائيليون من قبل، استغلال هذه الاخطاء بتشكيلهم لروابط القرى ، لكن السياسة الاسرائيلية لمصادرة الارض حكمت على هذه الروابط الصنيعة بفشل كامل. الا ان السعي لخلق قاعدة اجتماعية للحل الامريكي داخل الاراضي الفلسطينية المحتلة يشكل احد جناحي المؤامرة. اما الجناح الاخر، والذى راح التحالف الامريكي ـ الاسرائيلي يوليه اهتماما متزايدا فهو التخلص نهائيا، من قضية اللاجئين الفلسطينيين، بتوطينهم حيث هم، وفصل قضيتهم، الى غير رجعة، عن مصير سكان الارض المحتلة، وبالتالي : حصر معالجة القضية الفلسطينية برمتها على اعتبارها مشكلة سكان الارض المحتلة وحسب.

وفي هذا السياق، لم يقتصر الامر على جهود المحتلين الاسرائيليين التي بدأت منذ وقت مبكر لتصفية مخيمات اللاجئين في الضفة والقطاع، بل وان حكام الاردن بدأوا مؤخرا عملية مماثلة. فقد قاموا بضم مخيمي الحسين والوحدات الى امانة العاصمة ـ عمان كما قاموا بضم مخيم البقعة الى بلدية السلط، بدعوى تحسين الخدمات لسكانها. وجدير بالذكر ان هذه المخيمات موجودة منذ وقوع كارثة تشريد الشعب الفلسطيني عام ١٩٤٨، دون ان يطرأ على وضعها اى تغيير.

ويرافق هذه الجهود الاسرائيلية ـ الاردنية لتصفية مخيمات اللاجئين الفلسطينيين عطية تقليص مبرمج لخدمات وكالة الغوث الدولية للاجئين الفلسطينيين.

لكن يبدو ان مخطط " تحسين ظروف المعيشة" الانف الذكر ليس الا الحلقة الاصغر. اما الحلقة الاكبر، فهي ما يجرى الترويج له باسم مشروع مارشال للشرق الاوسط (٦). وتتحدث الدوائر المعنية بهذا المشروع عن ارقام متفاوتة تصل الى ثلاثين مليار دولار ستخصص لتطبيقه، تساهم فيها الولايات المتحدة واوربا الغربية ودول النفط العربية، بدعوى " انعاش المنطقة". لكن هدف مصمميه هو تأمين تمرير الحل الامريكي لازمة الشرق

Digitized by Birzeit University Library

الاوسط، وتوطين اللاجئين الفلسطينيين نهائيا خارج بلادهم .

ويلاحظ ان الحديث عن هذا المشروع راح يتردد مع تفاقم الا زمة الاقتصادية في المنطقة ، بخاصة في ضوء تدني مداخيل النفط تدنيا حادا. وليس غريبا ان يستهوي الحديث عن هذا المشروع حكام اكثر من بلد في المنطقة، وفي مقدمتهم حكام الاردن . وغني عن القول ان هؤلاء الحكام الذين ترددوا في الانضمام الى كامب ديفيد ١٩٧٨ لاعتبارات مختلفة، ونالوا على ذلك اموالا طائلة من دول النفط العربية ، وفقا لقرار قمة بغداد، باسم دعم الصمود ، قد انهوا كل تحفظاتهم وترددا تهم واندفعوا بكل قوتهم في العمل لصالح الحل الامريكي، بعد ان راحت تجف هذه الاموال من الدول النفطية. ولم يكن صدفة ان تستأنف واشنطن دعمها المالي للخزينة الاردنية هذا العام بعد انقطاع منذ ١٩٧٨، في ضوء تردد الاردن الانضمام الى كامب ديفيد، مأخوذ في الحسبان ان اكثر من نصف مداخيل موازنة الدولة الاردنية تأتي من مصادر خارجية .

ويلفت الانتباه ان اكثر المتحمسين لهذا المشروع وترويجا له هم حكام اسرائيل. فالى جانب ما يحققه لهم من فرص الحل الامريكي في المنطقة، فانهم ، كما يبدو، يتطلعون ، في حال وضعه موضع التطبيق، ان يكونوا المقاول الرئيسي في المنطقة. وعلاوة على ما يتيحه لهم ذلك من اقتطاعات اساسية من مخصصاته، فهو يتيح لهم فرص التغلغل من الباب العريض، في البلدان المجاورة المشمولة بهذا المشروع الخطير .وفيما يتعلق بواشنطن ،فيبدو انها تحاول ان تفرض حلها، هذه المرة، بالاعتماد اساسا على قوة الدولار، دون ان يعني ذلك ، بطبيعة الحال ، اسقاط الادوات الاخـــرى .

ومع تحريك خيوط المؤامرة المتشعبة، تتواتر التحركات والزيارات من والى المنطقة ،وكان آخرها زيارة بوش، نائب الرئيس الامريكي في اخرتموز وبداية آب ، والذي صرح في اسرائيل يوم ٢٩ تموز بقوله : " نريد ان نرى الملك حسين يقوم بمفاوضات مباشرة مع دولة اسرائيل" ، واضاف : " ان زيارة رئيس الوزراء للمغرب ، يمكن ــ في رأينا ــ ان تسهل ذلك .. والخطوة المنطقية، اذا امكن ترتيبها ، هي لقاء مباشر بين الملك حسين ورئيس الوزراء " (٧) .وعقب مغادرته المنطقة اكد قناعته بان افضل طريق للحل ما زال المفاوضات الاردنية ــ الاسرائيلية المباشرة بمشاركة فلسطينيين لا يمثلون منظمة التحرير الفلسطينية. وكانت تاتشر، رئيسة وزراء بريطانيا ، قد ادلت بتصريح مماثل لدى زيارتها المنطقة في وقت سابق. وجدير بالتنويه ان بوش كان قد اعلن في معرض تلخيص نتائج جولته في الشرق الاوسط وشملت اسرائيل ومصر والاردن، انه امكن ايجاد" قواسم مشتركة هامة" في الاقطار الثلاثة، وان هذه القواسم" تشكل اساسا صلبا لتجديد المسيرة السلمية "(٨)، الامريكية طبعا. ونقلت الانباء ان بوش حمل معه مشروعا من ستنقاط لهذا الغرض. وكان السفير الامريكي في اسرائيل توماس بيكرنغ قد وصف زيارة بوش لدى بدايتها بانها " جولة شرق اوسطية في اطار مهمة هامة جدا عهد بها اليه الرئيس ريغان "(٩).

ومعلوم انه قبل زيارة بوش للمنطقة

Digitized by Birzeit University Library

باسبوع كان رئيس وزراء اسرائيل شمعون بيرز، يحل ضيفا على ملك المغرب. وقد عاد من لقائه ومحادثاته التي استمرت يومين كاملين ليعبر عن ارتياحه من النتائج. وكانت صحيفة " يديعوت احرنوت " الاسرائيلية قد نشرت يوم ١٩٨٦/٧/٢٦ المشروع ذي النقاط العشرة الذي حمله بيرز معه لملك المغرب ويتضمن رفض الانسحاب الكامل من الاراضي المحتلة، ورفض التفاوض مع منظمة التحرير، ورفض حق اقامة دولة فلسطينية مستقلة، ورفض المؤتمر الدولي كاطار للتسوية.

وحول مغزى اللقاء العلني بين الملك الحسن وبيرز، كانت صحيفة " علهمشمار" الاسرائيلية قد كتبت في افتتاحيتها يوم ١٩٨٦/٧/٢٤ ان هذا اللقاء " اشارة ورمز لانهيار جدار العداوة والرفض الذي احاطوا به اسرائيل، دون اى اختراق، حتى ١٩٧٧. وها هو الان، هذا الجدار، يسقط سقوطا كاملا امام اعيننا ". وبالاضافة الى ذلك هناك زيارات مورفي المكوكية والتي كان قد اعلن لدى بداية احداها في نهاية آذار وبداية نيسان " ان هناك تقدما ملحوظا في تحقيق اتفاقية كامب ديفيد، وان من الافضل ان تبقى سرا " (١٠)

ولكن مما يلفت الانتباه، انه رغم كل ذلك، فان الاطراف العربية المتصلة بهذه النشاطات والتحركات تحاول ان تعطي مدلولا آخر لهذا كله. فحكام الاردن، ما يزالون يعلنون، رغم كل ذلك، تمسكهم بالمؤتمر الدولي كاطار للتسوية وبحضور منظمة التحرير الفلسطينية، دون ان يحد هذا الكلام ولو لدقيقة واحدة، من نشاطهم المحموم، لتدمير القاعدة السياسية لمنظمة التحرير واغلق البديل لها. وفي هذا السياق، لم يكن من باب الصدفة ما اجاب به بيرس على سؤال الملك الحسن له حول الحوار مع منظمة التحرير " انا الذى سأسألك عمن سأتحاور معه، لاننا نجدهم في سورية، والاردن وتونس (١١). وحول زيارة بوش الخطيرة للمنطقة فلم تر فيها دوائر النظامين الاردني والمصرى ومن على شاكلتهماسوى ان هدفها الوصول الى كرسي الرئاسة في الانتخابات الامريكية القادمة (١٢) اما زيارة بيرس للمغرب ، فعدا حكام مصر الذين رحبوا بها علنا، انسجاما مع ولائهم غير المطعون فيه لاتفاقات كامب ديفيد ، فان حكام الاردن والسعودية والخليج قد اعلنوا انهم" فوجئوا بهذه الزيارة ! مع ان المعلومات الواردة تؤكد علمهم المسبق بذلك ، وان ملك المغرب اوفد مبعوثا خاصا يوم بدء المحادثات مع بيرس، الى الملك حسين (١٣). وعلينا الاعتراف بان تعليق صحيفة "عل همشمار" الاسرائيلية السالف الذكر حول مغزى زيارة بيرس للمغرب لا يخلو من الحقيقة ، على الاقل فيما يتعلق برد الفعل العربي على الزيارة، التي خدمت، في جملة ما خدمت ، كونها " بروفة" ناجحة " للمقبلين على التفاوض المباشر للحلول الجزئية والمنفردة وفي اطار الحل الامريكي كحكام الاردن. اما حكام المغرب، فكان تعليلهم المعلن لدعوة بيرس علنا لزيارة المغرب هو احاطته علما بفحوى قرارات قمة فاس المتخذة قبل اربع سنوات، وكان حكام اسرائيل لم يسمعوا بها ولم يحددوا موقفا منها. بل وكان هذا هو الاتصال الاول بين حكام اسرائيل والمغرب، فلم يعد سرا ان بيرس نفسه قد زار المغرب قبل هذه الزيارة مرتين، وان حكام المغرب قد لعبوا دورا رئيسيا في ترتيب زيارة

Digitized by Birzeit University Library

السادات لاسرائيل، والاتصالات المغربية الاسرائيلية لم تنقطع يومـــا .

ان ما يمكن استخلاصه من عمليات التمويه المجوجة هذه، هو سعي الاطراف العربية المنغمسة في النشاط التآمري لتصفية القضية الفلسطينية لصالح الحل الامريكي، لمواصلة ذر الرماد في العيون حتى تنجز استعداداتها وترتيباتها في نسف المنظمة وخلق البديل والتهيؤ للتسوية المنفردة، ويلفت الانتباه ان هذه الدوائر تحاول تزيين صورة بيرس باعتباره فارس السلام الموعود. وبالتالي: لا بد من دعمه للعودة باغلبية الى الحكم في اسرائيل، حيث تشير المعلومات الى نية حزبه فرط التحالف الحكومي مع الليكودوالدعوة لانتخابات مبكرة. وبالمناسبة: فان استقبال ملك المغرب لبيرس علنا لا يخلو، الى جانب اهدافه الاساسية الخطيرة، من هدف كهذا، مأخوذ في الحسبان ان في اسرائيل اكثر من نصف مليون يهودي من اصل مغربي .

وعلى لهيب هذه المؤامرة المترامية الاطراف والمتعددة القوى لتصفية القضية العادلة للشعب الفلسطيني، فقد راحت تتبخر الاوهام والرهانات على الحل الامريكي، ولو انه من المبكر القول ان هذه الاوهام والرهانات قد تبددت بالحد الكافي. وامام الاحساس بالخطر الداهم بدأت تتكون اجواء افضل لمباشرة الاتصالات والحوارات التمهيدية .بهدف استعادة وحدة منظمة التحرير على اسس معادية للامبريالية والاحتلال. وجاءت مبادرة الرئيس الجزائري الشاذلي بن جديد، التي دعا فيها الفصائل الوطنية الفلسطينية الى الحوار، وصولا الى استعادة وحدة منظمة التحرير، لتعطي دفعا ايجابيا لهذه العملية.

ومن اجل ان تتكلل المساعي لاستعادة وحدة منظمة التحرير بالنجاح، ومن اجل صيانة مكاسب شعبنا التي حققها باغلى التضحيات، ومن منطلق الشعور الرفيع بالمسؤولية الوطنية، وخاصة في هذه الفترة العصيبة، فاننا نرى ان الاساس السياسي لاستعادة الوحدة، هو العودة الى الالتزام بقرارات الاجماع الوطني الفلسطيني، وبخاصة قرارات الدورة السادسة عشرة للمجلس الوطني الفلسطيني التي عقدت في الجزائر اوائل ١٩٨٣، واسس اتفاق عدن ـ الجزائر الذي جرى التوقيع عليه بين فتح واطراف التحالف الديموقراطي صيف ١٩٨٤ وبخاصة المتعلقة بتشكيل قيادة جماعية لمنظمة التحرير ترتفع بها الى مستوى التحديات المتعاظمة، والتخلي عن الاوهام على الحلول الامريكية، والغاء اتفاق عمان الذي شكل تجسيدا لهذه الاوهـــام .

ونحن على ثقة بانه عندما تتحقق الوحدة الوطنية الفلسطينية من جديد، فسيدرك المتكالبون اليوم، من كل حدب وصوب، للاجهاز على قضية شعبنا العادلة، ان الجزوة الفلسطينية اقسى من اضراسهم وانها قضية شعب صقلته نيران المعارك الضارية على مدى سبعين عاما، وان هذه القضية العادلة تحظى بدعم حلفاء لا يقهرون وعلى رأسهم الاتحاد السوفياتي الذي يؤكد كل يوم التزامه بالدعم الكامل لحقوق شعبنا الوطنية العادلة وحرصه الاكيد على استعادة وحدة منظمة التحرير الفلسطينية على اسس العداء للامبريالية والاحتلال، واستعداده لتقديم كل عون في هذا المضمـــار .

واذا كان الوضع العربي المتردي قد اثر

Digitized by Birzeit University Library

ويؤثر، سلبا ، على حركتنا الوطنية الفلسطينية، مأخوذ في الحسبان عامل الشتات الفلسطيني، واسهام هذا الوضع العربي بقوة في نشوء واستفحال ازمة منظمة التحرير، فما من شك في ان شق الوحدة الوطنية ،على النحو الذى جرى، قد اغرى اعداء شعبنا على تشديد هجومهم وتصعيده، وعلينا الاقتراض، بالمقابل ،ان استعادة الوحدة الوطنية الفلسطينية ،ستؤثر، بدورها، وتساهم في استنهاض وضع ثورى في المنطقة ،فمن المعروف انه كان لهذه الحركة، على الدوام، دور نشيط وفعال في اطار حركة التحرر الوطني وحركة العداء للامبريالية في المنطقة، بحكم تاريخ هذه الحركة الفلسطينية وموقعهـــا .

ومن جانب آخر فان استعادة التحالف السورى ــ الفلسطيني ــ الوطني اللبناني سيقود الى استعادة زمام المبادرة في المنطقة ، من ايدى قوى الرجعية واليمين ، ويسد الطريق على عملية الاستنزاف الخطيرة التي تتعرض لها اطراف هذا التحالف . فحتى سورية الدولة، تتعاظم ضدها، اليوم، الضغوطات والتهديدات ، سواء على الجبهة الاقتصادية او العسكرية . وليس من سبيل سليم، امام هذه الاطراف الا العودة الى الطريق الذى زكته الحياة واكدت صحته وجدواه .

الهوامـــش :

١) جرى توقيع اتفاق عمان في ١٩٨٥/٢/١١ واعلن الملك حسين عن تجميد العمل به في ١٩٨٦/٢/١٩ .

٢) مجلة " الدستور" التي تصدر في لندن عدد ١١ / ٨/ ١٩٨٦ .

٣) قال بيرس، رئيس الوزراء الاسرائيلي امام مؤتمر دولي لرؤساء البلديات في ايار الماضي، " عندما يكون هناك شعبان يعيشان على ارض واحدة فان هناك حلين محتملين: اما اقتسام الارض او اقتسام السلطة، اما الحل الاقليمي او الحل الوظيفي " ومضى يقول : " اعتقد ان الفرصة الحقيقية، هي في الميدان الوظيفي .. الذى يبدأ بالادارة الذاتية " صحيفة السفير اللبنانية ١٧ /٥ / ١٩٨٦ .

٤) اوضح القنصل الامريكي العام في القدس موريس درايبر في محاضرة في معهد ترومان في اسرائيل بتاريخ ١٩٨٦/٧/١٧ ان الادارة الامريكية قررت تخصيص ١٤ مليون دولار سنفق على شكل دعم مباشر للمبادرات الفردية واصحاب رؤوس الاموال في الاراضي المحتلة . (مجلة الكاتب الصادرة في المناطق المحتلة ، عدد ٧٦، آب ١٩٨٦) .

٥) مجلة " العودة" التي تصدر في القدس المحتلة بتاريخ ١٩٨٦/٦/١٩) .

٦) على غرار المشروع الذى اعده " مارشال " وزير الخارجية الامريكية بعد الحرب العالمية الثانية لانقاذ النظام الرأسمالي في اوروبا الغربية .

٧) انترناشيونال هيرالد تريبون ١٩٨٦/٧/٣٠ .

٨) صحيفة الاتحاد الصادرة في حيفا ــ لسان حال الحزب الشيوعي الاسرائيلي بتاريخ ١٩٨٦/٨/٧

٩) مجلة فلسطين الثورة ، لسان حال منظمة التحرير الفلسطينية ١٩٨٦/٨/٩ .

١٠) مجلة " الحوادث " اللبنانية ١٩٨٦/٧/٨ .

١١) صحيفة " البيان " المغربيـــة ، تاريخ ١٩٨٦/٧/٢٥ .

١٢) مجلة " الدستور " التي تصدر في لندن بتاريخ ١٩٨٦/٨/١١ .

١٣) حسب مجلة " فلسطين الثورة" الصادرة في ١٩٨٦/٧/٢٦، فقد تلقى هذا السعوت للملك حسين رسالة من الملك الحسن لم يحضره سوى سفير المغرب في الاردن .

Digitized by Birzeit University Library

فؤاد نصّار
بعد عشر سنوات
على الرحيل الاخير

بقلم : مناضل قديم

الامر المؤكد بعد هذه السنوات العشر التي انقضت منذ رحيل فؤاد نصار هو انها عززت حيوية ذكراه في نفوس رفاقه واصدقائه ومعارفه الكثيرين .

ان جميع وقائع هذه السنوات بخيرها وشرها ، تحمل تزكية للنهج الذي سار عليه . واذا كانت العادة ان يلتفت الكتاب والباحثون الى التراث الفكري المكتوب للزعماء في مناسبات احياء ذكراهم ، فان التقيّد بهذه العادة فيما يخص فؤاد نصار يظل قاصرا عن تغطية جوانب اساسية مشرقة في حياته اليوميّة ومسلكه النضالي . وهي تشكل في الواقع تراثا غير مكتوب تتناقله وتستفيد منه اجيال متعاقبة من المناضلين الثوريين عن اوجه عديدة من الممارسات اليوميّة الكفاحيّة في ثورة عام ١٩٣٦ ، وفي الحياة والتعامل مع الفلاحين انذاك ، وفي التشرد والنفي بعد ذلك ، وفي التعلم الدائب ، والتطور الى مواقع الماركسية اللينينية ، وفي بناء الحزب وقيادته وما تبع ذلك من سجن وتشرد .

والشاهد على هذه الحقيقة ذلك الذى ما زال يختزنه شيوخ في منطقتي الخليل والقدس في ذاكرتهم عن فؤاد نصار ، قائد الفصيل في ثورة عام ١٩٣٦ الكبرى ، وما يذكره الجيل الذى تلاهم عنه كزعيم سياسي وقائد عمالي في الاربعينات ، وبعد ذلك كقائد للحزب الشيوعي الاردني بكل ما تخلل ذلك من عمل سرّي ومحاكمة وسجن طويل وتشـــرد .

ان سيرة الحياة هذه تشكل ذخيرة تربوية ثمينة للاجيال المتعاقبة من المناضلين . واذا كانت هناك عوامل عديدة تسهم في تشكيل شخصية الانسان فان عاملا من بين هذه العوامل كان له تأثير واضح في حياة فؤاد نصار ذلك هو اصالة حسة الطبقي العمالي ، ان

Digitized by Birzeit University Library

هذا الحس لم يتولد لديه نتيجة المعرفة ، بل ان هذا الحس هو الذى قاد فؤاد نصار الى المعرفة، ففي ثورة ١٩٣٦ كان هذا الحس يقوده لان يكون متميزًا في مسلكه مع الفلاحين الذين عمل بينهم وناضل فى صفوفهم عن باقي زملائه من قادة الفصائل، وكان هذا التميّز في حقيقة وجود اللسان المشترك واللغة والاحترام والثقة المتبادلة بينه ، وهو ابن المدينة ، وبين الفلاحين في المناطـــق التي عمـل بهـا .

ان هذه المسألة بعد خمسين عاما من تلك الايام لا تزال تحظى باهمية وتستوجب التذكير الفذ ميز فؤاد نصار بوضوح وصرامة بين الممارسة السلطوية والممارسة القياديّة الثوريّة.

ولهذا كانت علاقته ديموقراطية مع الفلاحين ولم يحدث في الموقع الذى كان يشرف عليه أي شكل من اشكال العنف من طراز تلك التي حدثت في مواقع اخرى إبّان ثورة ١٩٣٦ .

ان البرجوازية وطبقة كبار الملاكين هي التي تنظر الى الجماهير من فوق ، وتتعامل معها وكأنها قطيع يمكن قيادته بالعصا والشعارات الصاخبة والديماغوجية ، وقد اسفر تأثير هذه النظرة في الكثير من ممارسات بعض القوى حتى ايامنا هذه .

وما من شك في ان هناك من ابناء الطبقة العاملة من يفقد حسّه الطبقي ، وينقاد وراء ايديولوجيات وشعارات البرجوازية وكبار الملاكين العقاريين . وهناك بعض من يتأثر به من خارج الطبقة العاملة، بفعل الثقافة، والضمير الشقي، والنزعة الانسانية الاصيلة لايديولوجية الطبقة العاملة وينخرط في تنظيمها السياسي وكفاحها الثوري . ..

لكن فؤاد نصار لم يفقد حسه الطبقي العمّالي ابدا . بل زاد هذا الحس توهجا اطلاعه على الماركسيّة اللينينيّة ، وتعمّق هذا الاطلاع فيما بعد ، حتى غدت له البوصلة التي اهتدى بها حتى نفسه الاخير .

ولم يكن هذا التزاوج بين الحس الطبقي العمالي وايديولوجية الطبقة العاملة لدى فؤاد نصار زواج صدفة. فهناك كثيرون كان لديهم مثل هذا الحس، ولكنهم فقدوه تحت التأثير الايديولوجي للبرجوازية او كبار الملاكين العقاريين ، او تحت تأثير الاغراء المادى ، والمكاسب الشخصية .

وقد كانت قوة هذه التأثيرات تبرز باكبر قدر من الوضوح عند معالجة القضية القومية للشعب الفلسطيني ، وقضية الوحدة العربية، وفي تجربة العقود الاخيرة كانت هناك تأرجحات في الموقف منها بين الانحراف الى اليمين والمغامرة السياسية. والشواهد والامثلة على ذلك موجودة في مواقف وممارسات العديد من القوى السياسية البرجوازية تجاه هاتين القضيتين، ولم يسلم من تأثير هذين الانحرافين ماركسيون وحركات ماركسية .

فلقد غابت تماما من تحليلات هؤلاء "النظرة الطبقيّة" والتحليل الطبقي. وجرى تبرير هذا الغياب باسم " الوطنيّة" و"القوميّة" ونسبت الى الذين تمسكوا بالنظرة الطبقية وبأدوات التحليل الطبقي تهم " "الكوسموبوليتية" و" العدميّة القوميّة" وما شابه ذلك ، وعلى اساس هذا الموقف جرى طمس كافة الفوارق وبات تبنّي موقف البرجوازيّة وكبار الملاكين العقاريين هذا الموقف السائد والمعيار للوطنيّة والقوميّة .

هذه وقائع تدعمها وثائق، ولا يحق لاحد ان يسدل عليها ستار النسيان قبل ان يتعلم

Digitized by Birzeit University Library

منها .

وبغياب النظرة الطبقية بات كل ما يفعله عبد الناصر مثلاً صحيحا ، وأي انتقاد لهذا المسلك او ذاك في سياسة حكومته يكون موضع تشكيك في نوايا الناقد ووطنيّته وتقدميّته. وحتى الديموقراطية السياسيّة في مصر، التي كانت مفقودة كان يجرى السكوت على انتهاكها باسم " حماية النظام " و" تغليب " الانجازات التقدميّة الاخرى للنظام الناصري وابرازها للجماهير العربية دون سواها ، مع ان ابرز ما استغل على الصعيد العربي كان غياب الديموقراطية في مصر من قبل الانظمة الرجعية واليمينية العربية في اضطهادها لشعوبها ، وفي تصوير هذا الاضطهاد كأمر عادي وضرورة يتطلبها الحكم بغض النظر عن هويته الطبقية والاهداف التي يسعى لتحقيقها .

وقد تبين فيما بعد ان التخلي عن النظرة الطبقية في تحليل التجربة الناصرية والتعامل معها ، لم يساعد الطبقة العاملة المصريّة وحلفاءها لمنع الردة الساداتية، كما اكدت هذه الردّة ان غياب الديموقراطية لم يكن في صالح النضال ضد الامبريالية ومن اجل مصر الحرة التقدميّة ، بل كان في صالح التحالف الطبقي الرجعي الذى حكم مصر بعد وفاة عبد الناصر .

وهناك المثل المعاصر، مثل التعامل مع قيادة منظمة التحرير وتقويم ممارساتها . لقد مر وقت طويل كان خلاله اى تعرض بالنقد لموقف ما او ممارسة معينة لقيادة منظمة التحرير يعتبر تجاوزا يثير حفيظة كثيرين بمن فيهم ماركسيين . وكان التحليل الطبقي لهذه الممارسات والمواقف مرفوضا بحجة ان المرحلة الراهنة ، مرحلة التحرر الوطني تلغي أي اعتبار طبقي ، وكان هذا الموقف ينبع من خلط مسألتين مختلفتين — مسألة النضال على اساس قواسم مشتركة بين مختلف الفئات والطبقات الاجتماعية في مرحلة التحرر الوطني ، ومسألة النضال على اساس مصالح الطبقة العاملة وحلفائها في مرحلة لاحقة من أجل الثورة الاشتراكية .

ان تحديد هذه القواسم المشتركة حتى لا يسخّر النضال لاهداف مصلحة طبقة اجتماعية واحدة ، وحتى يكون هذا النضال قادرا على تعبئة وحشد مختلف طاقات وقدرات الطبقات والفئات الوطنية في المجتمع تتطلب التحلّي بروح اليقظة الطبقية حتى لا تجيّر النضالات والتضحيات ونجاحات النضال الوطني لصالح البرجوازية الكبيرة .

لقد كان فؤاد نصار يلح على التحلّي بروح اليقظة الطبقية عند تحديد القواسم المشتركة في العمل الجبهوى . وفي كراسه المعنون " القضية الفلسطينية وموقف الزمرة المنشقة منها " عالج القضية من منطلق طبقي ، خدمة للقضية الوطنية نفسها ، وقد اتاح هذا المنطلق ويتيح التعرف ، بواقعية على القواسم المشتركة ، وعلى طاقات ومصالح مختلف الفئات الاجتماعيّة وصياغة برنامج واقعي للعمل الجبهوى يتجاوب مع مصالح هذه الفئات جميعا ، وبدون ذلك يكون العمل مجرد تذيّل للبرجوازية الكبيرة المستعدّة للتفاهم مع الامبريالية اذا ما سمحت لها الظروف ، او اذا ما واجهت منعطفات صعبة على طريق النضال .

ولقد حدث هذا بالفعل في اتفاق عمان ، وفي تبنّي سياسة الاعتماد على الامبريالية عبر النظامين المصرى والاردني .

Digitized by Birzeit University Library

وظهر ان اولئك الذين كانوا يرفضون المنطلق الطبقي في تحليل مواقف القوى الطبقية في الساحة الفلسطينية، وتحديد ميادين منظمة التحرير على اساس القواسم المشتركة بين مختلف الفئات والطبقات الوطنية وكانما فوجئوا بالتوجهات الجديدة للقيادة الرسمية لمنظمة التحرير، فعزا اغلبهم هذا التحول لشخصية عرفات، وللانحراف اليميني الذي لم يحددوا هويته الطبقية. وان كان بعضهم قد اخذ يتحدث عن ذلك في وقت لاحق وبالتحديد بعد التحليل الطبقي الذي اصدره الحزب الشيوعي الفلسطيني في تقريره السياسي في مطلع عام ١٩٨٥.

واذا ما عدنا بنظرة فاحصة الى الماضي نجد ان هناك مجالا للتقدير بانه لو جرى النضال لتثبيت القواسم المشتركة على اساس طبقي داخل منظمة التحرير لامكن عندئذ تعبئة الجماهير على اساس هذه القواسم، وتوفير قدرات اكبر للدفاع عنها في وجه محاولات تسخير المنظمة بمكانتها وبدورها لخدمة التوجهات اليمينية التفاهمية للبرجوازية الفلسطينية الكبيرة.

لقد كان هناك تغييب للنظرة الطبقية، حتى حينما كانت تحلل الاوضاع السياسية في كل العالم العربي من منطلقات طبقية من قبل قوى ماركسية عربية كانت منظمة التحرير محصنة تجاه هذه التحليلات لقد قيل الكثير حتى عن البرجوازية العربية بمختلف فئاتها، لكن البرجوازية الفلسطينية كانت تستثنى من هذه التحليلات، وكان يظن ان هذه البرجوازية بسبب عدم وجود دولة فلسطينية لها بمنأى عن تأثير البرجوازية العربية حتى وهي تعيش في ظل انظمتها السياسية وترتبط معها بعلاقات متعددة الجوانب وخاصة في الجانب الاقتصادي.

وكان مرد هذا الظن الخاطئ هو القصور عن النفاذ الى داخل الظاهرة. اما بسبب الموقف الخاطئ من الحاجة الى التحليل الطبقي في مرحلة النضال الوطني، او بسبب نقص النضوج الفكري والمعرفة العميقة بالماركسية اللينينية، وعدم اتقان استخدام منهجها.

لكن تطور الاحداث اثبت بما لا يقبل الشك ان هذه البرجوازية التي كانت توصف بالطهر الثوري تتصرف، هي الاخرى، مثل غيرها من البرجوازيات العربية لانها، في الواقع، ومن منطلق الاعتبارات الاقتصادية، جزء من تلك البرجوازيات، ولا يستطيع احد انكار حقيقة ان كبار الرأسماليين الفلسطينيين في السعودية مثلا، هم جزء من البرجوازية السعودية الكبيرة، بل ان ارتباطهم بالنظام السعودي يمكن القول عنه انه اقوى من ارتباط زملائهم السعوديين بسبب كونهم فلسطينيين يمكن طردهم وحتى التصرف بثرواتهم من قبل السلطات السعودية اذا ما اختلفوا معها.

انهم لا يستطيعون التصرف بتعارض مع السياسات الرسمية للبلدان التي يقيمون فيها لكنهم، من الجهة الاخرى، وبوجه عام، ليسوا، من وجهة النظر الاقتصادية، في صراع مع الجماهير الفلسطينية. انهم، من الناحية العملية لا يستغلونها، وهذا ما يضعف القدرة على عزلهم سياسيا، بل انهم في واقع الامر، يبدون محسنين امام قطاعات جماهيرية واسعة بين الفلسطينيين.

هذه عوامل لا تؤخذ في الحسبان، حتى الوقت الحاضر، من قبل البعض، ولذلك فان

Digitized by Birzeit University Library

مواقفهم تتأرجح بين المطالبة باقصاء ياسر عرفات او اقصاء مجموع حركة فتح، وتغلب على معالجة هذه المسألة النظرة البيروقراطية التي تحجّم الخلاف القائم في الساحة الفلسطينية في اطار الصراع بين اشخاص او اطارات بمعزل عن الامتداد الاجتماعي لهؤلاء الاشخاص ولتلك الاطارات .

ان هذا العزل بين الاشخاص والاطارات والقاعدة الاجتماعية لها ،أدى الى استهانة بعض الاوساط الفلسطينيّة بالحاجة الى التوجه للجماهير، وبضرورة معالجة الخلافات القائمة في الساحة الفلسطينية بوسائل سياسيّة وببرامج واقعيّة .

لقد دعا فؤاد نصار في كراسه " القضية الفلسطينية وموقف الزمرة المنشقة منها" الى ضرورة تناول هذه القضية فيواقعها التاريخي الملموس، وفي اطار الصراع العام بين الامبريالية والقوى المعادية لها وفي مقدمتها الاتحاد السوفييتي وباقي البلدان الاشتراكيّة

وعلىاساس هذا دعا وناضل من اجل حل هذه القضية بالاستناد الى طاقات وقدرات الجماهير الفلسطينيّة والشعوب العربية وحركاتها الوطنية والتقدميّة وبالاستناد الى دعم قوى السلام والتحرر وفي- مقدمتها الاتحاد السوفييتي والبلدان الاشتراكية .

واوضح ان نجاح هذا النضال يتوقف على مدى الانسجام والتعاون بين مختلف هذه القوى الفلسطينيّة والعربيّة والعالميّة .

ومن هذا المنطلق تمسّك فؤاد نصار بالموقف الوطني والاممي، في نفس الوقت، لحل قضية الشعب الفلسطيني الوطنية، ودافع عن هذا الموقف في ظروف صعبة، وإليهيعود الفضل، بصفة رئيسية، في تثبيت الخط السياسي الوطني – الاممي للحزب الشيوعي الاردني في تلك الظروف .

لقد ارتكزت ماركسية فؤاد نصار على قاعدة متينة من الحس الطبقي الاصيل. ولهذا كان مثابرا في تطبيقه للمنهج الماركسي. ولم يؤخذ بمختلف التخريجات، ومحاولات لي عنق الماركسية لتتطابق مع مصالح وايديولوجيات الطبقات غير العمالية، وخاصة من قبل مثقفي البرجوازية الصغيرة وممثليها السياسيين ، سواء ما تعلق من هذه التخريجات بتبرير سياسات التعصب القومي والمغامرة اليسارية ، اوما تعلق منهابتبرير سياسات التراجع والانحراف اليمينية .

لقد لاحظ بدايات تطبيق سياسة الاستعمار الجديد في الاردن، ولم يخلط بين " "الاصلاحات" التي ادخلتها هذه السياسة على وضع وممارسات النظام في الاردن انذاك والاصلاحات التقدمية التي كانت تنفذ في مصر في مطلع الستينات، بل كشف عن الجوهر الطبقي لكل منها، وعارض اولئك الذين خلطوا بينها وصوروا ما كان يجرى من " اصلاحات" في الاردن بانه مظهر من مظاهر الاقتراب من السياسة التقدميّة التي كان ينفذها جمال عبد الناصر ، وكشف الطبيعة الطبقية لتلك الاصلاحات، واشار الى انها تهدف لتعزيز مواقع الاستعمار الجديد في الاردن ، ودفع الاردن قدما على طريق التطور الرأسمالي المحدود والرامي فقط الى توسيع القاعدة الاجتماعية للنظام بضم اوساط البرجوازية الاردنية الكبيرة الى تحالف كبار الملاكين والبرجوازية البيروقراطية الحاكم في الاردن .

قد تكون هذه المسألة والاستنتاجات التي

Digitized by Birzeit University Library

تومل اليها بصددها من الامور المسلم بها في الوقت الحاضر ، ولكن التوصل اليها في ذلك الوقت المبكر اي في مطلع الستينات ينبغي حسابه في خانة الانجازات السياسيّة والفكريّة لفؤاد نصار على الصعيد الاردني .

لقد انقضت عشر سنوات منذ رحيله الاخير ويقيننا ان هذه السنوات العشر قد اكدت صحة ما كان يدعو اليه ويناضل من اجله . وخاصة في القضايا الاساسية مثل القضية الفلسطينية، وقضية الوحدة العربية، وقضايا ومشاكل حركة التحرر العربية وافاق تطورها ، ومسألة العلاقات مع البلدان الاشتراكية .

ويمكن التأكيد ،بثقة، ان ليس هناك مما قيل وكتب باسم فؤاد نصار ما يستوجب اغفاله او ابطاله خصوصا اذا ما اخذ بمراعاة للظرف الذى كتب او قيل فيه .

وفي اعتقادنا ان رفاق فؤاد نصار واصدقائه لهم ملء الحق في الاعتزاز باتساع التأييد للمواقف التي دافع ودافعوا عنها في اوساط حركتنا الوطنية، وفي الشعور ،انطلاقا من هذه الحقيقة بأن ذكرى قائدهم الراحل ستظل حيّة الى امد طويـل .

Digitized by Birzeit University Library

على هدى طريق مجيد

بقلم : نظام عطايا

لم يحي فؤاد نصار لذاته، بل وهب روحه المعطاءة لشعبه وحركته الوطنية، وهب ذاته للكفاح الفلسطيني، ومن الاعماق خرج ليقف هو ورافعي راية الاصالة الكفاحية راية العمال والكادحين، الراية الشيوعية في مركز الكفاح الوطني لهذا الشعب، ولهذا فحياة فؤاد نصار هي التراث الاصيل والنقي لهذا الشعب وهي كذلك المستقبل الذي كان في جوهر كفاح القائد الفذ ابو خالد. خرج فؤاد نصار ومعه الوجه المشرق لقضية شعبه، وجه الطبقة العاملة الى آفاق ارحب واشمل الى الافق الانساني ليرسم لهذا الشعب المسار الذي يخلصه من كافة مظاهر الاستغلال.

لقد مثلت حياة فؤاد نصار صورة حية لتاريخنا الوطني في ماضيه وحاضره ومستقبله ومثلت تراثا فكريا وسياسيا وتربويا ما زال يحيا ويعيش في ذاكرة شعبنا، ويتسع مدى هذا التراث ليصبح اداة كفاح جبارة لاوسع قطاعات شعبنا، هذا التراث لم يصنع في ابراج عاجية ولا من وراء "المكاتب" المغتربة عن حياة شعبنا، ولم يصنع كذلك عبر امتلاك ملكية الفهلوة الدبلوماسية ولا عبر المساومة على دم هذا الشعب ولا عبر ابواق الديماغوجيا بكافة اشكالها ونماذجها. ولم يكن اساسه التغني بامجاد الماضي وتحويلها الى فرمان لدخول قلاع جلادي هذا الشعب. ولم يكن هذا التراث ايضا حصيلة اتفاقيات "جنتلمن" مع احفاد الذين وضعوا القضية الفلسطينية على طبق من ذهب امام بريطانيا. ان التراث الذي تشربناه من فؤاد نصار عبر النضال المرير والشاق لم يكن غير الولاء للجماهير ولقضاياها، ولقضية تحررها الوطني والاجتماعي.

ان فؤاد نصار هو بحق الابن البار للطبقة العاملة ولجماهير شعبنا فقد عاش كالسمكة في بحر الجماهير ولم يخرج منه كما خرج غيره، بقي مع الجماهير يتعلم منها ويعلمها فقلبه

Digitized by Birzeit University Library

النابض كان جزءا من نبض الحركة لهذه الجماهير، عاش معها في انتفاضها وفي ثورتها المسلحة عام ٣٦ مناضلا ثوريا لا يعرف الكلل وهب دمه بشموخ، شموخ جبال الخليل والقدس الذي قاد فيها الثورة المسلحة. عاش في المعتقلات، بين ابناء شعبه : منهم ولهم رغم قساوة القيود المكبل بها، الا ان صرير قيود جلاوزة النظام الاردني تحولت به وبرفاقه الى انشودة مكافحة تسير على ايقاعها جماهيرنا في الشوارع، في نابلس ورام الله.. وعاش المناضل فؤاد نصار منفيا خارج الوطن وبرغم المرارة الا انه استطاع قهرها حيث نقل قضيته العادلة، قضية شعبه الى الساحة الاوسع الى الساحة الدولية، ادراكا منه لموقع قضية شعبه ونضاله من مجمل النضال العالمي.

لم يعش فؤاد نصار في المنفى كمستجم على انقاض قضيته، كما فعل ويفعل الكثيرون الان، بل كان شعبه ووطنه هما مصدر الهامه الوحيد، ولهذا فقد كان يعيش من اجل قضيتها، يتنفس غبار معاركها الكفاحية، ولم يحلم كسائح" برغيف مسخن" من جنين، عاش في المنفى بين مناضلي الشعوب التي عرفها عندها، تعلم منها تجاربها ونقل اليها بامانة رسالة وطنه وشعبه الكفاحية، كان يساهم ويعيش المنفى في صنع تاريخ شعبه في سجون انظمة القهر العربية، في الصحراوي، وفي معتقلات النظام العراقي، لم يعتد حياته من دفء القصور، ولا من استعراض ترف الشرف لانظمة الرجعية العربية، لم ير اي ابعاد غير الجماهير ولم يستمد قواه الا منها، رأى المستقبل في سواعد العمال والفلاحين الكادحين ولم يره في السواعد الصفراء المسامرة الامبريالية في المنطقة العربية. وهذا هو مصدر تفاؤله الثورى تفاؤله بحتمية الانتصار حيث قال " نؤمن بالتطور الاجتماعي، نؤمن بكفاح الشعوب المنظم، هذا الكفاح الذى سيدك معاقل الظلم والطغيان والاستعمار، معقلا بعد معقل، حتى يخفي اثرها وتزول معالمها السوداء. ان المستقبل الزاهر للانسانية وللشعوب التي تؤلف هذه الانسانية. ان المستقبل للشعوب لا لاعدائهـــا ".

لم يكن النضال الوطني والاجتماعي بالنسبة لفؤاد نصار عبارة عن نزهة بل هو نضال شاق ودؤوب وطويل، نضال يحتاج الى ارادة فولاذية لا تقهر، تلك هي ارادة شعبنا التي نهل منها فؤاد نصار. نضال يحتاج الى امضى سلاح، سلاح الماركسية اللنينية (راية الشعوب المقهورة وراية العصر). ان التعب من النضال حالة غريبة عن اصالة شعبنا ولهذا كانت غريبة عن فؤاد نصار، كان يرى في النضال مغزى ومعنى حياته كلها، وكان يرى حريته وسعادته من حرية شعبه وسعادته ولم ير من اجل تحقيق ذلك غير الكفاح الجماهيرى طريقا وحيدا، وقد قال " واعود فاكرر ماتعلمته الشعوب خلال نضالها البطولي في سبيل الانعتاق السياسي والاقتصادى وهو ان طريق الكفاح الشعبي المنظم، ضد الاستعمار وفي سبيل الحرية هو الطريق الوحيد ولا عبرة في طول الطريق وصعوبة السير عليه، لان الشعوب لا تسير الى حريتها على طريق مفروش بالورود والرياحين ولكنها تنال حريتها لتتمتع بالورود والرياحين".

ومن منطلق ثقة فؤاد نصار المطلقة بالجماهير وطاقاتها اللامتناهية على العطاء، حيث كانت مدرسته الوحيدة التي تعلم في

Digitized by Birzeit University Library

ميادينها ، من هذا المنطلق لم ير الافعال النضالية والكفاحية الا بها ولها ، وكان دائما ضد ابقاء هذه الجماهير في الظل وعلى قارعة الطريق ، بل يجب جذبها للنضال كون ذلك الاداة الناجعة والحقيقية للانتصار، وبهذا فقد كان ضد الاسلوب " السوبرماني" في النضال المعتمد على الطاقات الفردية ، لان هذا يقود بالضرورة الى وضع الافراد في معارضة الجماهير وتبرير مقولة ان الافراد هم محرك التاريخ ، ويقود بالتالي هذا الطريق الى اليأس لانه ينبع بالاساس من عدم الثقة بالجماهير وطاقاتها وفي هذا الصدد قال فؤاد نصار" ان الدوافع الاساسية لصدور هذه الافكار والاتجاهات تكمن في الاصل ، في عدم وعي اصحابها وعدم فهمهم لحقيقة الصراع الطبقي وعدم ثقتهم بالشعب وبأنه هو وحده بنضاله المنظم وبكفاحه ، الذى يتمكن من تحطيم نير الطغاة" ويستطرد فؤاد نصار" وهناك بعض صغارالشباب والطلاب الوطنيين المتحمسين يتجهون وجهة العمل الفردى نتيجة لضعف الحركات الشعبية التحررية في وطنهم ،ولكن هؤلاء لا يلبثون حتى يتبينوا خطورة الطريق الذى اختطوه لانفسهم والمضار العفوية التي يلحقونها بوطنهم ، ولا يلبثون حتى يتبينوا انه اذا كانت الحركة الشعبية التحررية ضعيفة في وطنهم فمن واجبهم الانضمام اليها وشد ازرها وتقويتها لانها وحدها السلاح الذى يرد عدوان الطغاة ويحرر الوطن من نير المستعمر ".

لقد كان فؤاد نصار حريصا على انجاز وتحقيق اوسع تحالف شعبي وطني في مواجهة الاستعمار والامبريالية وذلك من خلال ادراكه لاهمية حشد اوسع الطاقات التي تمتلك القدرة على خوض المعركة ، مركزا على القوى الاجتماعية ذات النفس الطويل في العملية النضالية ، العمال والفلاحين والفئات الكادحة ، وقد كان يؤمن بأن الوحدة الوطنية هي مطلب وطني وجماهيرى ولهذا فقد كان وفيا ومخلصا لها ، رغم تذبذب القوى البرجوازية وغربتهم عن هذا المطلب الجماهيرى ، وعالج فؤاد نصار هذا المطلب الجماهيرى ، من مواقع الجماهير وليس من خارجها ، حيث رأى الوحدة الوطنية كوحدة شعبية وليست وحدة قيادات بالاساس ، وقد هاجم فؤاد نصار الفهم الذى يقود الى استثناء الجماهير من الوحدة الوطنية ، هذا الفهم الذى يتعامل مع الجماهير كاستاذ لها ، ان الوحدة الوطنية هي وحدة من اجل الكفاح وهذا الكفاح لا يمكن ان يتحقق وينمو الا في بحر الجماهير الهادر ،ان من يتجاهل ذلك ينقل الوحدة الوطنية الى جوارير المكاتب والغرف المغلقة ، وقد حذر فؤاد نصار في مقال كتبه عام ١٩٤٦ من بعض الاتجاهات الخطيرة في الحركة الوطنية ،هذه الاتجاهات التي ماثلت بين الهيئة العربية العليا والوكالة اليهودية الامر الذى قاد الى تحويل الحركة الوطنية الى آله صماء ، وهذه الاتجاهات هي التي قادت الى الاعتقاد بانه لا يمكن حل قضيتنا الا على اساس التحقيق والمفاوضات ،وهذا كما قال فؤاد نصار يقود حتما الى قصر العمل الوطني على جمع الارقام وتنظيم العرائض ، ان هذه الاتجاهات الخطيرة هي التي تحول قضيتنا من طبيعتها النضالية الشعبية الواسعة الى حركة نظرية جامدة " فقضيتنا قبل ان تكون جمع ارقام ودعاية واحتجاجات وتنظيم عرائض وزركشة ملابس ومظاهر براقة ، كانت ولا

Digitized by Birzeit University Library

تزال قضية شعب يناضل لرفع كابوس العبودية ما دام في الدنيا استعمار واستبداد"، "ونحن نؤمن بالتنظيم والعمل المنظم ولكن ليس ذلك التنظيم الجامد العقيم الذي ينقل قضيتنا من الشارع والمصنع والحقل والمتجر الى داخل الحجرات والملفات. يجب ان تبقى قضيتنا داخل صفوف الشعب العريضة ولهذا دعونا وندعو دائما الى الوحدة الوطنية الشاملة القائمة على اساس شعبي واع لتتمكن من ردع عدوان الاستعمار البريطاني الصهيوني، لاجل هذا ندعوا الى محاربة هذه الاتجاهات الغريبة عن نضالنا وتقاليد شعبنا الوطنية المجيدة".

وما اشبه اليوم بالبارحة، فالاتجاهات التي حذر منها ومن نتائج مسلكها السياسي، فؤاد نصار في عام ١٩٤٦ تعيش اليوم وبوجوه جديدة لكنها امتداد "عصري" لتلك الاتجاهات، فمماثلة اجهزة منظمة التحرير باجهزة الانظمة العربية البيروقراطية، بل واكثر من ذلك منافستها قاد ويقود الى نتائج خطيرة على مجمل النضال الوطني الفلسطيني، وذلك لانه قاد الى الابتعاد عن الحركة الجماهيرية الفلسطينية واختزل الكفاح الفلسطيني لعلاقات دبلوماسية مع هذا النظام العربي او ذاك كما وساهم في تقصير رؤية البعض في الساحة الفلسطينية عن من هم الحلفاء ومن هم الاصدقاء. وبالتالي كانت نتائج الاوضاع المؤسفة التي تعيشها الساحة الفلسطينية حاليا.

لقد كان فؤاد نصار اميا حتى النخاع. فقد كان يرى بان نضال شعبه الفلسطيني هو جزء من النضال العالمي ضد قوى الامبريالية والرجعية، وبانه خدمة لنضال قوى التحرر والتقدم والاشتراكية في العالم، وبانه لا يمكن تحقيق اهداف شعبنا الوطنية الا عبر تعميق التحالف وتطويره مع قوى الثورة العالمية وعلى رأسها الاتحاد السوفييتي لان ذلك هو الضمانة الوحيدة للانتصار وقد قال فؤاد نصار " ان علاقات الصداقة والتحالف بين الاتحاد السوفييتي والبلدان الاشتراكية من جهة وبين الشعوب العربية وحركتهم للتحرر الوطني من الجهة الاخرى تشكل العامل الحاسم والاساسي في نضال الشعوب العربية للحفاظ على استقلالها وسلامتها الاقليمية في نضالها العادل ضد العدوان الاسرائيلي ـ الاستعماري من اجل السعي المستمر لبناء الحياة الجديدة

وما يجرى حاليا هو اكبر دلالة على ما قاله فؤاد نصار، حيث ان تخريب علاقة الحركة الوطنية الفلسطينية مع الاتحاد السوفييتي هو المقدمة الاساسية لفقدانها مصداقيتها الوطنية وبالتالي تحويلها الى منفذ طائع لاوامر واشنطن في المنطقة عبر اوهام الحلول الامريكية وتحويلها كذلك الى آلية لتعميم كامب ديفيد على المنطقة العربية. لان اضعاف اي حركة ثورية يتم بالاساس عبر ضرب علاقاتها مع حلفائها على المستوى الدولي.

ولهذا فان وضوح تحديد موقع بعض اطراف الحركة الوطنية الفلسطينية من مجرى النضال العالمي مسألة هامة ومؤشر على مصداقيتها الوطنية وولائها لقضايا شعبنا وذلك لان حل قضيتنا الوطنية لا يمكن ان يتم بمعزل عن النضال على المستوى العالمي وقد اكد فؤاد نصار على اهمية ذلك حيث قال " ان حل القضية الفلسطينية والنضال لاجل استرداد حقوق الشعب العربي الفلسطيني لا يمكن ان

Digitized by Birzeit University Library

يتما بمعزل عن حركة التحرر العربي والحركة الثورية العالمية وغير ذلك يؤدي بعن قصد او غير قصد الى وضع القضية الفلسطينية في معارضة هاتين الحركتين " وعلى ضوء هذا فقد وقف فؤاد نصار ضد محاولات الرجعية العربية والفلسطينية عام ٤٦ لحل القضية الفلسطينية تحت المظلة البريطانية، حيث كانت بريطانيا تسعى جاهدة لاستبعاد الاتحاد السوفياتي من التأثير في تحديد اتجاه حل القضية الوطنية. وقد دفع فؤاد نصار باتجاه حل القضية في الامم المتحدة وكذلك لوجود حلفاء مؤثرين لصالح نضالنا هناك. واليوم تتكرر هذه الصورة بأشكال جديدة، فامريكا ومعها الرجعية العربية ترفضان المؤتمر الدولي لحل القضية الفلسطينية وفي احسن الاحوال تضعانه كمظلة "كشاهد ما شافش حاجة" في الوقت الذى تؤيد فيه حركة التحرر العربية والحركة الوطنية الفلسطينية عقد المؤتمر الدولي كأطاريضمن على ضوء ثقل الاتحاد السوفياتي فيه بالاساس، حقوق شعبنا الوطنية

ان فؤاد نصار آمن بأن ثبات وقوة مسيرة شعبنا الكفاحية تأتي عبر تعزيز دور العمال والفلاحين وجماهير الكادحين في هذا النضال ،ولا يمكن ان يتأتى ذلك الابتقوية الحزب الشيوعي الممثل السياسي لهذه الطبقات القادرة على السير بالثورة حتى نهايتها الفاصلة وكان الوضوح والنقاء المبدئي هما اداتان هامتان لتقوية حزب الطبقة العاملة وفي هذا الصدد فقد ناضل فؤاد نصار بثبات ضد الانتهازية بوجهيها اليميني واليسارى وقد عمل دائما على تطهير الحزب من هذه المظاهر وهذا ما تجلى في موقفه من الانشقاق اليميني كما ان قوة الحزب ونفوذه ونقاء ايديولوجية الماركسية واللينينية هي اسلحة اساسية للانتصار . كونها ادوات اكثر الطبقات ثورية .

هذه نقاط قليلة جدا في تراث عظيم لقائد فذ عاش من اجل قضية مقدسة قضية الشيوعية وعهدا ستبقى راية فؤاد نصار خفاقة ، ففي كل يوم بل وفي كل لحظة يولد الجديد من الارض التي زرعتها، يا ابا خالد .

Digitized by Birzeit University Library

في ذكرى وفاة المناضل فؤاد نصّار

كثيرون هم الذين كتبوا عن انفسهم ،وكثيرون من كتبوا سيرة حياتهم ،غير ان التاريخ لا يزال يذكر الكثيرين ممن افنوا عمرهم في العطاء والتضحية من اجل اوطانهم وشعوبهم ، وفؤاد نصار ـ ابو خالد ـ هو واحد من هؤلاء ، والذى وهب حياته لشعبه ووطنه، مهتديا بفكره ومبادئه التي ظل مخلصا لها حتى النفس الاخيـــر .

وبمناسبة الذكرى العاشرة لرحيل القائد والمناضل فؤاد نصار، نورد هنا بعض ما ظل عالقا في ذاكرة بعض من عرفوه من اهالي بيت دجن ، قرب نابلـــــس .

دروس من حياة المناضل فؤاد نصـــار

امضى المناضل الشيوعي خالد الذكر فؤاد نصار سنتين ونيف من حياته الكفاحية العطاءة في قرية بيت دجن الواقعة شرقي مدينة نابلس، وتبعد عنها سبعة كيلومترات.

وكان ابـو خالـد مطـاردا مـن قبـل السلطـات الاردنيـة . وبـدأت فتـرة المطاردة في " بيت دجن" من شهر آب ١٩٤٩، واستمرت حتى نهاية عام ١٩٥١ حيث انتقل الى شرقي النهر .

Digitized by Birzeit University Library

ويقول خليل سليم " ابو جيش ـ ٦٥ عاما ـ من بيت دجن ، الذى كان مرافقا لفؤاد نصار اثناء عبوره للنهر الى عمان .

لقد اصطحبت ابو خالد من بيت دجن ، وقطعت النهر حتى وصلنا الى دير علا وهناك طلب مني العودة من حيث اتيت ."

قال ابو جيش ان ابا خالد مشى ٥٥ كيلو مترا ، في رحلة بدأت من سلفيت ، فبيت دجن فالجفتلك ، فاراضي الطحاحنة حتى نهر الاردن ومن ثم الى دير علا .

وقد صدف وان واجهت الشباب مشكلة . وهي العثور على شخص له مقاسات فؤاد نصار للاستفادة من ملابسه . وبالفعل تمكنا من العثور على شخص يبلغ طوله ١٨٥ سم . يدعى احمد الابراهيم واخذنا منه " القنباز" وجاكيت وحطة وعقال . وهكذا تمكن ابو خالد من التنكر بزى مزارع من المنطقة عندما قطعت النهر ".

والرواية هنا ، لابو جيش .

وأضاف : عندما سألته ، اذا كان بحاجة لاى مساعدة اخرى " :

: اذهب انت ! اما انا فسأتدبر اموري لا تقلق علي "

بهذه الكلمات ودع ابو خالد اهالي بيت دجن !.

لكن كيف كانت البداية مع اهالي بيت دجن ؟!

يقول العامل الزراعي احمد اسعد (٦٨ عاما) .

" لقد جاء فؤاد نصار الى القرية بصحبة رفيقه رشدى شاهين . بعد انتهاء الانتداب البريطاني على فلسطين . وقد كان يلقب نفسه " بأبي يوسف " وهكذا كنا نناديه ".

ويضيف :

" ومع وصول ابي يوسف كانت جيوش الدول العربية تدخل فلسطين لتحريرها ، كما اوهمونا ."

ويتذكر احمد اسعد : " ولن انسى طول حياتي تعلبق فؤاد نصار على ذلك المشهد ، عندما استقبل الاهالي الجنود العراقيين وهم منقولين بواسطة العربات العسكرية بالهتاف والتصفيق واطلاق الرصاص تعبيرا عن فرحتهم بهم .. تحت وهم : انهم قدموا للتحرير !!

وأذكر جيدا ، عندما قال فؤاد نصار "وهو يشير الى الجنود العراقيين :

" لقد جاءوا للتسليم وليس للتحرير . وهم مخدوعون من رؤسائهم امثال نورى السعيد وشلته الفاسدة التي تأتمر بأوامر المستعمرين ".

لقد ادهشنا قوله : ولكن لم يمض طويل وقت حتى ثبت فعلا صحة ماقاله لنا حرفيا .

مـــــع الجماهيـــــــرا

ان اول ميزة يمكن لراصد المعلومات ان يلتفت اليها . هو محبة جماهير بيت دجن لفؤاد نصار ! ورغم الوقت القصير الذى قضاه في القرية ، الا انه استطاع ان يجذب اقئدة غالبية سكانها . دون فرق بين شخص كبير في السن او شاب او صبي صغير .

ويضيف احمد أسعد واصفا اسلوب ومعشر ابي خالد فيقول :

Digitized by Birzeit University Library

" كان "ابو يوسف" يجلس معنا ويحدثنا عن شرور الاستعمار كما خبرها . وابتلينا بها نحن. لم يكن يترك شاردة او واردة الا ينطرق لها ! كان يتناول مشاكل الناس، ويبحث عن حلولها ، وسرعان ما يبسطها لنا ، نستوعبه . وكان لا يكل ابدا من اى سؤال يوجهه اليه. وكان يجيب .بقلب مفتوح . والاجوبة الموجودة عنده ، كانت تأتي في صلحة المجتمع . لم يتهرب من الاجابة عن اى سؤال . فحتى الاسئلة الدينية كان يجيب عليها ، بشكل يرضي السائل ، "كان دمث الخلق".

ويقول خليل ابو جيش :

" كان يلتقي بأهالي القرية كل يوم في ديوان عائلة شاهين . وكان المجلس عامرا دائما وكان الاهالي يتداعون فيما بينهم، للذهاب الى الديوان ليستفيدوا شيئا من ابي يوسف ".

وعلى اى حال، كان معظم اهالي بيت دجن يعرفون ان ابا يوسف مطارد من قبل شرطة ومخابرات النظام الاردني . لكن لم يصدق ان احدا فيهم اعطى اخبارية عنه. حتى ان احد مخاتير القرية من الموالين للسلطة الاردنية لم يتجرأ على تقديم اى اخبارية ضد ابي يوسف .

كانت علاقة صداقة حميمة تربط بين ابي يوسف وبين كل من يعرفه ! حتى امام مسجد القرية المرحوم " علي عثمان اليمني" (اتوفي منذ عام ١٩٦١) كان وطيد الصلة بفؤاد نصار . ويؤكد احمد اسعد ، ان الامام كان يسترشد برأي ابي يوسف . وينقله بعد ذلك للمصلين. ويضيف : ان ابا يوسف كان يكتب للشيخ علي خطبة الجمعة وخطب الاعياد والمناسبات. فيقرأها الامام في المسجد امام المصلين ".

ويقول ابو جيش: ان ابا خالد اقترح ذات مرة فكرة شراء ١٢ عنزة وتربيتها . بهدف مساعدة امام المسجد في اعالة اسرته. وقد كان راتبه لا يزيد على اربعة دنانير . وبالفعل تم شراء ١٢ عنزة . وبدأ " عثمان" ، ابن امام المسجد ،برعيها ، وتربيتها حتى تكاثرت وبلغت ٥٠ رأسا .

وعلاقة فؤاد نصار بابناء القرية تتواصل يوما بعد يوم في النهار وفي الليل. وكان يغير مكان اقامته في الليل. اما في النهار فكان يقيم في منزل حسني شاهين، شقيق رشدى شاهين . وفي الليل، كان يبيت في عدة بيوت. ومنها منزل " محمد محمود سهيل". وكان الاخير رجل دين يملك منزلا عتيقا . وموصول بمغارة. وكان هناك مغزى لاختيار هذا المنزل ،الذى فضله ابو خالد عن غيره. فالبيت كبير للغاية. وتتصل به مغارة . والمنزل محاط بسور يبلغ ارتفاعه اربعة امتار . ومبنى على ظهر المغارة .

وكان الشيخ محمد محمود سهيل لا يفارق أبا خالد. يقضي معظم وقته برفقته . وقد كان لوضع الشيخ وظروفه ما يسمح له بقضاء وقت طويل مع ابي خالد فقد كان اعزبا .

Digitized by Birzeit University Library

الجماهير لا تخذل قائدها :

وهذه حقيقة اكدتها تجربة فؤاد نصار مع جماهير بيت دجن. فعندما قرر الحزب الشيوعي الاردني تنظيم مظاهرة ضد ضم الضفة الغربية، للضفة الشرقية، انضمت جماهير بيت دجن الى المظاهرة الكبرى التي انطلقت من " باب الساحة" في مدينة نابلس، وقال خليل ابو جيش" ان ١٥٠ شخصا من بيت دجن هبوا وانخرطوا في المظاهرة هاتفين بشعارات ضد الحاق النظام الاردني لما تبق من فلسطين وشعارات تنادى بالعودة وقد اطلقوا هذه الهتافات امام مبنى الحاكم الاردني كانوا اميين لكنهم مفعمين بالشعور الوطني الصادق. حتى ان احدهم صرخ "نريد غمـاس".

وأضاف ابو جيش : وكان عدد من اهالي بيت فوريك قد اشترك في مظاهرة نابلس. وتوجهت المظاهرة الصاخبة الى مقر متصرف نابلس(في مبنى المحافظ، الحكم العسكرى حاليا).وكانت جماهيرها من الفئات الشعبية الكادحة . ومن هؤلاء الفلاحين الذين تعرفوا على ابي خالد . فقد اندفعوا للمشاركة في المظاهرة .بكل سلاح يحملونه ومنهم الشيخ موسى من بيت فوريك الذى كان يرتدى حزامين من الخراطيش وخنجر . وكان يلوح ببندقيته، ويهتف : اسمعوا ايها الجمهور الكريم الله يحرق جناب الملك عبدالله "!. لكن جنود المتصرف والشرطة، اندفعت نحوه لاعتقاله ،وحالت جماهير المظاهرة دون اعتقاله وهربته من الجنود .

ان جماهير بيت دجن لم تخذل ابا خالد حين تعرض للاعتقال والمحاكمة على ايدى النظام الاردني. وذهبت مجموعة من مخاتير بيت دجن الى قاعة المحكمة العسكرية في عمان ليقدموا شهادتهم بأن فؤاد نصار كان مزارعا منهم. وكان امام المسجد في مقدمة هؤلاء . حيث اقسم بالله العظيم امام رئيس المحكمة ان ابا خالد ، كان مزارعا . ولم يفعل شيئا يغضب الله. بل على العكس، كان انسانا صالحا .

كما ، وهبَّ مخاتير ومزارعي بيت دجن لمساندة المناضل الشيوعي عبدالكريم القاضي الذى اعتقلته قوات الملك عبدالله في بيت دجن سنة ١٩٥١ . واطلق سراحه بعدما ذهب ٤٠ شخصا من بيت دجن الى محكمة نابلس وشهدوا بأنه مزارع. واطلق سراحه بعد اعتقال دام شهريـن .

منذ نعومة اظفاره مثل الصخر ما بلين
اعتنق الماركسية وناضل مع الكادحين
وفي سنة الست وثلاثين ثار مع الثائرين
واصبح قائد فصيل من القواد البارزين
بعد تشكيل الحزب انتخب اميناً
وبعد الحاق الضفة مسكنه صار الزنازين
ما ركع ولا خضع حتى لأعتى الجلادين
يا بو خالد ما ابتنساك مهما طالت السنين
وشبالك جوّ الضفة على نهجك سائرين

شعر ابو محارب

Digitized by Birzeit University Library

تجربة تضاف إلى تجارب شعبنا النضالية حول إضراب العاملين في جامعة بيرزيت

بقلم : مراقب

تمكن العاملون في جامعة بيرزيت من خلال نضالهم الموحد طوال اكثر من ثمانين يوما من افشال جميع المخططات والدسائس التي استهدفت هذه المؤسسة التعليمية الوطنية في المناطق المحتلة. فبعد نضال شاق دفاعا عن حقوقهم النقابية اضطر مجلس الامناء والادارة الى توقيع عقود عمل كاملة حسب سلم الرواتب القديم وهو المطلب الرئيسي للعاملين اضافة الى اشراك نقابة العاملين في الجامعة في مشروع الجباية المشتركة .

ولكن هذه النهاية للازمة في الجامعة لا تعني نهاية المطاف لان الفئات التي افتعلت الازمة وخططت لها لا يمكن ان تستسلم وان تتراجع عن مطالبها الحقيقية بهذه السهولة، وبهذا الصدد يمكن الاشارة الى ما ورد في بيان نقابة العاملين بتاريخ ١٩٨٦/٩/١٣ من ان شخصيات من اصحاب ما يسمى " بالتجمع الاردني الفلسطيني" المشبوه حضرت الى الجامعة لاقناع بعض العاملين بالعمل على اسقاط نقابتهم مقابل ان يقدم هذا التجمع كهبة الصيت الاموال للجامعة" . وهكذا بقدرة قادر تصبح الاموال التي تباكوا من نقصها متوفرة ولكن تحتاج الى "بعض الشروط" فقط من اجل تأمينها .

واذا نظرنا بموضوعية الى الاتفاق الاخير بين نقابة العاملين في الجامعة وبين مجلس الامناء والادارة ، هذا الاتفاق الذى كان اساس مطالب العاملين حيث ورد في بيان النقابة بتاريخ ٢٩ /١/ ١٩٨٦ ان النقابة اقترحت على مجلس الامناء " اسلوب الالتجاء الى العاملين ليتبرعوا للجامعة لحين حل ما يسمى بأزمتها المالية ولكن مجلس الامناء وادارة الجامعة تجاهلوا هذا الامر وارادوا ان يفرضوا علينا سياسة الامر الواقع ". يصبح مشروعاً التساؤل الذى طرحته نقابة العاملين في بيانها بتاريخ ١٠ /٧ / ١٩٨٦ والذى يشاركها فيه جميع الشرفاء من شعبنا : " لمصلحة من تتفجر الازمات المتلاحقة في جامعتنا العزيزة (وفي المعاهد العلمية والمؤسسات الوطنية الاخرى) ولمصلحة من استمرار الازمة الحالية؟

ان المتتبع لردود فعل مجلس الامناء وادارة جامعة بيرزيت في عنادهم وتجاهلهم لجميع الاقتراحات البناءة التي قدمتها نقابة العاملين في الجامعة لتجاوز " الازمة المالية"

Digitized by Birzeit University Library

والتي اعلن مجلس الامناء نفسه انها ايجابية يخرج باستنتاج واحد فقط : ان وراء هذا العناد وهذا التجاهل تكمن الاهداف الحقيقية لافتعال هذه الازمة والمتمثلة في ترويض هذه المؤسسة وفرض السيطرة الكاملة عليها لمنعها من ممارسة دورها الحقيقي في نضال شعبنا الفلسطيني .

ومن هنا يمكن النظر الى نضال العاملين في جامعة بيرزيت على انه في جوهره نضال طبقي ليس فقط للدفاع عن مصالح العاملين المعيشية وانما تعداه الى النضال ضد الاهداف السياسية التي تتبناها وتخطط لها تلك الفئات ، هذه الاهداف التي تتبع وتتناسب مع الاوضاع الطبقية لهذه الفئات نفسهـــا .

وهكذا فان الضائقة المالية التي كانت السبب المعلن لانفجار الازمة لم تكن الا لذر الرماد في العيون لمنعها من رؤية الاسباب الحقيقية المرتبطة والنابعة من تطور الاوضاع السياسية في المنطقة. وتم اختيار جامعة بيرزيت لتنفيذها نظرا للمكانة والسمعة الوطنية لهذه الجامعة وصولا لفرض هذه التجربة لاحقا على كافة الجامعات والمؤسسات في المناطق المحتلة " ولعل ما يجرى في المؤسسات التعليمية في المناطق المحتلة من فصل وتضييق على العاملين ليس الا جزءا من هذه المؤامرة، وما يجرى في بير زيت بشكل خاص هو الحلقة الاولى لضرب المؤسسات التعليمية، وهو جزء من مخطط اضعاف نفوذ م.ت.ف. باعتبار بيرزيت معقلا متقدما للحركة الوطنية، فتحت ستار " الازمة المالية" يعمل على تفريغ الجامعة من العناصر الوطنية واعادة ترتيب الاوراق " ... (من بيان نقابة العاملين ٢٤ / ٧ / ٨٦).وضمن هذا الاطار ينضوى قرار مجلس التعليم العالي (الذى لم يحرك ساكنا لانهاء الازمة) بخصم ١٥٪ من مرتبات العاملين في جميع الجامعات ،ذلك القرار السيء الذى اضطر المجلس للتراجع عنه قبل ان يجف الحبر الذى كتب بـــــه .

لقد رأت الاوساط المتنفذة في مجلس الامناء وادارة الجامعة ان الظروف السياسية في المنطقة مواتية لشن هجوم شامل على الاتجاهات الوطنية متمثلة في نقابة العاملين في جامعة برزيت وطلابها ظنا منها ان هذه الحركة اصبحت معزولة ولا تستطيع المقاومة وفي نفس الوقت فهي بهجومها هذا تهيء الظروف الضرورية لتنفيذ المخططات المعادية لامالي وطموحات الشعب الفلسطيني .

ففي هذه الفترة اشتدت الضغوط الامبريالية الاسرائيلية الرجعية العربية لتمرير الحلول الاستسلامية في المنطقة حسب مواصفات المخططات الامريكية، وزادت اسرائيل كذلك في حدة الفترة من تشديد قبضتها الحديدية على المناطق المحتلة واعادة العمل بقوانين الطوارئ الانتدابية من طرد واعتقالات ادارية التي اضطرت اسرائيل في وقت سابق لوقف العمل بها .

واطلق التوقيع على اتفاق عمان بين الاردن ورجالاته والمتساوقين معهم من فئات اليمين الفلسطيني للاستفادة من هذا المناخ في محاولة لترتيب الاوضاع في المناطق المحتلة بما يتناسب مع مخططاتهم وطموحاتهم وفي مقدمتها ضرب جميع مراكز المقاومة لهذه المخططات والتي تعتبر الجامعات في مقدمتها تمهيدا لخلق قاعدة

Digitized by Birzeit University Library

اجتماعية تتساوق مع اهدافهم في فرض حلول تتلائم مع مصالحهم الطبقية الضيقة متجاهلين حق تقرير المصير للشعب الفلسطيني واحقاق حقوقه المشروعة المعترف بها دوليـــا .

ومن هنا جاء التركيز في البيان الذي صدر عن ما سمي " باللوبي الاردني" في المناطق المحتلة، والذي يمثل ابطاله من امثال الشوا وفريج الفئة التي هيأت نفسها للاستفادة من التساوق مع الحلول الامريكية الاسرائيلية الاردنية ، بكل ما يتطلب ذلك من تجاوز لمنظمة التحرير (كما وضح ذلك في تصريحات الشوا الاخيرة) والعمل على خلق قيادة بديلة في المناطق المحتلة، جاء التركيز في ذلك البيان على ضرورة ضرب التجمعات الوطنية في جامعات المناطق المحتلة ومنع العمل السياسي فيها او على تنظيفها من العناصر " الهدامة" اي الوطنية .

واستغلت الاردن ما يسمى باموال الصمود بالاضافة الى نفوذها الاداري مستفيدةمن وضعها المقـــرفـــي اللجنـــة المشتركـــة لتهيئة الظروف الملائمة والامكانيات لرجالاته في المناطق المحتلة لممارسة ضغوطهم وابتزازهم تحت ستار الازمات المالية التي افتعلوها هم انفسهم لتمرير اهدافهم وليس ادل على ذلك من الاوضاع التي اوصلوا شركة كهرباء محافظة القدس اليها نتيجة لهذه الضغوط ومحاولات الابتزاز .

وقد استغلت الاوساط المتنفذة في مجلس الامناء وادارة الجامعة جميع الوسائل والدسائس والخبرات التي كدسها من سبقوها في مقاومة نضال العاملين وكسر اضراباتهم بدءاً من تجاهل المطالب واطالة امد الازمة الى رفض دفع المستحقات حتى قبيل عيد الاضحى للضغط المادي على العاملين وعائلاتهم الى محاولة زرع الشقاق وتفسيخ صفوف العاملين ، معبرين بذلك عن اصرارهم لتنفيذ المخططات المشبوهة وعدم اتاحة الفرصة امام هذه التجربة النضالية للنجاح خوفا من ان تكون مثلا يحتذى به وليس ادل على اصرار مجلس الامناء وادارة الجامعة على استمرار الازمة من انهم انفسهم افتعلوا ازمة جديدة بعد اقل من شهرين من انهاء الازمة الاولى بتوقيع اتفاقية شباط ١٩٨٦.

ولكن فات هؤلاء المخططون ان يأخذوا باعتبارهم القدرات والطاقات النضالية لدى شعبنا والذي يشكل العاملون في جامعة بيرزيت جزءا منه. كما فاتهم ان جميع الدسائس والمؤامرات لن تثني هذا الشعب عن الدفاع عن لقمة عيشه وعن حقوقه المشروعة . هذا العامل الهام الذي عادةً لا تحسب حسابه الاوساط اليمينية واسيادها والذي اثبت دائما بأن الحركة الجماهيرية الموحدة المناضلة كفيلة بلجم جميع المتآمرين وارغامهم على الاستجابة للمطالب المشروعة للجماهير الشعبية .

وهذا ما تمكنت من تحقيقه نقابة العاملين في جامعة بيرزيت حيثنجحت في توحيد العاملين في الجامعة في حركة جماهيرية مناضلة تدعمها الحركة الطلابية والمؤسسات والاطر الوطنية في المناطق المحتلة .

لقد نجحت نقابة العاملين في ان تكون القائد الفعلي لجماهيرالعاملين في الجامعة من خلال العلاقة الوطيدة بهذه الجماهير ومن خلال مصارحتها بكل تطورات الازمة والمفاوضات الجارية مع مجلس الامناء وادارة

Digitized by Birzeit University Library

الجامعة، ومشاركتها في اتخاذ القرارت الضرورية لاستمرار العملية النضالية بشكل يضمن التفاف العاملين حول هذه القرارات والعمل على تنفيذها . لقد اثبتت هذه التجربة اهمية الاعتماد على الجماهير والارتباط بها في نجاح اى عمل نضالي .

وخلال فترة الازمة اثبتت نقابة العاملين ومن حولها جماهير العاملين في الجامعة قدرتها على الجمع بين النضال النقابي المطلبي والنضال الوطني العام وكان لذلك تأثيره الايجابي على سير النضال الشاق الذى خاضه العاملون . ففي الوقت الذى كانت تدافع فيه النقابة بكل جرأة عن مطالب العاملين المعيشية لم تغفل الا ثارة الى الاهداف الحقيقية وراء هذه الازمة المفتعلة والتنبيه، من خطورتها على القضية الوطنية.

ان متابعة بيانات النقابة خلال الازمة يمكّن من رؤية الحرص الذى كانت تبديه النقابة على مصير الجامعة وطلابها في الوقت الذى لم يلاحظ فيه مثل هذا الحرص عند مجلس الامناء والادارة ، وهذا ما ساعد على اقامة علاقات تضامن وطيدة مع الحركة الطلابية ، الامر الذى افشل المحاولات المتكررة التي استهدفت معارضة الحركة الطلابية بحركة العاملين في الجامعة .

وكان لحركة التضامن الجماهيرية والتي ليس آخرها موقف الاتحاد العام لنقابات العمال في الضفة العربية وامينه العام عادل غانم تأثيره الفعال في الضغط على مجلس الامناء والادارة واجبارهم على ابداء المرونة في التجاوب مع مطالب العاملين دون التخلي عن اهدافهم الحقيقية .

لقد ساهمت هذه العوامل مجتمعة في الوصول الى نهاية الازمة بتحقيق المطالب الاساسية للعاملين وبذلك اصبحت هذه التجربة النضالية اضافة اخرى الى تجارب شعبنا التي تؤكد القدرة والامكانية الواقعية للتصدى لجميع المؤامرات التي تحاك ضد طموحات وامانى شعبنا الفلسطيني ليس فقط بالنسبة لمؤسساته الوطنية ولكن فيما يتعلق بقضيته الوطنية بشكل عام وهذا ما عبرت عنه نقابة العاملين في بيانها بتاريخ ١٠/٧/ ١٩٨٦" " ان معركة العاملين في جامعة بيرزيت هي معركة شعبنا في الدفاع عن قضيته الوطنية ونحن مطمئنون الى ان شعبنا يعرف اين يقف من هذه القضية ولذلك فنحن مطمئنون الى ان جامعتنا ستبقى كما هي قلعة للصمود الوطني وللتربية الوطنية والتعليم العالي ومفتوحة لكل ابناء شعبنا دائما ."

وهنا يجدر التنبيه الى ان انتهاء هذه المعركة لا يعني نهاية النضال لان كل تجارب الشعوب تشير الى ان الفئات التي افتعلت الازمة لن تتخلى عن الاهداف التي رسمتها لنفسها وانما تعتبر هذه النتيجة محطة ضرورية لتجميع قواها من جديد للتحضير لهجوم آخر والذى لاحظ بوادره بيان نقابة العاملين بتاريخ ١٣ / ٩/ ١٩٨٦.

ولذلك يصبح ضروريا ان تقوم نقابة العاملين في جامعة بيرزيت بتقييم شامل لهذه المسيرة النضالية ، للتعرف بدقة على ما رافقها من عوامل ايجابية وما اعترضها من سلبيات لسد جميع الثغرات التي يمكن ان تؤثر على مسيرة نضالهم وفي الدرجة الاولى المحافظة على وحدة الصف ونبذ جميع عوامل الفرقة واسبابها مما يؤهل العاملين لان يكونوا

Digitized by Birzeit University Library

دائما متيقظين لما يحاك من حولهم وليتمكنوا من ضمان تنفيذ الاتفاق المعقود مع ادارة جامعة بيرزيت انطلاقا لتحقيق مكاسب اضافية ما زال العاملون، في حاجة الى تحقيقها .

وكلنا امل ان يسود التعقل تلك الاوساط التي قادت الجامعة الى هذه الازمة وان تكون هذه التجربة رادعا لجميع الذين يفكرون بالتطاول على حقوق العاملين وعلى قضية الشعب الفلسطيني الوطنية وان يستفيد الاخرون من خارج جامعة بيرزيت من هذه التجربة .

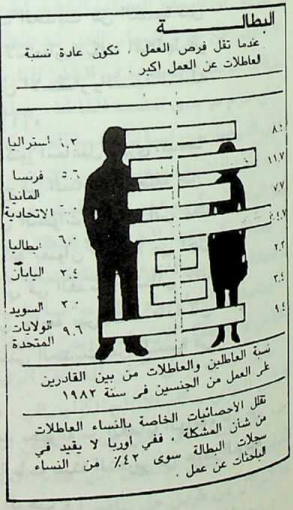

Digitized by Birzeit University Library

تنمية بمفهوم مختلف

بقلم : محرم البرغوثي

يضع الدكتور اسماعيل صبرى عبدالله،التحرر من السيطرة الاستعمارية شرطا اساسيا للتنمية ، ويقول : " ومن العبث الحديث عن التنمية قبل التحرر من الاستعمار، فالتحرر من السيطرة الاستعمارية بكافة اشكالها هو الشرط الاساسي للتنمية، والتناقض بين الاستعمار والتنمية الشاملة تناقض اصيل وكامل لا يقبل انصاف الحلول " (١) .

ان هذه الحقيقة التي نتفق عليها مع الدكتور اسماعيل صبرى ،تدفعنا لطرح سؤال هام ، عن اسباب وابعاد ما يطرح في المناطق المحتلة حول "التنمية" خصوصا ان هذا الاهتمام دفع في السنوات الاخيرة الى عقد مؤتمرين،احدهما في مجمع النقابات المهنية بعنوان"التنمية من اجل الصمود" برعاية جمعية الملتقى الفكرى العربي في القدس، والثاني عقد في آب ١٩٨٥ حول التنمية في الارياف في جامعة بيرزيت . فاذا كان التحرر شرطا اساسيا للتنمية الشاملة، فما معنى الحديث عن التنمية في

× قدم هذا الموضوع لنشره في"الكاتب"وقد ورد في البحث مجموعة من القضايا الهامة، كان من شانها ان تطرح العديد من النقاشات والتساؤلات ، ولذا ،ارتأت هيئة التحرير في حينه الدعوة الى ندوة تناقش الجوانب التنموية المختلفة التي وردت في البحث .

وقد ارتأت هيئة التحرير نشر البحث قبل استكمال الجزء الثاني من الندوة ، لما لذلك من اهمية فيوضع خطوط التصور العام لافاق الجزء الثاني من الندوة المذكورة .

Digitized by Birzeit University Library

ظل الاحتلال وكيف ستكون هذه التنمية ".

واضح تماما أن هناك وجهتي نظر.الاولى تسعى لدراسة هذه القضية لتخدم الصمود الايجابي، والاخرى لها اهداف عكسية .

وتأتي هذه المساهمة المتواضعة، لمواصلة النقاش لاهمية وحساسية موضوعة التنمية في ظروفنا الشاذة . لتكون النتائج الايجابية سلاحا لموءسساتنا ولمنظماتنا الجماهيرية تخدم به صمود جماهيرنا في الارض المحتلة،ومقاومة الاهداف السلبية لبعض الجهات التي تتبنى الاتجاه الثاني في مفهوم التنمية .

في تعريفه لمعنى التنمية يقول ل.ج. ولسكي في كتابه " التخطيط والتنفيذ في التنمية الاقتصادية بين النمو الاقتصادى والتنمية الاقتصادية" " ان التنمية بالنسبة للاقتصاديين، تعني قبل كل شيء النمو الاقتصادى، اى ازديادا اجماليا في انتاج السلع والخدمات بمعدل اسرع من نمو السكان ... انها تعني " اللحاق بالدول المصنّعة" واستبدال العمل البشرى المرهِق، بالالات والتكنولوجيا والقضاء على الجوع والقذارة والمرض ونشر العدالة الاقتصادية والمساواة في مجتمعات تلك الدول، والتحرر من الاعتماد على انتاج سلعة واحدة اومنتجات اولية قليلة، وتطوير الصناعة، وتنحية الاجانب عن مراكز التسلط في اقتصادياتها وتحقيق الاستقلال الاقتصادى القومي " (٢).

في ضوء ما تقدم ،يتضح ان اصحاب الفكرة العكسية اواصحاب الرأى السلبي في التنمية يتغاضى عن مسألة" ان حسبان الحساب الدقيق لظروف ومرحلة تطور نضال التحرر الوطني في هذا البلد او ذاك، يقي من طرح المهام التي لم تنضج المقدمات الموضوعية لها، ومن اغراء التغاضي عن الحلقات الوسطية الضرورية في التطور التاريخي " (٣).

ان طرح موءيدى التنمية الشاملة، يخلقون الخيفة المشروعة لدينا، فهم يتفقون تماما مع طرح الكتاب البرجوازيين لمسألة التنمية الذين يعتبرون ان الاستعمار حافز ، وانه اى الاستعمار، عامل ساعد على التنمية. ويعتبرون ان الاستعمار له فضل في تخلف هذا البلد اوذاك، لانه سيتيح لهذا البلد ان يكسب دون جهد التطور في الدول الاخرى .

وبهذا يكون هذا الطرف في النقاش يهدف الى ما هو اخطر من ذلك، الى انكار ان السلطة الوطنية اساس مادي للبدء في عملية تنمية ناجحة .

ويقصدون ايضا ابعادانظار موءسساتنا وجماهيرنا ،عن حقيقة العلاقة العضوية بين الاستقلال السياسي والاستقلال الاقتصادى ،بين السلطة الوطنية والتنمية الاقتصادية .

يقول مهدى عامل " ان التناقض الرئيسي في مجتمعنا الكولونيالي، اى في اطار التناقض الاساسي الخاص بنظام الانتاج الكولونيالي، هو التناقض الوطني" ، " ... ويحل التناقض الوطني وحده حلا ثوريا، اى بحل هذا التناقض السياسي الرئيسي المتميز ، يتم في البنية الاجتماعية الكولونيالية تحقيق الانتقال الى نظام الانتاج الاشتراكي . ومن الوهم الاعتقاد بامكانية تحقيق هذاالانتقال عن طريق حل تناقض آخر ، ومن الوهم اعتبار التناقض الوطني تناقضا غير طبقي .

ان حل التناقض الاقتصادى الخاص بالبنية الاجتماعية الكولونيالية لايكون الابحل التناقض

Digitized by Birzeit University Library

الوطني في هذه البنية حلا ثوريا. اى بصراع وطني هو صراع سياسي طبقي له في البنية الاجتماعية الكولونيالية مشكل تاريخي يحدده كصراع وطني "(٤).

ان هذه الخيفة المشروعة لالهاء الجماهير عن نضالها الرئيسي سبق وان حذر منه لينين "الايرلنديين" ولا يتضمن على العموم اى شيء عدا " اصلاحات" من الطراز الايرلندى مألوفة في الاصلاحات البرجوازية الاوروبية "(٥).

وجاء في نقطة "١٥" من الهامش في الكتاب الذى استندنا اليه ان لينين يقصد "الاصلاحات "الزراعية التي طبقتها الحكومة الانجليزية في ايرلندا بقصد صرف الجماهير الشعبية الايرلندية عن النضال الثـــــورى.

وهذا يبدو واضحا لدينا من ان احد اهداف هؤلاء هو بالفعل صرف نظر الجماهير ومؤسساتنا عن نضالها من اجل التحرر والاستقلال.

ويحق لنا اعتبـار ان البعض من هؤلاء يعمل على تنفيذ " تحسين شروط الحياة" او تحسين شروط حياة الاحتلال ،وذلك عبر اشغالنا في قضايا ثانوية.

هذا مايعنيه فعلا التوجه لاشغال جماهير الفلاحين في " التنمية الشاملة" واقصد بالفلاحين اغلبية سكان المناطق المحتلة. ومنهم من يملكون اراض وادوات زراعية وآخرين لايملكون شيئا. ومنهم من يعمل بنظام المحاصصة كما في الاغوار، وهناك اهلنا في قطاع غزة الذين لا يملك حوالي ٣٠٠الف نسمة منهم شبرا واحدا من الارض وهم اللاجئون في المعسكرات ،وهناك حوالي ٢٥٠الف يقتسمون فقط ما مساحته ٣٥٠ كيلو مترا مربعا هي مساحة القطاع،منها اراض صودرت واقيمت عليها حوالي ١٧ مستوطنة عدا تلك التي يجرى الاستعداد لاقامتها على اراضي خانيونس، والمنطقة الشرقية للقطاع على عمق ١ – ٢ كيلو متر يمنع البناء اوالزراعة فيها، وكذلك المنطقة المحاذية للبحر، عدا عن الاراضي غير الصالحة للزراعة، واماكن السكن ...الخ.

ان من يطرحون التنمية في الريف بمفهومها المطلق يقفزون عن تحديد ذات وموضوع واطار تنميتهم هذه، ويغلفون اهدافهم عمليا لتبدو مقبولة وبراقة. ان الريف الفلسطيني، وخصوصا في المناطق الزراعية الرئيسية يعج بالتناقضات التي لا يجوز تجاهلها عند الحديث عن تنمية الريف – واذا كان من غير الممكن معالجة هذه التناقضات في ظل الاحتلال، فان من الصعب القبول بتنمية ريفية تعمق من طابع التناقضات هذه، وتزيد من حدة الاستغلال والظلم الواقع على العمال الزراعيين والمحاصصين والفلاحين المستغلين الفقراء. واذا كان هناك تنمية حقيقية فلا بد ان يكون عنوانها هذه الشرائح الاجتماعية بالذات.

وفي اطار موضوع التنمية يكثر الحديث عن التعاونيات، بدون تحديد طابع واهداف هذه التعاونيات، وبدون محاولة توطين فكرة العمل التعاوني وفقا للخصائص والظروف المحلية. ان التعاونية شكل من اشكال تنظيم الانتاج او التسويق او بعض حلقات من هذه النشاطات ،وتقوم بالاساس على جمع وسائل الانتاج وقوة العمل على اساس طوعي اختياري، ولضمان نجاح التعاونيات لا بد من اثبات افضلية العمل التعاوني على اشكال تنظيم الانتاج السائدة الاخرى، وعلى وجه الحصر ان يكون مردود العمل التعاوني على الاعضاء افضل من مردوده في اشكال تنظيم الانتاج الاخرى.

ولكن السؤال :ما هو طابع هذه التعاونيات في ظل الظروف السائدة ؟ ظروف العلاقات الاستغلالية المزدوجة الناجمة عن التناقضات الداخلية في صلب علاقات الانتاج القائمة وعن ظروف

Digitized by Birzeit University Library

هيمنة الاقتصاد الاسرائيلي على المناطق المحتلة .

يقول لينين" من المؤكد ان التعاونيات في ظروف دولة رأسمالية هي مؤسسات رأسمالية جماعية "(٧) .

وفي نفس المقالة يهاجم لينين اصحاب فكر التعاون في عهد سيطرة المستمثرين فيقول " ان احلام التعاونيين القدماء تنطوى على كثير من الخيال ، وهي سخيفة في كثير من الاحيان لانها طوبويـــة "(٨) .

ان طرح التنمية في ظل الاحتلال بمفهومها الشامل او المطلق ، انما هو ضرب من الخيال ، وان الحديث عن تعاونيات كبيرة ، ترتبط عمليا بالسوق الرأسمالي انما هو كذلك ، بل ان النقاش يدور عن حقيقة مفهومه. فبالتالي اقامة هذه المشاريع الكبيرة انما يقصد بها اغراق الجماهير في قضاء ثانوية بعيدا عن القضية الاساسية وهي اقامة الدولة المستقلة وتقرير المصير .

ويقول لينين "فيما مضى كنا نوجه وكان ينبغي علينا ان نوجه النشاط نحو النضال السياسي وأوله والاستيلاء على السلطة...."(٩) .

لا يعني هذا انه لا توجد اشكال للتعاون ضمن المقاييس الوطنية ، ففلاحنا اوجد عبر تجربته عدة اشكال للتعاون ، بدءا " بالعونة" وصولا الى التعاونيات الصغيرة التي تلبي احتياجاته الاساسية . واصبح ايضا العمل التطوعي شكلا تعاونيا ، وكذلك التعاونيات الصغيرة الزراعية التي تنسجم مع نمط الانتاج السلعي الصغيـر .

من هنا يحق لنا ان نرى في بعض المشاريع الكبيرة التي تلوح بها منظمات اجنبية لتقام في المناطق المحتلة ، غير تظيفة الاهداف ...

ان التطورالذى جرى على اشكال عمل الامبريالية واضح من خلال تفتنها في ترسيخ اقدامها في الاقتصاد لهذا الشعب او ذاك ، وبالتالي لتساهم في سلخ قطاعات واسعة من البرجوازية الوطنية التي تتناقض مصالحها مع السيطرة الاجنبية ، وباغراقها تستطيع نقلها الى خندق مصلحتها مع الاحتلال او السلطـــة .

" صحيح ان الرأسمال الاجنبي يغير احيانا تاكتيكه ، آخذا بعين الاعتبار التغيرات السياسية الجارية ، وهو يحاول ان يقيم صلة مع اوساط الاعمال المحلية ويستميلها الى التعاون . ويلجأ على نطاق واسع عادة الى تأليف شركات مختلطة (يشترك فيها كل من الرأسمال الوطني والرأسمال الاجنبي بنصيب معين) بل وانه احيانا يتستر كليا في جلباب الرأسمال الوطني المحلي ، وفي هذه الحال تشفر الاحتكارات الاجنبية انها اقل تعرضا للخطر لانها تعمل وراء ستار امين ..."(١٠)

استميح القارئ عذرا على الاقتباسات المطولة ، ولكن الدافع لهذه الاقتباسات الاهمية المركزية التي تكتسبها القضية موضوع البحث وضرورة استجلاء ابعادها ، خصوصا بسبب تكاثـر الوفود التنمية) و(خطط التنمية) ودخول اطراف متعددة فيها . وتشهد المناطق المحتلة العديد من الوفود الاجنبية بعد عام ١٩٨٢ . طوحة بنقودها ودفاتر شيكاتها . ألسواد عيون شعبنا كل هذا؟

Digitized by Birzeit University Library

لكي نوضّح ان هذا لا يشمل وفودا اجنبية تربطها مع حركات التحرر وبالذات مع شعبنا علاقات نضالية مشتركة،علاقات نضالية في نفس الخندق الواحد لتصفية الاستعمار واهدافه واثاره ، لكن المقصود تلك الوفود التي تمثل دوائر حكومية معادية لطموحات شعبنا طوال التاريخ .

اننا ندرك المعنى الحقيقي والهدف الحقيقي لهذه النقود ونتفق مع القول : " من الجلي تماما ان الامبرياليين يعلقون امالهم في المقام الاول على البرجوازية المحلية الكبيرة في البلدان التي توجد فيها مثل هذه البرجوازية. ولكن هذه البلدان في عالم المستعمرات السابقة قليلةجدا، ولهذا يرى المستعمرون الجدد المخرج من الاسهام بجميع الاجراءات في تربية برجوازية وطنية، بصورة مصطنعة حيث لا وجود لها ، اى انهم يضعون نصب أعينهم " غرس" علاقات الانتاج الرأسمالي في المستعمرات واشباه المستعمرات السابقة "(١١).

ايوجد اوضح من هذا لتوضيح ابعاد " تحسين شروط الحياة "؟

وتستفيد الاوساط الاجنبية والاسرائيلية في مشروعها لتحسين شروط الحياةمن النتائج التي وصلت اليها القيادة الرسمية لمنظمة التحرير والتي اكثر ما تمنّنا نحن ابناء الشعب الفلسطيني، وتتحدث وسائل الاعلام الغربية عن مليارات الدولارات التي تملكهاالمنظمة وكذلك تتحدث عن وكلاء لشركات عالمية في القيادة الرسمية للمنظمة. وانهم يرون ان هذه هي الاسباب التي ادت للتكيف والانتقال طبقيا من خندق النضال الوطني الى خندق الغزل مع البرجوازيات العربية وحتى الغزل مع الامبريالية الامريكية. ان هدف هذه المشاريع هو توسيع المأساة لتشمل في محاولة منها، لتخريب نضال الجماهير والمؤسسات في الارض المحتلة بنفس الاسلوب الذى رفعه كشعار أعداء شعبنا بتحويل الثورة الى ثروة ؟.

اننا عايشنا " التنمية" بمفهوم اموال الصمود ، ورأينا الخطر الكبير الذى خلقته هذه الاموال في معظم الاحوال ، الى خلق شرائح منتفعة تعلن ولاءها مباشرة لمصدر هذه الاموال وخصوصا الجانب الذى يستخدمها بذكاء اكثر واشد خبثا وهو الجانب الاردني الذى كان دائما يسعى لاستمرار الوضع الاقتصادى في المناطق المحتلة كما كان عليه قبيل الاحتلال بعيدا عن التصنيع، غارقا في النمط الاستهلاكي والخدماتي فقط . وعمل الاردن على حصد ثمار سياسة اموال الدعم في تشكيل البرلمان الاردنيواللوبي الاردني ، بموافقة ومباركة من سلطات الاحتلال ، وفي اللجان المنوى تعيينها في البلديات لتنفيذ السياسة الاسرائيلية والاردن ، واخيرا مجموعة ابو الزعيم،

لقد خصصت اللجنة المشتركة لقطاعات التنمية الاقتصادية والاجتماعية خلال الفترة ١٩٧٩ - شهر آيار من عام ١٩٨٥ مبلغ ٤١٣ر٤٧٢ ر ١٤٦ دينار موزعة وفق الجدول التالي :*

* المصدر صامد الاقتصادى عدد ٥٦ تموز / آب ١٩٨٥ .

Digitized by Birzeit University Library

القطـــاع	المبلغ الاجمالي	معدل سنوي	نسبة مئوية
١) التربية والتعليم	٤٢٠ ر ٣٤	٧٣٦ ر ٥	٥ ر ٢٣ ٪
٢) الاسكـــان	٧٢٨ ر ٢٣	٩٥٤ ر ٣	٤ ر ١٦ ٪
٣) مجالس بلدية	٩٩٦ ر ٢٢	٨٣٢ ر ٣	٧ ر ١٥ ٪
٤) زراعـــة	٦٢١ ر ١٣	٢٧٠ ر ٢	٣ ر ٠٩ ٪
٥) تنمية اجتماعية	٣٠٣ ر ١٢	٠٥٠ ر ٢	٤ ر ٠٨ ٪
٦) صناعـــة	٣٤٨ ر ٨	٣٩١ ر ١	٧ ر ٠٥ ٪
٧) كهربـــاء	٨٨٤ ر ٦	١٤٧ ر ١	٧ ر ٠٤ ٪
٨) صندوق الرعاية الوطنية	١٥١ ر ٦	٠٢٥ ر ١	٢ ر ٠٤ ٪

ويلاحظ ان ٨٠ر٣ ٪ من مجموع المخصصات ذهبت لقطاع الخدمات. حيث تم تبني العديد من المشاريع التربوية والتعليمية الخاصة غير المخطط لها وخاصة في مجال كليات المجتمع المتوسطة. واما في قطاع الاسكان فيعرف اهل المناطق المحتلة اى فئات هي الاكثر استفا من المساعدات لهذا القطاع .

كما انه لم يكن خافيا على احد الهوية السياسية للمنتفعين من المساعدات المقدمة في بعض مجالات التربية والتعليم والمجالس البلدية والقروية والاسكان والتنمية الاجتماعية والرعاية الوطنية وحتى في الصناعة والزراعة .

ويلاحظ ان الزراعة وهي من اكبر القطاعات التي ينتمي اليها الجزء الاكبر من شعبنا حظيت بـ ٩ر٢٪ من مجموع المساعدات واما الصناعة فقد حظيت بـ ٧ر٥ ٪ فقـــط .

وبات رأى اصحاب العلاقة بهذه الاموال وبطريقة توزيعها معروفا . رغم انه كان بالامكان الاستفادة من هذه الاموال ومن هذا الدعم لو قدّر لها ان تخضع لسياسة صحيحة وتوجيه مخلص . لاشك ان الاحتلال حال دون اية عمليات للتنمية، وهذا معروف، لان مصالحه تتعارض مع مصالح المستفيدين من هذه التنمية .

وليس هذا فقط، بل استمر الاحتلال في الانقضاض على جوانب الحياة للشعب الفلسطيني الاقتصادية والتربوية والصحية.. بحيث قام الاحتلال بضرب الموارد الزراعية عبر مصادرة اكثر من ٥٠٪ من الارض حسب احصائيات بنفنستي ، وكذلك مصادرة المياه والسيطرة على الابار..كل هذا يعني ان الاحوال التي باتت تعيشها جماهيرنا اسوأ كثيرا مما كانت عليه في السنوات السابقة خصوصا غالبية الجماهير التي زادت فقرا وتعاني من البطالة والفقر ونقص الاجور للعاملين ، حيث يمنع المزارعون من تصدير محاصيلهم الزراعية. وتفرض الضرائب الباهظة على التجار والمصانع .. وتستمر الضغوط على المؤسسات الشبابية التي ادت الى اغلاق العديد من الاندية في الريف وتخريب المناهج الدراسية واغلاق الجامعات وسن قوانين تصل حد التدخل في شؤون الجامعات الداخلية مثل الامر

Digitized by Birzeit University Library

العسكري ـ رقم ٨٥٤ وسن قوانين اكثر حدة على الفلاحين منها الامر العسكري الذي يحمل رقم ١٠١٥ والذي ينص على منع زراعة اكثر من ٢٠ شجرة مثمرة بدون اذن رسمي منها ، ويذكر ان هذا الامر العسكري يعتبر البندورة والباذنجان ايضا من الاشجار المثمرة .

ما العمـــــل ؟

امام هذه الحقائق ، لا بد من وضع البديل الواقعي الذي نستطيع في هذا المجال ذكره، خصوصا ان البديل يجب ان يوفر فرصا للعمل ويساعد على وقف نزيف الهجرة ، وتوفير الحد الادنى لضروريات حياة الجماهير، وبالتالي خلق ظروف مناسبة للصمود الايجابي ، وليس الصمود المتخاذل على نمط روابط القرى وغيرها .

فلوضع تصور يخدم هذا الهدف ، ارى ان وضع البديل ، الى حد ما ، للبضائع الاسرائيلية التي اصبحت اسواق المناطق المحتلة ثاني مستورد في العالم بعد الولايات المتحدة ، وحتى تلك السلع التي كانت متو فرة بكثره في كل بيت مثل الدواجن ، البيض ، اللبن ، الفواكه ، الخضروات .

لكن تشجيع الاقتصاد المنزلي اى انتاج الاستهلاك المباشر فاننا نكون قد ساهمنا بشكل واضح في مقاومة الضغوط التي نجحت في ايصال الاوضاع الى هذا الحد ، بهدف تحويل المناطق المحتلة الى سوق كاملة للسلع الاستهلاكية الاسرائيلية ، وتحويل الفلاحين والاهالي الى عمال في سوق العمل الاسرائيلية او الهجرة الى الخارج لتسهيل سلب الاراضي وتفريغها من اصحابها .

ان المقصود بالاقتصاد المنزلي ليس نمطا انتاجيا وبالتالي اعادة التاريخ للوراء وهذا مستحيل لكن المقصود هو ما يسمى بالاقتصاد البيتي .

وكما يقول الدكتور فؤاد مرسي " .. كانت اسرة الفلاح تنتج كل ما تحتاجه تقريبا ، بحيث انها لم تبدأ تنتج من اجل البيع الا حينما توصلت الى انتاج فائض عن استهلاكها وعن الاتاوات العينية المترتبة عليها للاقطاع ..." " صحيح ان الحرفيين في المدن كانوا يشبعون الجزء الاكبر من حاجات استهلاكهم المباشر بعملهم الشخصي ، وهكذا فان الانتاج بقصد التبادل ـ وهذا تعريف الاقتصاد السلعي ـ كان لا يزال في المهد . ولذا كان التبادل محدودا وكانت السوق صغيرة . وكان اسلوب الانتاج مستقرا . وكانت العزلة المحلية عن العالم الخارجي شبه تامة " (١٢) .

واضح ان في هذا تشخيصا مقبولا لما يريده اقتصادنا في هذه الظروف ، للتخفيف قدر الامكان من استيراد البضائع الاسرائيلية ، والتخفيف ايضا من الضغوط التي تمارسها السلطات الاسرائيلية والاردنية على تصدير السلع والتي تتكرر سنويا ضد مزارعي العنب والبطيخ والخضروات .. الخ .

ان الانتاج المنزلي يعتبرا مدخلا لتخفيف الازمة الاقتصادية على ابناء الريف بالدرجة الاولى وبالتالي ايضا تخفيف اثر البطالة وغيرها .

هناك العديد من المهمات نستطيع الشروع في تنفيذها الى حد ما ، فمثلا نجد بعض الاحصائيات المدهشة ، التي تدحض اتهام بعض المؤسسات بأنها تساعد على تنميتها .

فمثلا جاء في دراسة اصدرها الملتقى الفكري العربي في مؤتمر التنمية من اجل الصمود ما يلي:

Digitized by Birzeit University Library

" .. يتضح ان المناطق المحتلة قد استوردت ٢٣ ٪ من كمية الخضروات المصدرة من الانتاج الزراعي الاسرائيلي وان نحو ٦٣٪ من مجموع كميات الفواكه التي تستهلكها تأتي من اسرائيل ولا توجد معطيات عن كميات الحبوب والمحاصيل العلفية" حسب معطيات ١٩٧٩ – ١٩٨٠ (١٣).

هذا مثال عن الزراعة، واورد مثلا عن الثروة الحيوانية حيث يقول عبد الرحمن ابو عرفة ان العدد اللازم اضافته من الحيوانات لتلبية الحاجات المحلية على النحو التالي : " ٢٫٧٠٠ بقرة هولندية، ١٦٠٫٠٠٠ اغنام وماعز ، ١٦٢٫٠٠٠ دواجن بياض ٤٠٨٫٠٠ دواجن لاحمة" (١٤).

اما في قطاع غزة فالنواقص في الحيوانات مثلا: "الابقار كانت في سنة ١٩٦٨، ١١٫٥٠٠ اصبحت في عام ١٩٧٩ ، ٤٫٠٠٠ اي نقص ٧٫٥٠٠ بقرة" (١٥).

بالتأكيد ايضا ان المساحات المزروعة حبوبا انخفضت بمعدلات عالية، واصبح النقص بالتالي كبيرا ايضا . من هنا اصبح اسم بعض الشركات الاسرائيلية ومنتجاتها في كل "ثلاجة" في المدينة والقريـــــة .

ظهرت في الفترة الاخيرة شعارات مقاطعة السلع الاسرائيلية، واعطاء امثلة في جنوب افريقيا وغيرهامن المواقع التي تجابه بمثل هذه الاسلحة النضالية، لكن حتى يتم مثل هذا لا بد من ايجاد البديل الحقيقي والواقعي، فلا يمكن مثلا تخفيض الاستهلاك من انتاج شركة ما .. الا عندما نرفع عدد الابقار والاغنام في المناطق المحتلة، وان نحل مشكلة اصحابها عبر توجيه الدعم الحقيقي لهؤلاء عبر تزويدهم بالاعلاف وتوحيدهم في لجان فلاحين. لتنظيم مسألة الدعم، ثـم تنظيم التسويق المحلي لهم، وبالتالي تصبح هذه اللجان أطراً تعمل على رفع مستوى الوعي التعاوني ، بمفهوم يدعم الصمود الايجابي .

نستطيع مقاطعة الفواكه او التخفيف من استيرادها عندما نزرع الخوخ والتفاح.. التي كانت في السابق .ويقال ان سبب انقراضها هو سرعة تعرضها للامراض، ويمكن الان توفير الارشاد ومقاومة لامراض عن طريق نقابة المهندسين الزراعيين ولجان الاغاثة الزراعية .

نستطيع تخفيف استيراد الحبوب، بعد تشجيع العودة الى الارض، ودعم الفلاح على الاقل بالبذار المحسّن وتوفير، البغال والخيول لحرث الاراضي الجبلية. وهذه ادوات انخفضت بشكل كبير فمثـــلا :

" الحمير : انخفض عددها على النحو التالي :ـمن ١٨٫٢٧١ عام ١٩٧٦– ١٤٫٩٧٥حماراعام ١٩٧٩

البغال :انخفض عددها على النحو التالي : من ٥٫٠٥٢ عام ١٩٧٦ – ٣٫٦٦٨ بغلاعام ١٩٧٩

الخيل :انخفض عددها على النحوالتالي :من ٣٫٠١٧ عام ١٩٧٦– ٦٧٢ رأس خيل عام ١٩٧٩ (١٦).

اذا ماتم دعم هذا التوجه الى الاقتصاد البيتي بمفهوم الاقتصاد الطبيعي ، فان ذلك سيحقق بالفعل نجاحا ملموسا .

ولتوضيح المقصود،هناك عائلة في العوجا في منطقة الاغوار لديها ما يلي :–

دجاج بلدي، حبش ، غنم ، بقره هولندية، ماعز، حمام بلدي، ارانب ، نحل . ولديهم تراكتور ويحرثون الارض التي لا يملكونها بل يزرعونهابنظام المحاصصة ويزرعون الزهرة، الملفوف، القمح ،

Digitized by Birzeit University Library

الشعير، البندورة، باذنجان وباقي الخضروات بانواعها .

تقول ربة البيت " لدينا الدجاج للحم والبيض، ونحلب البقر والغنم والماعز، نصنع الرايب والجبنة والزبدة .. ونستخرج العسل .. معظم اكلنا من انتاجنا في البيت " (١٧) .

اليس هذا حلا وبديلا يمكن بالفعل ان تعمل المؤسسات الجماهيرية شبابية او نسائية كانت ام نقابية على تنفيذه . ان هذا يشكل بديلا ارى فيه الواقعية وامكانية التطبيق فاذا كانت التنمية في المناطق المحتلة بهذا المفهوم، فانها حقا ستساعد على الصمود الايجابي انها تخدم السواد الاعظم من الفلاحين الفقراء والاحياء الفقيرة في المدن وفي المخيمات .

ان تبني المؤسسات المعنية بذلك، لمثل هذا التوجه وبتعاونها مع المنظمات الجماهيرية المنتشرة في الريف والمدن والمخيمات، وانتشارها هذا، يعني انها سلطة تنفيذية امينة، فان هذا التعاون سيكون شكلا منطقيا لخدمة جماهيرنا في ظل هذه الاوضاع الشاذة .

ان المؤسسات الجماهيرية، قادرة اذا ما تم دعم هذا التوجه، على خلق وتطوير التعاون في ريفنا ومخيماتنا، بعيدا عن المحاولات المشبوهة لاغراق جماهيرنا في مشاريع تخريبية بهدف ابعاد جماهيرنا عن هدفها السامي وهو النضال من اجل التحرر والاستقلال والتقدم الاجتماعي .

ان هذه الدراسة المتواضعة، انما تتطلب ايضا التنسيق بين الاطر الجماهيرية في الارض المحتلة، لانها معنية قبل غيرها في الدفاع عن مصالح جماهيرنا النضاليّة، والتصدّي للمحاولات التخريبية الهادفة الى ابقاء وتعميق ارتباط مجتمعنا سياسيّا واقتصاديّا في عجلة الرأسمالية والامبريالية والصهيونية الى الابـــــد .

ان هذه الدراسة محاولة لوضع البديل والمثل امام مؤسساتنا الوطنية واصدقائها في العالم، يُتوخى منها تسليط الاضواء على كيفية صرف، وتوجيه ما يمكن ان يتوفر من مساعدات غير مشروطة للمناطق المحتلة بهذا الاتجاه، والعمل على توظيفها لخدمة اوسع الجماهير الشعبية، والتي سيشكل دعمها حافزا مساعدا للمضي في نضالها من اجل مستقبل التحرر السياسي والتحرر الاقتصادي، مستقبل افضل لانساننا ولارضنا الحبيبـــة .

هوامـــــش :

---

١) صبري عبدالله "في التنمية العربية" ص ٢٥ ــ ٢٦ دار الوحدة العربية الطبعة الاولى ١٩٨٣ ــ لدكتور اسماعيل .

٢) كاظم حبيب "مفهوم التنمية الاقتصادية" دار الفارابي ، ص ١٧ .

٣) جوكوف ، اسكندروف ، سنيبانوف " البلدان النامية وقضاياها الملحة " دار التقدم موسكو ١٩٧٥ .

٤) مهدي عامل " مقدمات نظرية لدراسة اثر الفكر الاشتراكي في حركة التحرر الوطني" ص ٣٩ ، دار الفارابي الطبعة الثالثة ١٩٨٠ .

٥) لينين "مسألة الارض والنضال في سبيل الحرية" ص ٥٨ .

١٩٨٥ .

٧) لينين "موضوعة حول التعاون" ص ١٩٨٣ "مسألة الارض والنضال في سبيل الحرية" .

٨) المصدر السابق ص ١٧٦ .

Digitized by Birzeit University Library

٩) المصدر السابق المجلد ٤٥ ص ٣٦٩ – ٣٧٧ .
١٠) جوكوف اسكندروف ، ستيبانوف " البلدان النامية وقضاياها الملحة ص ٥٨ – ٥٩ .
١١) المصدر السابق ص ١٠٨ .
١٢) دكتور فؤاد مرسي " التخلف والتنمية " دراسة في التطور الاقتصادي . دار الوحدة الطبعة الاولى ١٩٨٢ .
١٣) داود استانسولي عبد الرحمن ابو عرفة ، يوسف العزة ، "الواقع الزراعي في المناطق المحتلة وضرورات التنمية" مؤتمر التنمية من اجل الصمود ١٩٨١ ص ٩ .
١٤) عبد الرحمن ابو عرفة الثروة الحيوانية في الضفة الغربية " مؤتمر التنمية من اجل الصمود ، جمعية الملتقى الفكري العربي – القدس – ص ٣٠ .
١٥) د. محمود مكي "الثروة الحيوانية في قطاع غزة المحتل" مؤتمر التنمية من اجل الصمود – الملتقى الفكري العربي القدس .
١٦) "السرة السنوية للمناطق المحتلة "سنة ١٩٨٠ رقم ١ مركز الدراسات الريفية جامعة النجاح الوطنية – نابلس .
١٧) العمل والمعلومات من كاتب المقال م.ب.

بالارقام

بلغ مجموع ارصدة السعودية والكويت ودولة الامارات العربية وقطر في المصارف الامريكية لوحدها، حسب ما اورده راديو لندن، ٣٠٠ مليار دولار موزعة على النحو التالي :

السعودية	١٥٠ مليار دولار ارصدة للدولة
الكويت	٣٠ مليار دولار ارصدة للافراد
دولة الامارات العربية	٨٠ مليار دولار ارصدة للافراد
قطر	٣٠ مليار دولار
	١٠ مليار دولار

ويذكر ان هذا المبلغ يشكل حوالي ٣٠ ٪ من مجموع ديون الدول النامية لمجمل الدول الدائنة .

Digitized by Birzeit University Library

الاتجاهات العامة في تطور الاقتصاد الاسرائيلي

بقلم : د. سمير عبدالله و سمير البرغوثي

الحلقة الثانية "

سنركز في هذه الحلقة على دراسة تطور الاستثمارات من حيث حجمها وبنيتها المادية وفعاليتها، وسنحاول ابراز الاستراتيجية الاسرائيلية السياسية والاقتصادية حيث ان السياسة الإستثمارية تعتبر الاداة الرئيسية لتحقيق هذه الاستراتيجية

١ ـ تطور التوظيفات الاستثمارية المحلية Gross Domestic Capital Formation

ازداد حجم التوظيفات الاستثمارية الاجمالية المحلية من ١٦٥ مليون دولار سنويا لفترة ١٩٥٠ ـ ١٩٥٥، الى ٥٦٨٢ مليون دولار في الفترة ١٩٧١ ـ ١٩٧٥، حيث بلغت اعلى مستوى لها، ثم تراجعت الى ٥١٣٤ مليون دولار سنويا في الفترة ١٩٧٦ ـ ١٩٨٠ و ٥١٣٣ مليون دولار في الفترة ١٩٨١ ـ ١٩٨٤ (لاحظ الجدول ١/٢).

(جدول رقم ٢ / ١)
تطور حجم الاستثمارات الاجمالية المحلية للفترة ١٩٥٠ ـ ١٩٨٤ (١)

الفترة	الاستثمارات الاجمالية بملايين الدولارات باسعار عام ١٩٨٠	الاستثمارات الاجمالية بملايين الدولارات حسب سعر الصرف الرسمي لعام ١٩٨٠	معدل الاستثمار/ الاستثمارات الاجمالية الناتج القومي الاجمالي
١٩٥٠ ـ ١٩٥٥	٨٢ر٣٥	٦٩٩٠	٤ر٤٣
١٩٥٦ ـ ١٩٦٠	٠٧ر٤٠	٧٨٢٠	٥ر٣٤
١٩٦١ ـ ١٩٦٥	٣٧ر٦٦	١٢٩٥٠	١ر٣٦
١٩٦٦ ـ ١٩٧٠	٤٥ر٧٧	١٥١١٠	٨ر٢٩
١٩٧١ ـ ١٩٧٥	٥٩ر١٤٥	٢٨٤١٠	٠ر٣٦
١٩٧٦ ـ ١٩٨٠	٥٨ر١٣١	٢٥٦٧٠	٢ر٢٧
١٩٨١ ـ ١٩٨٤	٢٢ر١٠٥	٢٠٥٣٠	٤ر٢٤
المجموع	١٠ر٦٠٢	١١٧٤٨٠	

Digitized by Birzeit University Library

اما معدل الاستثمار (حاصل قسمة الاستثمارات الكلية على الناتج القومي الاجمالي) فقد هبط من ٤٣ر٤ ٪ للفترة ١٩٥٠ – ١٩٥٥ الى ٤ ر ٢٤ ٪ للفترة ١٩٨١ – ١٩٨٤ . وبوجه عام كان معدل الاستثمار طيلة الفترة المدروسة قياسيا ، ومن الصعب تحقيقه لا في البلدان النامية ولا في البلدان المتطورة. ويعتبر هذا من احدى اهم خصائص الاقتصاد الاسرائيلي الذى لم يواجه صعوبات في الحصول على الرساميل الضخمة منذ بدايات تكونه . وعلى الرغم من هبوط معدل الاستثمار في الاقتصاد الاسرائيلي في السنوات الاخيرة فهو ما زال يفوق معدل الاستثمار في كافة الدول الرأسمالية باستثناء اليابان . ففي حين بلغ معدل الاستثمار في اسرائيل ٥ر٢٨ ٪ (٢) في الفترة ١٩٧٣ – ١٩٨٢ فلم يتعد معدل الاستثمار في الولايات المتحدة الامريكية ٥ر١٥ ٪ وفي بريطانيا ١ر١٨ ٪ وفي المانيا الغربية ٥ر٢٢ ٪ وفي فرنسا ١ر٢٣ ٪ وفي سويسرا ٧ر٢٤ ٪ وذلك خلال نفس الفترة الزمنية . اما اليابان فقد سجل معدل الاستثمار فيها ١ر٣٣ ٪ (٣) .

يمكن ايراد الملاحظات التالية من دراسة حجم التوظيفات الاستثمارية :

اولا : لا بد من ملاحظة حجم التوظيفات الاستثمارية الهائل الذى انفق في اقتصاد صغير ومحدود كالاقتصاد الاسرائيلي ، حيث بلغ حجم التوظيفات الاستثمارية المتراكمة بين ١٩٥٠ – ١٩٨٤ ما يقرب من ٥ر١١٧ مليار دولار (٦٠٢ مليار شاقل باسعار عام ١٩٨٠) . واذا علمنا ان حوالي ٦٠ ٪ من هذه الاستثمارات انفق على البناء والتشييد ، حيث لا تتعدى نسبة الاستهلاك السنوى فيها ٢ ٪ ، وان حوالي ٣٧ ٪ من هذه الاستثمارات انفق بعد عام ١٩٧٦ نستطيع تلمس ضخامة الطاقة الانتاجية الحالية للاقتصاد الاسرائيلي وضخامة الرصيد الرأسمالي (Stock of Capital) المتراكم في هذا الاقتصاد .

ثانيا : ان معدل الاستثمار الذى تمكن الاقتصاد الاسرائيلي من تحقيقه ، خصوصا في مراحل تطوره الاول ، مكنه من بناء قاعدة مادية – تكنولوجية واسعة ومتطورة ضمنت له التفوق على مختلف دول المنطقة . الا ان معدل الاستثمار المتحقق هذا حقق بفضل الدعم الهائل التي قدمته الدول الامبريالية والمؤسسات الصهيونية العالمية ، في حين اعتمدت مختلف دول المنطقة على قدراتها الداخلية بوجه خاص لتمويل الاستثمار . كما ان الدول العربية التي حصلت على مساعدات من الدول الامبريالية لم تكن مطلقة الحرية في رصد هذه الاموال لتمويل الاستثمارات ، وكان معظمها يذهب لاغراض الاستهلاك والخدمات الحكومية .

٢ – البنية النوعية للتوظيفات الاستثمارية :

يدخل ضمن مصطلح ال (Gross Capital Formation) ثلاثة عناصر رئيسية :

Digitized by Birzeit University Library

الزيادة في المخزون السلعي، الابنية والانشاءات ،العدد والالات . ولدراسة بنية الاستثمارات الاجمالية من حيث نوعها اهمية خاصة بسبب اختلاف دور وتأثير العناصر المذكورة المكونة لهذه الاستثمارات ، على الطاقة الانتاجية للاقتصاد. ففي حين تلعب العدد والالات دورا مباشرا في زيادة الطاقة الانتاجية ، فان العنصرين الاخرين يوفران الظروف المناسبة لتطور الطاقة الانتاجية، وبالتالي يكون تأثيرهما على الانتاج غير مباشر .

في ظروف التطور الطبيعية تكون حصة الابنية والانشاءات كبيرة في مراحل التطور الاولى وذلك بسبب الحاجة الى اعداد البنية الارتكازية (القاعدية) للاقتصاد والتي تحتاج لاستثمارات ضخمة، ولكن حصة الانشاءات والابنية تتناقص بعد ذلك بشكل مضطرد وتتزايد حصة العدد والالات، حيث تصبح الظروف مهيئة لزيادة القدرة الانتاجية . اما حالة المخزون فالى جانب انها في العادة تشكل جزءا ضئيلا في التكوين الرأسمالي فان الافراط في تزايدها من جهة وهبوطها بشكل حاد من جهة اخرى يدل على خلل في الاقتصاد. وبسبب ضآلة حصتها في التكوين الرأسمالي الاسرائيلي اهملنا المعطيات المتعلقة بها وقصرنا تحليلنا على التكوين الرأسمالي المحلي الثابت (Gross Fixed Capital Formation) وقد لخصنا حساباتنا في الجدولين (٢/٢، ٣/٢).

جـــدول رقم (٢ /٢)

البنيـــة النوعية للاستثمارات المحية الثابتة (٤)

الفتـــــرة	الاجمالـــي مليون دولار	حصة الابنية والانشاءات ٪	حصة الالات والمعدات ٪
١٩٥٢ – ١٩٥٩	٩٥٦٥	٦٩ ر ٤	٣٠ ر ٦
١٩٦٠ – ١٩٦٥	١٣٤٠٩	٦٥ ر ٩	٣٤ ر ١
١٩٦٦ – ١٩٧٠	١٥١١٠	٦١ ر ٩	٣٨ ر ١
١٩٧١ – ١٩٧٥	٢٨٤١٠	٦٢	٣٨
١٩٧٦ – ١٩٨٠	٢٥٦٧٠	٥٨	٤٢
١٩٨١ – ١٩٨٤	٢٠٥٣٠	٤٨	٥٢

جـــدول رقم ٢٪

اجمالي الاستثمارات في البناء والتشييـد وتوزيعها على الابنية المعدة للاسكان والانشـاءات الاخـــرى

Digitized by Birzeit University Library

الفتـــرة	اجمالي الاستثمارات في البناء والتشييد (مليـون دولار)	حصة الابنية المعـدة للاسكـــان ٪	انشـاءات اخـرى ٪
١٩٥٢ – ١٩٥٩	١ ر ٦٦٣٨	٤ ر ٤٩	٦ ر ٥٠
١٩٦٠ – ١٩٦٥	٥ ر ٨٨٣٦	٩ ر ٤٩	١ ر ٥٠
١٩٦١ – ١٩٧٠	١ ر ٩٣٥٣	٦ ر ٤٤	٤ ر ٥٥
١٩٧١ – ١٩٧٥	٢ ر ١٧٦١٤	٣ ر ٦١	٧ ر ٣٨
١٩٧٦ – ١٩٨٠	٥ ر ١٤٨٨٨	٦٢	٣٨
١٩٨١ – ١٩٨٤	٤ ر ٩٨٥٤	٦٥	٣٥

ان ابرز ما يلاحظ في البنية النوعية للاستثمارات الاجمالية هو استمرار توجيه الجزء الاعظم من الاستثمارات للابنية والانشاءات . وكان هبوط حصة الابنية والانشاءات بطيئا جدا. فكما يظهر في الجدول ٢/٢ استحوذت الابنية والانشاءات على ٤ر٦٩ ٪ من التكوين الرأسمالي الثابت في الفترة ٥٢ – ١٩٥٩ وعلى ٦٦ ٪ خلال الفترة ٦٠ – ١٩٦٥ و ٦٢ ٪ في الفترة ٦٦ – ١٩٧٠ و ٦٢ ٪ في الفترة ٧١ – ١٩٧٥ ثم ٥٨ ٪ في الفترة ٧٦ – ١٩٨٠ والهبوط الملحوظ جرى في الفترة ٨١ – ١٩٨٤ حيث هبطت حصتها الى ٤٨ ٪ . وهذا يعني ان حصة العدد والالات ارتفعت بشكل بطيء فيما عدا السنوات ٨١ – ١٩٨٤.

كما يلاحظ التغيرات في بنية الاستثمارات الموجهة للابنية والانشاءات حيث تزايدت حصة الابنية المعدة للسكن ببطء في البداية الا انها قفزت في الفترة ٧١ – ٧٥ لتشكل ٣ر٦١ ٪ ووصلت الى ٦٥ ٪ للفترة ٨١ – ٨٤ ويعود ذلك لاشتداد حمة الاستيطان المكثف في الاراضي المحتلة في النصف السبعينيات .

أ- توزيع الاستثمارات الاجمالية على فروع النشاط الاقتصادي المختلفة:

تنحصر اهمية دراسة توزيع الاستثمارات الاجمالية في الفروع الاقتصادية المختلفة في انها تعكس الملامح العامة لاستراتيجية التطوير . وكما يتضح من (الجدول ٢/٢) يمكن رصد الملاحظات التالية

Digitized by Birzeit University Library

(جدول ٤/٢)

التكوين الرأسمالي موزعا على فروع النشاط الاقتصادى المختلفة للفترة
بيـن ٥٢ ـ ٨٤ (بالنسب المئوية) (٦)

السنـة	١٩٥٢	١٩٥٤	١٩٥٥	١٩٦٠	١٩٦٥	١٩٧٠	١٩٧٥	١٩٨٠	١٩٨٤
الزراعة، الغابـات	١٧ر٩	٢٠ر٢	١٤ر٨	١١ر١	٥ر٣	٤ر٨	٤ر٦	٣ر٩	٤ر٥
الصناعـة	٢٠	١٩ر٥	١٢ر٣	١٧ر٧	١٣ر١	١٦ر٤	١٦	١٤ر٩	٢١ر١
الكهربـاء والمـاء			١١ر٥	٨ر٢	٥ر٧	٣ر٩	٤ر٣	٧ر٧	٥ر٢
البناء والتشييد	٣٩	٣٧ر٩	٣٩ر١	٣٠ر٨	٣٥ر٤	٣٦ر٣	٣٩ر٨	٤٨ر٩	٤٢ر٤
التجـارة والخدمـات	٢٢ر٥	٢٢ر٥	١٢	١٧ر٨	٢٠	١٩ر٩	٢١ر٤	١٧ر٧	١٩ر٩
النقـل والاتصالات			١٠ر٣	١٤ر٤	٢٠ر٥	١٨ر٨	١٣ر٩	٦ر٩	٥ر٦
	١٠٠	١٠٠	١٠٠	١٠٠	١٠٠	١٠٠	١٠٠	١٠٠	١٠٠

١ ـ استحواذ قطاع البناء والتشييد على حصة الاسد من الاستثمارات الاجمالية حيث تراوحت حصة
ما بين ٣٥ ـ ٤٠ ٪ للفترة ١٩٥٢ ـ ١٩٧٥ ، وارتفعت الى اكثر من ٤٥ ٪ بعد عام ١٩٧٨
وبلغت هذه الحصة الذروة في السنوات ١٩٨٠ ، ١٩٨١ ، ١٩٨٢، حيث وصلت الى ٤٨ر٩ ٪،
٤٩ر٣ ٪ ، ٤٧ ٪ ، على التوالي .

٢ ـ هبوط حصة القطاع الزراعي بشكل مضطرد ، ففي حين بلغت حصته ١٧ر٩ ٪ عام ١٩٥٢ و٢٠ر٢ ٪
عام ١٩٥٤ ، ظلت تهبط بشكل مضطرد بعد ذلك حتى وصلت الى ٤ ٪ للفترة ٨٠ ـ ١٩٨٣ و
٤ر٥ ٪ عام ١٩٨٤.

٣ ـ ارتفاع بطيء ولكن بشكل غير مستقر في حصة القطاع الصناعي . فقد ارتفعت حصته من
الاستثمارات من ١٢ر٣ ٪ من اجمالي الاستثمارات عام ١٩٥٥ الى ١٧ر٧ ٪ عام ١٩٦٠ هبطت
بعدها الى ١٣ر١ ٪ عام ١٩٦٥ ثم ازدادت الى ١٦ ٪ عام ١٩٧٠ . كما عادت للهبوط مرة

اخرى خلال ١٩٧٣ و ١٩٧٤ حيث وصلت اقل من ١٣ ٪ ، ولكنها عادت للارتفاع اعتبارا من
عام ١٩٧٥ اذ وصلت الذروة عام ١٩٨٤ حيث بلغت ٢١ر١ ٪ .

٤ ـ ارتفاع مضطرد في حصة التجارة والخدمات من ١٢٪ عام ١٩٥٥ الى ٢٠ ٪ عام ١٩٦٥ وظلت

Digitized by Birzeit University Library

حصتها تتذبذب حول هذه النسبة بعدّ ذلك .

٥- ارتفاع حصة النقل والاتصالات من ٣ر١٠٪ عام ١٩٥٥ الى ٥ر٢٠٪ عام ١٩٦٥ ثم هبوطها الى ٦ره٪ عام ١٩٨٤ .

بالاستناد الى لوحة توزيع الاستثمارات في الاقتصاد الاسرائيلي يمكن رصد الامور الهامة التالية

اولا : ان استحواذ قطاع البناء والتشييد على الجزء الاعظم من الاستثمارات يوضح السياسة الكولونيالية الاستيطانية الاسرائيلية التي اعطت الاولوية لعملية طمس واقتلاع الحضارة الفلسطينية التي راكمها الشعب الفلسطيني خلال القرون الماضية ، من اجل ان تبدو هذه الحضارة وكأنها بقاع محدودة ومشتتة ومتخلفة في بحر الامتداد (العمراني) اليهودي. ولم تكن مصادفة ان يعطي قطاع البناء والتشييد اهمية اكبر بعد عام ١٩٧٥ ، بعد دوران عجلة التسوية الاستسلامية وظهور بوادر خروج النظام المصري من صف المواجهة العربية. ومن المعروف ان الجزء الاعظم من نشاط قطاع البناء والتشييد قد تركز في تلك الفترة في الضفة الغربية وقطاع غزة والجولان .

ثانيا : ان الارتفاع النسبي في حصة النقل والاتصالات من الاستثمارات ناجم بالاساس عن عاملين رئيسيتين :

أ) السياسة التوسعية التي كانت وما زالت احدى اركان السياسة الاسرائيلية ، حيث كان لا بد من اعداد البنية التحتية لهذه السياسة بشبكة «متطورة» جدا للنقل والمواصلات يشكل يتعدى حاجات نقل البضائع والركاب .

ب) كما ان التطور البارز في اهمية النقل والاتصالات بعد عام ١٩٦٥ يبرز تعاظم الارتباطات الاقتصادية الاسرائيلية بالعالم الخارجي في التبادل التجاري والسياحة وغيرها .

ثالثا : كما ان الازدياد المضطرد في التكوين الرأسمالي في القطاع الصناعي يبين ان عملية التصنيع كانت وماتزال احد اركان الاستراتيجية الاقتصادية الاسرائيلية . وسنحاول توضيح اتجاهاتها في دراسة تطور القطاع الصناعي .

٤- فعالية الاستثمار في الاقتصاد الاسرائيلي :

تعرف فعالية الاستثمار Investment effectivness بمقدار الزيادة في الناتج القومي الناجمة عن استثمار وحدة واحدة من رأس المال ، ومعكوس فعالية الاستثمار يسمى معامل رأس المال (Capital Coefficient) وهو حجم الاستثمار (بالدولارات مثلا) اللازم لزيادة الناتج القومي وحدة واحدة (دولار واحد) .

ويعكس مؤشر فعالية الاستثمار او معكوسه حالة الاقتصاد من جوانب عديدة كالمستوى التكنولوجي للانتاج ، بالاضافة الى مستوى ملائمة البنية التحتية ومستوى تأهيل العاملين ومستوى الكفاءة في ادارة وتوجيه الاستثمارات في الفروع المختلفة وما شابه . كما ويعكس

Digitized by Birzeit University Library

هذا المؤشر حالة مصادر (موارد) الاقتصاد ومجالات التسويق وظروف تطوره المختلفة .

لدى حسابنا لهذا المؤشر اجرينا التعديلات والفروض الضرورية للحصول على نتائج قريبة من الدقة وتتلخص في :

١) اهمال ذلك الجزء من الاستثمارات الموجهه للابنية السكنية والتي تقدر بحوالي ٤٠ ٪ من اجمالي الاستثمارات .

٢) افترضنا ان مدة التشييد للاستثمارات تعادل سنتين لجميع السنوات على اعتبار ان تأثير الاستثمار يظهر في الناتج بعد سنتين من الانفاق الاستثماري .

بالاستناد لهذه الفروض حسبنا معامل رأس المال في الاقتصاد الاسرائيلي للفترة ٥٢ – ١٩٨٤ (الجدول ٢/٥) .

يلاحظ من الجدول المذكور ان المناخ الاستثماري في الاقتصاد الاسرائيلي

جدول ٢ / ٥

تطور معامل رأس المال في الاقتصاد الاسرائيلي للفترة (١٩٥٢ – ١٩٨٤)

السنة	١٩٥٢	١٩٥٣	١٩٥٤	١٩٥٥	١٩٥٦	١٩٥٧	١٩٥٨	١٩٥٩	١٩٦٠	١٩٦١	١٩٦٢	١٩٦٣	١٩٦٤
معامل رأس المال	٥٫٨	٦٫٢	١٤٫١	٦٫٢	٢	٣٫٤	٣٫٥	١٫٦	٢٫٩	١٫٩	١٫٨	١٫٨	٢

جدول ٢ / ٤ (بقية)

السنة	١٩٦٥	١٩٦٦	١٩٦٧×	١٩٦٨	١٩٦٩	١٩٧٠	١٩٧١	١٩٧٢	١٩٧٣	١٩٧٤	١٩٧٥	١٩٧٦	١٩٧٧
معامل رأس المال	١٫٢	٢٦	٩٫٦	١٫١	٠٫٩١	١٫٩	١٫٦	١٫٤	٤٫٨	٣٫٨	٧٫٥	١٤٫٢	٨٫٨

جدول ٢ / ٤ (بقية)

السنة	١٩٧٨	١٩٧٩	١٩٨٠	١٩٨١	١٩٨٢	١٩٨٣	١٩٨٤×
معامل رأس المال	٥	٣٫٨	٤٫٨	٣٫٨	...	٩٫٦	...

× في الاعوام ١٩٨٢، ١٩٨٤ لا يمكن حساب معامل رأس المال بسبب هبوط قيمة الناتج القومي الاجمالي بسبب وجود ازمة اقتصادية حادة جدا .

× كما يلاحظ ان سنوات الهبوط الاقتصادي تشهد ارتفاع حاد في معامل رأس المال . كما في عامي ١٩٦٦ ، ١٩٦٧ .

في الفترة التي سبقت عام ١٩٧٣ كان مواتيا جدا . حيث لو استثنينا الاعوام الاولى على اقامة اسرائيل وسنوات الازمة الاقتصادية الحادة في ١٩٦٧/٦٦ ، فان زيادة الناتج القومي في اسرائيل بمقدار دولار واحدكانت تتطلب استثمار اقل من دولارين في المتوسط . ومن المعروف ان مردود الاستثمار يتكرر لمدة لا تقل عن عشرة سنوات (العمر الانتاجي للاصول الاستثمارية) .

ان هذا ابقي معدلات ربح مرتفعة بسبب سرعة دورة رأس المال المستثمر وارتفاع الكفاءة الحدية

Digitized by Birzeit University Library

لرأس المال اما في الفترة بين ٧٢ – ٨٤ فقد ارتفعت قيمةمعامل رأس المال (انخفضت فعالية الاستثمارات بشكل كبير جدا) واصبحت ظروف الاستثمار في غاية التردى، فقد ارتفع معامل رأس المال من ٢ للفترة السابقة لعام ١٩٧٢ الى ٦ر٦ للفترة اللاحقة. اى ان زيادة الناتج القومي الاسرائيلي بمقدار دولار واحد اصبحت تستوجب استثمار مقداره ٦ر٦ دولار بعد عام ١٩٧٢.

وفي محاولتنا لاستنباط معامل رأس المال او فعالية الاستثمار بطريقة حسابية من المعطيات حول معدل الاستثمار ومعدلات النمو في الناتج القومي الاجمالي حصلنا على نتائج مطابقة تقريبا . فكما يتضح من الجدول (٦/٢) بلغ معامل رأس المال ٢ر١ للفترة ٥١ – ٦٦ و ١ر٩ للفترة ٦٧ – ٧٢ ارتفع بعدها الى ٧ره للفترة ٧٣ – ٨٠ ثم الى ١٢ر٩ للفترة ١٩٨١ – ١٩٨٤ . ومن الطبيعي ان يكون معامل رأس المال اعلى من ذلك فيما لو اعتمدنا معدل الاستثمار بدون خصم الاستثمارات الموجهه للابنية الاسكانية كما في العمود ٥ من الجدول المذكور

(جدول ٦/٢)

معدل الاستثمار ومعدلات ومعامل رأس المال في الاقتصاد الاسرائيلي للفترة ١٩٥١ – ١٩٨٤

١ الفتـــرة	٢ معدل الاستثمار الاجمالي ٪	٣ معدل الاستثمار بدون الاستثمار في الابنيـة الاسكانية ٪	٤ معدل النمو السنوى ٪	٥ معامل رأس المال $\frac{١}{٤}$	٦ معامل رأس المـال $\frac{٢}{٤}$
١٩٥١ – ١٩٦٦	٧ر٣٥	٤ر٢١	١١٠	٥ر٣	١ر٢
١٩٦٧ – ١٩٧٢	٨ر٣٢	٧ر١٩	٤ر١٠	٢ر٣	٩ر١
١٩٧٣ – ١٩٨٠	١ر٣٠	٩ر١٩	٥ر٣	٦ر٨	٧ر٥
١٩٨١ – ١٩٨٤	٤ر٢٤	٨ر١٦	١ر٣	٨ر١٨	٩ر١٢

تعريفات :

× معدل الاستثمار = اجمالي التكوين الرأسمالي G.C.F / الناتج القومي الاجمالي G N P

× معدل النمو السنوى = معدل نمو الناتج القومي الاجمالي ، وقد احتسبناه بطريقة اخذ معدل النمو بين سنة والسنة التي تسبقها . $\frac{\Delta G N P}{G N P} \times 100$

ان اتجاه التطور الطبيعي لفعالية الاستثمار هو التزايد المضطرد، حيث عادة ما تكون بنية الاقتصاد الارتكازية (Infrastructure) غير ملائمة في مراحل التطور الاولى، اذ عادة ما

Digitized by Birzeit University Library

تكون القوى الانتاجية محدودة وقليلة الكفاءة، وغيرها من المؤثرات التي تجعل كفاءة الاستثمار منخفضة. ولكن بعد تطوير البنية الارتكازية وتطوير القوى الانتاجية كما ونوعا تتحسن ظروف الاستثمار وترتفع فعالية الاستثمارات .

ولكننا امام معطيات معاكسة تماما في الاقتصاد الاسرائيلي، حيث كانت فعالية الاستثمار مرتفعة جدا قبل عام ١٩٧٣ انخفضت بعدها بشكل كبير . واذا تمكنا من ان نعزو اسباب ارتفاع فعالية الاستثمار في الفترة ١٩٥٣ – ١٩٧٢ الى مصادر النمو الخارجية التي توفرت للاقتصاد الاسرائيلي مجانا والتي اشرنا اليها في الحلقة الاولى من هذه الدراسة فما هي اسباب الانخفاض الحاد في فعالية الاستمثارات بعد عام ١٩٧٣.

قد يكون من التسرع الان الاجابة الكاملة على هذا السؤال، ولكن من الواضح ان حصيلة التطور الماضي للاقتصاد الاسرائيلي لم تنسجم مع متطلبات التطور اللاحق، اى بمعنى آخر لم تخلق الظروف والممهدات لاستمرار التطور، وعلى الاغلب ان يكون هذا التطور قد قاد الى خلل بنيوي خطير في الاقتصاد وراكم العديد من البنى والهياكل التي اصبحت عبئا على الاقتصاد وعاملا كابحا لتطوره .

كما لعب دورا هاما في اضعاف فعالية الاستثمار، ان عملية تقنيتها كانت تخضع بالاساس لاعتبارات جيو – ستراتيجية وسياسية . وبذا فقد انفق الجزء الاعظم منها في الاستيطان، وفي البنية الارتكازية بما يتلائم مع المخططات التوسعية. ومن المعروف ان هذا الانفاق لا يمس الطاقة الانتاجية للاقتصاد بشكل مباشر، ومن الطبيعي ان يؤدي الافراط في توجية الاستثمارات في البنية الارتكازية الى تقليص فعالية الاستثمارات .

٥ – ملخـــــــــص :

يتضح من تحليل حجم وبنية وفعالية التوظيفات الاستثمارية للاقتصاد الاسرائيلي الملامح الرئيسية للاستراتيجية السياسية الاسرائيلية والتي يمكن تلخيصها في ثلاثة اركان رئيسية :–

١ – التوسع، حيث تمت اقامة البنية التحتية ليس بما يتلائم . وحاجات الاقتصاد وحسب، بل بما يفوق حاجات هذا الاقتصاد، بحيث تكون ملائمة لقيام اسرائيل بوظيفتها السياسية في المنطقة.

٢ – الاستيطان، حيث عملت اسرائيل على اقامة عشرات المدن والقرى في سائر ارجاء الضفة الغربية وقطاع غزة بدون ان تكون هناك حاجة اقتصادية ملحة لاقامتها حيث ما زالت معظم مساكن هذه المدن والقرى خاوية حتى الان . الا ان هدف حكام اسرائيل في خلق وقائع مادية في المناطق المحتلة لعرقلة تطور هذه المناطق وللتضييق الاقتصادى والنفسي على الشعب الفلسطيني كان الحافز الاساسي المحرك لهذه العملية .

٣ – التصنيـــع : كما ان دراسة التوظيفات الاستثمارية تبين ان التصنيع كان احد اهم اركان

Digitized by Birzeit University Library

الاستراتيجية السياسية الاسرائيلية. ويتضح هذا من تزايد حجم التوظيفات في الصناعة . ونظرا لاهمية التصنيع في الاقتصاد الاسرائيلي ، والتطورات التي حدثت في اتجاهاته فسنفرد له مكانا متميزا في هذه الدراسة .

يتبـــــع

الهوامـــــــش :

١) S.A.I No 36 ,1985 P.P 176

٢) اوردت مجلة اسرائيل الاقتصادى I. Economist في عدد كانون الثاني ١٩٨٥ صفحة ٩ ان معدل الاستثمار في الاقتصاد الاسرائيلي للسنوات ١٩٧٣ – ١٩٨٣ بلغ ٢ر٢١ / وذلك في معرض مقارنة كفاءة الاقتصاد الاسرائيلي بكفاءة اقتصاديات بعض الدول الرأسمالية .

٣) Israel Economist Jan 1985

٤) statistieal Abstract of Israel No - 19 - 1968, No -24-1973, No-30- 1980 , No - 36 - 1985

٥) Ibid

٦) Ibid

٧) I.S.A. No 36 , 1985 P.P 176 .

٨) Ihid .

Digitized by Birzeit University Library

بعض قضايا الصراع في جنوب القارة الإفريقية

بقلم : تيسير العـــاروري

لا تخلو عناوين الصحف والمجلات واعمدتها يوميا وعلى مدى السنوات الاخيرة من اخبار قادمة من جنوب القارة الافريقية، وغالبا ما ترتبط بشكل مباشر او غير مباشر بجمهورية جنوب افريقيا وممارساتها السياسية العدوانية، العنصرية تجاه شعبها في الداخل او تجاه الشعوب الاخرى في الدول المجاورة . ولا عجب فان النظام العنصري في جنوب افريقيا يشكل نقطةالارتكازالرئيسية للامبريالية في النصف الجنوبي من قارة افريقيا، ذلك القسم الغني بثرواته الطبيعية، ومكامن المعادن الثمينة والنادرة والاستراتيجية،وفي مقدمتها اليورانيوم ، والذهب ، والبلاتين ، والنحاس والزنك ، والرصاص، والليثيوم وغيرها الكثير، التي تستغلها شبكةواسعة من الشركات متعددة الجنسية . تشارك بها جمهورية جنوب افريقيا التي تأخذ على عاتقها تأمين حرية النهب لهذه الشركات في وجـه شعوب المنطقة وحركات تحررها الوطنية ، السياسية والاجتماعية .

ان الدور الذى تلعبه جمهورية جنوب افريقيا في جنوب القارة الافريقية ، بمقياس العديد من الوءشرات كالاستراتيجية السياسية الدولية والمحلية، والارتباطات الدولية والتكتيكات السياسية والعسكرية المتبعة، والموقف من الشعوب والدول المجاورة، والمكانة في معادلات السياسة الامبريالية الامريكية بشكل خاص، وغيرها من الموءشرات ، تبين ان هناك تطابقا كبيرا بين هذا الدور والدور الذى تلعبه اسرائيل في منطقة الشرق الاوسط. وهو الاساس الذى بموجبه يعتبر الكثيرون النظام العنصري في جنوب افريقيا والصهيونية في اسرائيل توأمان .

ان شعب جنوب افريقيا يناضل من اجل التحرر الوطني وتقرير المصير ويعني تقرير المصير في حالة جنوب افريقيا كما حددها دان تلومي ـ نائب السكرتير العام للموءتمر الوطني الافريقي (١) في جنوب افريقيا بأنها " اولا وقبل كل شيء ، تحطيم الدولة التي تقوم على حكم الاقلية البيضاء وتصفية الفصل العنصري واختيار نظام سياسي يتولى الشعب في ظله حكم البلاد بنفسه ."(٢).

ويقود النضال الوطني التحرري في جنوب افريقيا، الموءتمر الوطني الافريقي وحليفه الحزب

Digitized by Birzeit University Library

الشيوعي في جنوب افريقيا وموءتمر نقابات جنوب افريقيا .

وقد تمرس شعب جنوب افريقيا بالنضال المثابر والعنيد خلال عدة عقود . وينخرط اليوم في النضال التحرري العديد من الفئات الاجتماعية المختلفة بعد ان تصعد وعي الشعب السياسي بدرجة كبيرة، واصبح نضال الطبقة العاملة، العمود الفقري للنضال، موجها بالدرجة الاولى الى احداث تغيير جذري في النظام الاجتماعي ـ السياسي ولم يعد يكتف بالسعي الى زيادة الاجور وتحسين ظروف العمل وغيرها من المطالب الاقتصادية. وهذا ما اكدته من جديد موجة الاضرابات الاخيرة التي شملت صناعات مختلفة ومناطق شتى في جنوب افريقيا، والمظاهرات الصاخبة التي تندفع في الشوارع حاملة اعلام الموءتمر الوطني الافريقي ورايات الحزب الشيوعي الحمراء .

وامام هذه الموجة العارمة التي لم تشهد لها جنوب افريقيا نظيرا من المقاومة الجماهيرية التي فرت اسس نظام الابارتهايد، ادركت السلطات ان اعمال القمع وحدها لا تستطيع اخماد هذه الموجة، ولذلك لجأت لابتكار اساليب جديدة . واعلن رئيس الوزراء بيتر بوتا في مطلع هذا العام ١٩٨٦ بوقاحة ان جنوب افريقيا تجاوزت " المفهوم البالي للفصل، العنصري" ، ورافق قرار الغاء حالة الطوارئ التي كان قد فرضها عام ١٩٨٥ على العديد من مناطق البلاد بحملة دعائية صاخبة الا ان هذه السياسة الجديدة لم تخرج النظام من ازمته واضطر الى اعادة فرض انظمة الطوارئ من جديد في حزيران ١٩٨٦، الا ان هذه الخطوة قد زادت من حدة اشتعال الوضع، وهذا ما يشير اليه تحليل الارقام الرسمية عن اعمال القتل والاعتقال خلال اقل من شهرين بعد اعلان حالة الطوارئ حيث تبين انه" منذ سريان مفعول انظمة الطوارئ في حزيران الماضي لقي ٢٣٤ شخصا مصرعهم برصاص بوليس الابارتهايد وذلك طبقا للمعطيات الرسمية غير الكاملة، فيما زج في غياهب السجون بما لا يقل عن ١٢ الف شخص شاركوا في المظاهرات ضد نظام التمييز العنصري، وترفض السلطات اعطاء اية معلومات عن مصير المعتقلين "(٤) .

Digitized by Birzeit University Library

لقد ادى النهوض الكبير في الحركة التحررية الى نشوء ازمة خطيرة ليس في البنى الداخلية لجنوب افريقيا فحسب ، بل وفي سياستها الخارجية. واضطر النظام العنصرى الى تغيير تكتيك السياسي اكثر من مرة .

ولقد تم كشف النقاب لاول مرة عن ما اطلق عليه مبدأ " الهجوم الشامل " و " الاستراتيجية الشاملة" وذلك في " الكتاب الابيض" حول الدفاع الذى صدر في عام ١٩٧٧ . وينطلق هذا المبدأ من الاسطورة الممجوجة بان الهدف الرئيسي " لهجوم الشيوعية الدولية وفق توجيهات موسكو، هو الطرف الجنوبي للقارة الافريقية". وبالتالي ، فان على كافة بلدان تلك المنطقة ان تتحد تحت قيادة بريتوريا لصد " الهجوم الشيوعي" . وكان قادة النظام العنصرى يطمحون من خلال ذلك الى تكريس نهج يمكن ان يضمن بقاء نظام حكمهم على المدى البعيد ، في وقت كانت حركة التحرر الوطني تحقق نجاحات ، بارزة في افريقيا بشكل عام وفي جنوب القارة بشكل خاص .

وقد استندت هذه السياسة الى ثلاثة مبادئ وتوجهات اساسية حددها دان تلومي بالاستناد الى اقوال رئيس جنوب افريقيا ـ بيتر بوتا ، نفسه ، على النحو التالي : " محاولات اغراء البلدان الافريقية بالتعاون مع نظام الحكم العنصرى او ارغامها على اقامة تحالف معه ، والى الحيلولة دون مساهمة المجتمع الدولي في حل المعضلات الاقليمية ، والى بذل الجهود لمنع او على الاقل تأخير قطع العلاقات الاقتصادية بين البلدان الافريقية ، وخاصة البلدان الافريقية الجنوبية ، وجنوب افريقيا " (٥) ولذلك ، فقد دعت بريتوريا من جهة الى اقامة منظمة " كونساس" ـ مجموعة الدول الافريقية الجنوبية (Constell ation of Southern African States) كعنوان للتعاون الاقتصادى والسياسي ومن اجل " السلام والازدهار" تحت مظلة بريتوريا .

الا ان هذه المخططات تلقت ضربة كبيرة عندما فشل الامبرياليون والعنصريون في تسليم مقاليد الحكم في زمبابوى (روديسيا سابقا) الى عميلهم المفضوح موزوريوا . وتلقت الضربة الثانية وكانت قاتلة عندما قامت ثماني دول افريقية جنوبية (وهي انغولا ، موزامبيق ، زيمبابوى ، بوتسوانا ،ليسوتو، ملاوى، تنزانيا، زامبيا وسوازيلاند) بتشكيل " مؤتمر تنسيق التنمية في دول جنوب افريقيا" ـ (The Southern African Development coordination Conference) الذى استحدث لتطوير التعاون الاقتصادى الاقليمي وتطوير الاعتماد على الذات في الدول الاعضاء ومن اجل مواجهة الاستعمار الجديد .

وفي الوقت الذى كانت فيه بريتوريا تحاول ترويج بضاعة "كونساس"، فانها صعدت من هجماتها العسكرية المباشرة ضد جاراتها وبشكل خاص انغولا وموزامبيق وليسوتو، وكذلك من تصعيد عمليات التخريب باستعمال المرتزقة والمجرمين والعملاء ووسعت عمليات الاغتيالات السياسية، وبشكل خاص ضد كوادر واعضاء المؤتمر الوطني الافريقي. كل ذلك بهدف تركيع هذه الدول وخضوعها لابتزاز النظام العنصـــرى .

وقد استهدفت جنوب افريقيا في تلك الفترة تدمير المشاريع الاقتصادية والهياكل الارتكازية في الدول المجاورة .

Digitized by Birzeit University Library

وهذا ما سنتطرق له بتفصيل اكبر في ما بعد .

وهكذا ، فان قادة نظام الفصل العنصري ، يتبعون نفس الوصفة الامبريالية المعروفة جيدا ، وبشكل خاص في منطقة الشرق الاوسط ، " سياسة العصا والجزرة" وذلك بهدف عزل الحركة التحررية في افريقيا الجنوبية باكملها عن طريق الخداع ، من خلال جرها الى مستنقع المساومات ، تحت الضغط من جهةوالترغيب من جهة اخرى ، ويأملون بالتالي الى جر بلدان المنطقة الى اتخاذ خطوات موجهة ضد المؤتمر الوطني الافريقي ، بالاضافة الى اشاعة الانقسامات والبلبلة في صفوف دول المواجهة ، وتقويض وحدتها وضرب نضالها المشترك . وبالتالي ، ومن باب تحصيل الحاصل يتحقق هدف هام ، وهو تقويض سياسة التنسيق والتعاون الاقتصادى المتكافئ التي اختطتها هذه الدول ، وخلق المناخ الملائم لاحياء مشروع اقامة منظمة " كونساس" الذى لم يتخل عنه نظام بريتوريا حتى الان .

وباختصار فان حلم حكام النظام العنصرى ، الذى لم يفارقهم خلال العقود الماضية وحتى الان يبقى السعي للوحدة الى وضع تكون فيه بريتوريا هي " القوة الكبرى" المهيمنة في تلك المنطقة من العالـــم .

وهنا لا بد من ملاحظة انه ما كان بمقدور بريتوريا ان تمارس مثل هذه السياسة تجاه شعبها والشعوب والدول المجاورة ، وما كان من الممكن ان يكون لحكامها مثل هذه الاحلام ، والطموحات وكذلك الطمع تجاه المنظمات الدولية والامم المتحدة وغيرها ، لولا الغطاء السياسي ، والاقتصادى الذى توفره لها دول الغرب الامبريالية ، وفي مقدمتها الولايات المتحدة . ولا ادل على ذلك من عدد المرات التي استعملت فيها دول الغرب ، حق النقض (الفيتو) لمصلحة جنوب افريقيا في مجلس الامن . وهو يضاهي ولا شك ، عدد المرات التي استعملت فيها نفس الدول نفس الحق للغطية على اسرائيل .

دليل ساطع آخر على ذلك حقيقة ان القروض الامريكية لشركات جنوب افريقيا قد ارتفعت من ٥٠٠ مليون دولار عام ١٩٧٩ الى ٣٫٩ مليار دولار عام ١٩٨٥ (٦) . كما ازدادت واردات بريتوريا من الولايات المتحدة في نفس العام ١٩٨٥ لتصل زهاء مليار دولار وازدادت صادراتها الى الولايات المتحدة وقفزت عن مبلغ ٢٠٠ مليون دولار .

تكاليـف عـدوان جنـوب افريقيـا علـى جاراتها

==========

لقد جاء في التقرير (٧) المقدم من " مؤتمر تنسيق التنمية في دول جنوب افريقيـــا (SADCC) الى مؤتمر قمة منظمة الوحدة الافريقية المنعقد في اديس ابابا في تموز ١٩٨٥ بان خسائر دول جنوب افريقيا المستقلة الثمانية الاعضاء في مؤتمر تنسيق التنمية من جراء الاعتداءات العسكرية المتكررة لعنصرى جنوب افريقيا خلال فترة خمس سنوات منذ تأسيـــس (SADCC) عام ١٩٨٠ قد بلغت اكثر من عشرة بلايين دولار موزعة على النحو التالي :

Digitized by Birzeit University Library

	بملايين الدولارات
١) دمار حربي مباشر	١٦١٠
٢) نفقات دفاعية اضافية	٣٠٦٠
٣) تكاليف اضافية على النقل والطاقة	٩٧٠
٤) بضائع ضائعة وفقدان في السياحة	٢٣٠
٥) تهريب	١٩٠
٦) اللاجئين	٦٦٠
٧) تناقص في الانتاج	٨٠٠
٨) خسائر التطور الاقتصادى	٢٠٠٠
٩) مقاطعة وحصار	٢٦٠
١٠) اجراءات التجارة	٣٤٠
المجموع	١٠١٢٠

ان احد اهم عناصر عدم الاستقرار لمجموعة لدول جنوب افريقيا هو الغزو المتكرر الذى تقوم به قوات جمهورية جنوب افريقيا لاراضي جاراتها، وبشكل خاص انغولا، بونشوانا، موزامبيق وليسولو، وعمليات نسف وتخريب الجسور وخطوط السكك الحديدية والقطارات وابار النفط بالاضافة الى تسليح وتدريب ودعم العصابات المعادية للانظمة في هذه الدول .

ومن الامثلة البارزة على الدمار الناتج عن عمليات عسكرية مباشرة قامت بها قوات النظام العنصرى :

٨٠ مليون دولار قيمة الدمار الذى حل بقاعدة تورنهل الجوية في زيمبابوى

٢٤ مليون دولار مصفاة النفط في لواندا .

٢٠ مليون دولار خزانات النفط في بييرا .

ان حصة الاسد من الدمار الناتج عن العمليات العسكرية المباشرة (وقيمته ١٦١٠ مليون دولار) هي من نصيب انغولا اولا وموزامبيق ثانيا .

ان تصاعد العمليات العسكرية لقوات جنوب افريقيا وبشكل خاص منذ عام ١٩٨٠ قد اجبر دول (SADCC) على زيادة ميزانياتها العسكرية بشكل متصاعد وذلك من اجل زيادة حجم قواتها المسلحة وتحسين تسليحها وتوسيع صفوف قوات الميليشيا الشعبية، وذلك من اجل الدفاع عن حرمة بلادها ضد عمليات التخريب والغزو . وتقدر دول (SADCC) بان هذا قد كلفها مبالغ اضافية على ميزانياتها العسكرية العادية تقدرها بـ (٣٠٦٠) مليون دولار خلال فترة الخمس سنوات المذكورة اعلاه .

لقد كانت شبكة السكك الحديدية هدفا مفضلا لاعمال التخريب، وبشكل خاص من قبل العصابات التي يحركها النظام العنصرى . وذلك لان هذا النظام يدرك بان معظم صادرات وواردات

Digitized by Birzeit University Library

دول (SADCC) تمر عبر موانىء انغولا وموزامبيق ، والطريقة الوحيدة لتحويل مجرى هذه البضائع لتمر بالضرورة عبر موانيء النظام العنصرى ليحصل هو على عائدات تجارة الترانزيت وليس انغولا او موزامبيق من جهة، ومن جهة ثانية لتبق هذه الدول تحت رحمته، خاصة وان ثلاثة من هذه الدول هي ملاوى، زامبيا، وزيمبابوى ، لا تطل على البحر، وبالتالي ليست لديها موانؤها الخاصة بها .

بالاضافة الى ذلك فان اعمال التخريب ضد خطوط القوى الكهربائية ومنشآت النفط التي يقوم بها رجال كوماندو النظام العنصرى او العصابات التابعة، قد الحقت بانغولا وملاوى وموزامبيق وزيمبابوى خسائر مادية كبيرة سواء بسبب النفقات الاضافية لنقل الوقود او بسبب الاضطرار لاستعمال انواع وقود اغلى ثمنا .

ان مجموع خسائر دول (SADCC) بسبب التكلفة الاعلى للنقل وخسائر عائدات تجارة الترانزيت والنفقات الاضافية على الوقود والطاقة تبلغ ٩٧٠ مليون دولار .

وقد يبدو مفاجئا تقدير الضرر الناتج عن عمليات التهريب ، التي كلفت انغولا وموزامبيق مبلغ ١٩٢ مليون دولار .. حيث تقوم عصابات المهربين، بتهريب الالماس والاحجار الكريمة والعاج من ما يقدر بعشرة الاف فيل والاخشاب وبيعها للشركات في جنوب افريقيا .

بالاضافة الى كل ذلك هناك الخسائر الناجمة عن التناقص الشديد في السياحة وتعطل التصدير ونفقات اللاجئين بسبب العمليات الحربية والخسائر الناجمة عن التراجع الكبير في الانتاج الزراعي والصناعي للاستهلاك المحلي وتعطل و تأخر تنفيذ الكثير من المشاريع الانتاجية، (قدرت هذه الخسائر ب ٨٠٠ مليون دولار) ثم هناك الخسائر الكبيرة في النمو الاقتصادى حيث يقدر بانه فيما لو انفقت المبالغ المذكورة في البندين الاول والثاني فقط اى ١٦١٠ مليون دولار الناجمة عن الدمار الحربي المباشر و ٣٠٦٠ مليون دولار ـ نفقات الدفاع الاضافية، ميدان الانتاج الاقتصادى، لادت الى زيادة الانتاج المحلي في هذه الدول بمقدار ٢٠٠٠ مليون دولار خلال نفس مدة الخمس سنوات المشار اليها .

ان كل هذا يشير بوضوح الى ان النظام العنصرى في جنوب افريقيا لا يحارب جاراته عسكريا فقط وانما، وبالدرجة الاولى من حيث الاثر الفعلي ، اقتصاديا. وبالتالي اذا كان ما يطفو على سطح الاحداث في هذه المنطقة هو عدم الاستقرار العسكرى والسياسي ، فان ما يضرب جذوره في الارض هو عدم الاستقرار الاقتصادى ، الناجم عن عدوان جنوب افريقيا وما لذلك من اثار كبيرة على حياة هذه الدول الفقيرة .

واذا كان اسم جنوب افريقيا ،وخلال العقود الماضية قد ارتبط بسياساتها العنصرية على النطاق الداخلي واحتلالها غير الشرعي لناميبيا ، وكون ممارساتها واعمالها العدوانية هي نقطة شبه دائمة على جدول اعمال المنظمة الدولية وكافة هيئاتها المتفرعة. ولكن ودون ما انتقاص من اهمية كل ذلك، الا انه يجب ان يوضع في مقدمة كل ذلك الاثار الاقتصادية لممارسات جنوب افريقيا تجاه جاراتهـــا .

Digitized by Birzeit University Library

ان هذا ولا شك يفضح حقيقة الموقف المنافق واللا منطقي للدول الغربية التي تقدم المساعدات التكنولوجية والمالية لنظام في مقدمة اهدافه نسف اقتصاد الدول المجاورة ، التي تدعي نفس الدول الغربية بانها مهتمة في مساعدتها على النمو والتطور !!.

جنـــوب افريقيـــا وناميبيـــا

==========

ناميبيا هي واحدة من اكبر دول افريقيا الجنوبية من حيث المساحة، حيث تبلغ مساحتها ، ٨٢٤ الف كيلومتر مربع (ثلاثين مرة اكبر من مساحة فلسطين بكاملها) . اما عدد سكانها فوفق تقديرات الامم المتحدة لعام ١٩٧٧ هو ١ر٢ مليون نسمة (منهم مئة الف من اصل اوروبي) . اما معطيات دائرة الاحصاءات لجمهورية جنوب افريقيا لعام ١٩٨٠ فتعطي ارقاما مختلفة، عدد السكان ٩٧٤ الف (منهم ١١٠ الفا من اصل اوروبي) (٨).

في عام ١٨٨٤ ، ونتيجة لاقتسام افريقيا من قبل القوى الاوروبية آنذاك ، فقد اصبحت ناميبيا (واسمها السابق جنوب غرب افريقيا) محمية المانية ، وقد احتلتها قوات بريطانيا وجمهورية جنوب افريقيا خلال الحرب العالمية الاولى ، اما بعد الحرب فاصبحت ناميبيا تحت انتداب عصبة الامم ومن ثم حول الانتداب الى اتحاد جنوب افريقيا (التي اصبحت تدعى اعتبارا من ١٩٦١ بجمهورية جنوب افريقيا).

وقد اتخذت حكومة جنوب افريقيا مباشرة بعد الحرب العالمية الثانية ، خطوات لضم ناميبيا لاراضيها ، ولكن الجمعية العمومية للامم المتحدة رفضت ادعاءات جنوب افريقيا ، واوصت عام ١٩٤٦ بوضع ناميبيا تحت الوصاية الدولية ، وقد دعمت هذه التوجه، بقرار من محكمة العدل الدولية. الا ان حكومة جنوب افريقيا العنصرية رفضت الامتثال لذلك. وقامت في عام ١٩٥٨ بمحاولة جديدة ، ولكن في هذه المرة من اجل الحصول على موافقة الامم المتحدة على تقسيم ناميبيا وذلك عن طريق ضم المناطق الجنوبية والوسطى ، وهي المناطق الغنية بمختلف الخامات ، الى جنوب افريقيا ، وتحويل المناطق الشمالية الفقيرة الى وصاية الامم المتحدة ولكن الجمعية العمومية رفضت هذه الخطـــة .

وقد عارضت الامم المتحدة ايضا خطط حكومة جنوب افريقيا لتطبيق نظام الابارتهايد في ناميبيا ، بما في ذلك قرارها بتقسيم ناميبيا الى مجموعة اوطان ـ (Homel andes) على اساس قبلي او عرقي. واتخذت الجمعية العمومية عام ١٩٦٦ قرارا بانهاء انتداب جنوب افريقيا على ناميبيا واخذت مسؤولية ذلك على عاتقها مباشرة الى حين استقلالها ، الا ان جنوب افريقيا تجاهلت هذا القرار، كما تجاهلت غيره من قرارات المنظمة الدولية لاحقا . وفي العام التالي ١٩٦٧ ، شكلت الجمعية العمومية مجلسا خاصا لادارة تلك البلاد ، وبناءا على رغبة سكان البلاد تم استبدال اسم جنوب غرب افريقيا بـ ناميبيا . وقد اكد مجلس الامن عام ١٩٦٩ على قرارات الجمعية العمومية واعلن بان استمرار تواجد جنوب افريقيا في ناميبيا هو غير شرعي . وقد دعى مجلس الامن كل الدول لزيادة دعمها المادى والمعنوى لنضال شعب ناميبيا ضد الاحتلال الاجنبي

Digitized by Birzeit University Library

ويقود النضال الوطني التحرري في ناميبيا " منظمة شعب جنوب غرب افريقيا " المعروفة باسم "سوابوا" (وهي الحروف الاولى في (South - West AfricanPeople'sOrganisation - SWAPO) التي تحظى بدعم وتأييد القوى الثورية والتقدمية في العالم منذ تاسيسها عام ١٩٦٠ . وقد تلقت سوابو دعما معنويا وسياسيا كبيرا من خلال قرار الجمعية العمومية للامم المتحدة عام ١٩٧٣ باعترافها بـ سوابو كممثل حقيقي اصيل ووحيد لشعب ناميبيا . وفي كانون ثاني ١٩٧٦ اتخذ مجلس الامن قراره رقم ٣٨٥ الذى وضع الاسس والشروط لاستقلال شعب ناميبيا، على اساس الغاء حكم جنوب افريقيا غير الشرعي للبلاد، وتنظيم انتخابات حرة تحت اشراف الامم المتحدة، واطلاق سراح جميع المعتقلين السياسيين الذين تحتجزهم جنوب افريقيا.

مولـــــد عمـــــلاق (١)

" عملاق قد ولد " بهذه الكلمات خاطب سيريل رامافوزا، السكرتير العام للإتحاد الوطني العام لعمال المناجم مؤتمر ديربان ـ " مؤتمر نقابات جنوب افريقيا" (Congress of south African Trade Unions - "COSATU")

في الجلسة الافتتاحية في الثلاثين من تشرين الثاني ١٩٨٥، حيث اجتمع ٩٠٠ مندوب يمثلون ٦٠٠،٠٠٠ منتسب (٤٥٠،٠٠٠ معدد) اعضاء في ٣٦ نقابة مختلفة تغطي تقريبا كافة قطاعات الاقتصاد الرئيسية.

وقد توجت هذه الخطوة عملا دؤوبا استغرق اربع سنوات من الحوار والمحادثات من اجل تشكيل مركز نقابي موحد يجمع النقابات المستقلة والنقابات الاعضاء في الجبهة الديموقراطية المتحدة .

لقد كانت المسألة الاساسية هي الوصول الى اتفاق على الاهداف والدستور والبنية التنظيمية.

وقد اتفقت كافة الاطراف منذ البداية على هدف تشكيل فدرالية شاملة . ولكن الاختلافات الايديولوجية والمصلحية كان لا بد من تسويتها قبل ان تتمكن النقابات المتحاورة من الوصول الى اتفاق .

وقد لعب نجاح الاضراب في الترانسفال في نوفمبر ١٩٨٤ دورا كبيرا في دفع عملية الوحدة الى الامام ، وذلك عندما شل المضربون قلب جنوب افريقيا الصناعي بشكل كامل لمدة يومين متتاليين، هذا العمل الذى احتاج لتضافر كافة الجهود ووحدة الموقف .

ولا شك بان تأسيس COSATU سيكون ذو اهمية تاريخية. فهو اكبر واقوى اتحاد نقابي عرفته جنوب افريقيا في تاريخها . وعلى الرغم ان غالبية المندوبين الـ ٩٠٠ هم من السود الا ان من بينهم عدد غير قليل من النقابيين البيض ـ لقد جاء المندوبون من كافة ارجاء جنوب افريقيا للاشتراك في تأسيس COSATU ، وهي خطوة بارزة في تاريخ الطبقة العاملة في البلاد .

Digitized by Birzeit University Library

الا ان النظام العنصري لجنوب افريقيا تجاهل كافة القرارات الصادرة سواء عن الجمعية العمومية او عن مجلس الامن. ويستند موقف التحدي هذا ، الى الدعم الكبير من الدوائر الامبريالية والامريكية بشكل خاص ، التي تبدي كل ما بوسعها للمحافظة على نظام بريتوريا العنصري ، وللمحافظة على مصالحها الاقتصادية في ناميبيا . حيث تسيطر الشركات متعددة الجنسية سيطرة مطلقة على الصناعة الاستخراجية في ناميبيا (٩). واهمها مناجم الالماس والاحجار الكريمة ومناجم اليورانيوم والنحاس والرصاص والفضة والزنك والليثيوم والقناديوم ، والكادميوم والمنغنيز وغيرها. وهذه هي الاسباب الحقيقية التي دعت الولايات المتحدة وبريطانيا لاستخدام حق النقض "الفيتو" في مجلس الامن عدة مرات لاحباط اتخاذ قرارات تتعلق بفرض عقوبات على جنوب افريقيا او فرض حظر على تصدير الاسلحة اليها ، او غير ذلك ، ان الدعم الامبريالي لنظام بريتوريا العنصري قد شجعه على الاستمرار في احتلال ناميبيا وادارة الظهر للقانون الدولي وتطبيق نظام الابارتهايد ، والاستمرار في سياسة عسكرة ناميبيا واقامة القواعد العسكرية والجوية على اراضيها . واتخاذها نقطة انطلاق لشن الهجمات العدوانية المتكررة على جاراتها وبشكل خاص على انغولا .

الا ان تنامي مقاومة شعب ناميبيا بقيادة سوابو وضغط الرأي العام العالمي قد دفع العنصريين للجوء الى مناورات الاستعمار الجديد. واساليبه. فتقدموا باقتراح لاقامة ز حكومة مؤقتة" على امل اقامة نظام " دمى" طيع في ايديهم . وبالرغم من رفض الامم المتحدة للاقتراح المذكور ورغم ارادة شعب ناميبيا ، قامت سلطات بريتوريا ، وبدعم غير مباشر من الدول الغربية الكبرى ، بتنظيم انتخابات صورية عام ١٩٧٨ لخلق جمعية تأسيسية حصل على كافة مقاعدها عناصر موالية لجنوب افريقيا وتمثل تحالف الشرائح العليا للقبائل الافريقية والحزب الوطني لجنوب افريقيا .

وقد رفض شعب ناميبيا "تزوير ارادته واستمر وتصاعد نضال سوابو من اجل الاستقلال والحرية كما ان الامم التحدة شجبت خطوات جنوب افريقيا واعتبرتها غير قانونية ولاغية ، وحددت في دورتها رقم ٣٣ لعام ١٩٧٩ بان " الحل العادل والدائم لقضية ناميبيا يمكن التوصل اليه فقط باشتراك سوابو المباشر ومن خلال تأمين حق شعب ناميبيا في تقرير المصير والاستقلال" واكد القرار على " شرعية نضال شعب ناميبيا بمختلف الطرق والوسائل المتوفرة لديه ضد احتلال جنوب افريقيا" ودعى كافة الدول" لتقديم اوسع مساعدة لسوابو من اجل مساعدتها على تصعيد نضالها لتحرير ناميبيا ".

الهوامـــــــش :

(١) P.S. Nyaneko "A Giant is Born" The African Communist # 105 1986, P. 25.

(٢) تأسس المؤتمر الوطني الافريقي (ANC) عام ١٩١٢ وفي مقدم اهدافه الاساسية كما حددها في دستوره هي" ضمان تصفية العنصرية والعداء القبلي ... وتشجيع التعاون المشترك والاحساس بالزمالة وروح الاخوة بين ابناء شعب البانتو ".

(٣) دان تلومي ـ "اللعبة القذرة لنظام بريتوريا" ، قضايا السلم والاشتراكية ،العدد٦ ١٩٨٦ ص٣٠

Digitized by Birzeit University Library

٤) جريدة الاتحاد الحيفاوية، ١٩٨٦/٨/١٩ نقلا عن وكالة تاس للانباء .
٥) دان تلومي ، ... ص ٣٢ .
٦) دان تلومي .. ص ٣٦
٧) لمراجعة النص الكامل للتقرير انظر

The African Communst No 105 , London , 1986, P.P. 86 - 92

٨) Anat Gromyko, Africa Today ; Progress, Difficulties, Perspectives VSSR Academy of Sciences Moscow ,1983, P.145

٩) لمزيد من التفاصيل حول الشركات متعددة الجنسية في ناميبيا راجع :

Singh ," Namibia ; No More Katvture" The African Communist # 84 , 1981 . P. 38 .

وكالـــة الا ستخبـــارات المركزيـــة الامريكيـــة

تستغـل الصحفيين فـي اعمالهـا السـوداء

نورد هنا بعض الحقائق عن تورط وكالة الاستخبارات المركزية الامريكية السي اى ايه) فياستغلال الصحفيين ووسائل الاعلام في اعمالها القذرة .

فقد اعترف وليم كولبي الرئيس السابق لوكالة الاستخبارات المركزية في حديث مع صحيفة " "واشنطن بوست" بأن الوكالة تستخدم الصحفيين الامريكيين على نطاق واسع فيّ الاغراض التجسسية . واضاف ان الصحفيين " ساعدونا كثيرا في جمع معلومات يصعف على سوءلين وفي دول اجنبية الحصول عليها ".

وذكرت مجلة " رولينغ ستاون" الامريكية بأن ما لا يقل عن ٤٠٠ من موظفي وسائل الاعلام البارزة مثل شركة "سي بي اس" التلفزيونية وصحيفة " نيويورك تايمز " ومجلتي " تايم " ونيويورك" نفذوا على مدى ٢٥ عاما المهام التي عهدت بها وكالة الاستخبارات المركزية اليهم . كما اعترفت صحيفة " نيويورك تايمز " بأن الوكالة استخدمت الصحفيين في مختلف الادوار بدءا من السعاه حتى الموظفين السريين الذين كانوا يوجهون عملاء آخرين في الاستخبارات ـ

ومما يذكر ان وكالات الاستخبارات الامبريالية تبدى اهتماما خاصا بوسائل الاعلام فمهنة الصحافة تشكل غطاءا مناسبا للجواسيس وتعطيهم امكانية السفر الى جميع انحاء العالم كما توءمن لهم مبرر مشروع للوصول الى مصادر المعلومات وتبسط اللقاءات مع الاشخاص الذين يريدون مقابلتهم .

وأشارت صحيفة " نيويورك تايمز " الواسعة الاطلاع ان اجهزةالدعايةالعالمية التابعة لوكالة الاستخبارات المركزية تشمل حوالي ٨٠٠ وكالة انباء ومنظمة صحفية وافراد

وتقدم الوكالة في بعض الحالات بتأسيس مجلة اووكالة انباء اومحطة اذاعة وتدفع كافة التكاليفمستغلة اسماءا وهمية مختلفة وفي حالات اخرى تقوم الوكالة بشراء صحيفة او دار نشر وقعت في ضائقة مالية. وتضيف "نيويورك تايمز" ومع ذلك تبقى الافضلية لدى وكالـــة الاستخبارات للاجسام الصحفية العاملة لان ذلك اقل كلفة واكثر مصداقية .

ماهل مجلة " يواس نيوز اند وورلد ريبورت " نيكولاس دانيلوف هو عميل لوكالة الاستخبارات المركزية الامريكية ؟ لماذا هذه الضجة ؟؟!

Digitized by Birzeit University Library

بيان براغ
٦ ايلول ١٩٨٦

اجتمعت في براغ في الفترة من ١ – ٩/٥ ١٩٨٦ وفود قيادية تمثل حركة التحرير الوطني الفلسطيني "فتح" والجبهة الديموقراطية لتحرير فلسطين والحزب الشيوعي الفلسطيني ودرست بروح المسؤولية الوطنية المخاطر الداهمة التي تتعرض لها القضية الوطنية للشعب الفلسطيني نتيجة اشتداد الهجمة الامريكية الاسرائيلية الرجعية الهادفة الى شطب منظمة التحرير الفلسطينية وتصفية دورها كممثل شرعي وحيد لشعبنا الفلسطيني بهدف تصفية حقوقه الوطنية الثابتة في العودة وتقرير المصير واقامة الدولة المستقلة وما تتطلبه مواجهة هذه الهجمة من خطوات عاجلة لترسيخ الوحدة بين جميع القوى الوطنية الفلسطينية في اطار منظمة التحرير الفلسطينية على اساس الالتزام ببرنامجها وخطها الوطني المناهض للامبريالية والصهيونية والحلول الاستسلامية .

واتفق المجتمعون ان المخطط الامريكي – الاسرائيلي بالتواطؤ مع بعض الحكام العرب ، قد بلغ مرحلة نوعية فائقة الخطورة على اثر لقاء ايفران الذى شجبته منظمة التحرير الفلسطينية وجميع قواها الوطنية الفلسطينية ، وفي اعقاب جولة نائب الرئيس الامريكي جورج بوش وما تلاها من تحركات امريكية محمومة تهدف الى بلورة اتفاق بين اسرائيل والدول العربية المعنية على صيغة تسوية تصفوية تتجاوز دور منظمة التحرير الفلسطينية بصفتها الممثل الشرعي الوحيد لشعبنا الفلسطيني وتتطاول على حقوقه الوطنية وتفتح الطريق لتعميم وتعريف مخطط كامب ديفيد .

في هذا السياق ابرز المجتمعون خطورة السياسة الاردنية التي تسعى لتجاوز منظمة التحرير الفلسطينية وتشجيع بعض العناصر الانهزامية على الخروج عن الاجماع الوطني الفلسطيني وتقديم المساندة المادية لها تحت ستار خطة التنمية المزعومة والتضييق على القوى الوطنية الملتزمة بمنظمة التحرير ومحاصرتها . ويترافق ذلك مع مخططات تطبيق التقاسم الوظيفي على الارض ، وتعيين رؤساء بلديات عرب محل الرؤساء الوطنيين المنتخبين . ومع الاجراءات الاسرائيلية الهادفة الى فرض خطة الادارة المدنية وتشديد القبضة القمعية ضد شعبنا وقواه ومؤسساته الوطنية .

وتأتي هذه الخطوات مترافقة مع الاغراءات الامريكية الكاذبة ونشاطات بعض الاوساط الرجعية العربية الهادفة الى اعادة ترويج الاوهام والامال الزائفة حول الحل الامريكي ، واكد المجتمعون ضرورة الحذر واليقظة من جانب جميع القوى الوطنية ازاء

Digitized by Birzeit University Library

هذه المحاولات الخبيثة. كما تترافق هذه الهجمة الشرسة ضد شعبنا الفلسطيني مع حملات التهديد والابتزاز التي تشنها الامبريالية الامريكية لفرض الهيمنة على منطقتنا العربية والتي كان من ابرز معالمها الاعتداءات والتهديدات الموجهة ضد ليبيا وسوريا وسائر البلدان العربية.

واكدت الاطراف المجتمعة ان الوحدة الوطنية هي السلاح الامضى بايدى شعبنا وثورته لمواجهة واحباط هذه الاخطار الجسيمة التي باتت تهدد مصيره ووجوده الوطني. واتفقت على ضرورة تعجيل المساعي الهادفة الى استعادة وحدة جميع الفصائل والقوى الوطنية في اطار منظمة التحرير الفلسطينية على الاسس والمبادىء التالية:

١) الالتزام بالبرنامج السياسي لمنظمة التحرير الفلسطينية وبقرارات المجالس الوطنية الفلسطينية التي كانت محصلة اجماع الفصائل والقوى والشخصيات الوطنية ورفض اى خروج عنها.

٢) تأكيد رفض الحلول المنفردة والجزئية. والمشاريع التصفوية كخطة كامب ديفيد ومشروع ريغن والحكم الذاتي والتقاسم الوظيفي، ورفض القرار ٢٤٢ باعتباره يتجاهل الحقوق الوطنية الثابتة للشعب الفلسطيني، والتأكيد على ان الحل الوحيد للقضية الفلسطينية يتمثل في تأمين حق العودة وتقرير المصير واقامة الدولة المستقلة على التراب الوطني الفلسطيني.

٣) العمل من اجل عقد المؤتمر الدولي للسلام في الشرق الاوسط ذى الصلاحيات الكاملة والفعالة والذى تشارك فيه منظمة التحرير الفلسطينية على اساس مستقل ومتكافىء مع سائر الاطراف باعتبارها الممثل الشرعي الوحيد للشعب الفلسطيني، وعلى اساس قرارات الامم المتحدة التي تعترف بالحقوق الوطنية الثابتة لشعبنا، وذلك باعتباره الاطار الوحيد للبحث عن حل عادل للقضية الفلسطينية وازمة الشرق الاوسط.

٤) التمسك بمنظمة التحرير الفلسطينية ممثلا شرعيا وحيدا لشعبنا الفلسطيني ومقاومة اية محاولة لاصطناع البدائل لها ورفض الانابة او التفويض او المشاركة في التمثيل الفلسطيني.

٥) وانطلاقا من التمسك بهذه الثوابت الوطنية فقد اكدت حركة فتح ان اتفاق عمان الموقع في ١١ شباط ١٩٨٥ لم يعد العمل به قائما وان هذا الاتفاق لم يعد يشكل اساسا لسياسة منظمة التحرير الفلسطينية ولتحركها وممارستها على مختلف الاصعدة الفلسطينية والعربية والدولية. وان العلاقات الثنائية بين منظمة التحرير الفلسطينية والاردن تقوم على اساس قرارات قمة الرباط ودعم نضال الثورة الفلسطينية ضد العدوان والاحتلال الاسرائيلي.

٦) تعزيز وحدة جميع القوى الوطنية داخل الاراض المحتلة في النضال ضد سياسة الاستيطان والقبضة الحديدية الاسرائيلية، ومخططات الحكم الذاتي والتقاسم الوظيفي، وضد التدخلات الاردنية الهادفة الى اصطناع البدائل الرجعية لمنظمة التحرير، ومن اجل دعم صمود شعبنا في الارض المحتلة ممثلا بقواه ومؤسساته الوطنية.

٧) تعزيز علاقات المنظمة مع جميع قوى حركة التحرر العربية على اساس التضامن النضالي المشترك ضد الامبريالية والصهيونية والحلول الاستسلامية.

Digitized by Birzeit University Library

٨) العمل على تعزيز التضامن العربي على قاعدة قرارات القسم العربية التي حظيت بالاجماع العربي. وعلى اساس حشد الطاقات لمواجهة العدوان الصهيوني ومخططات الهيمنة الامريكية.

٩) الحرص على العلاقة الاخوية مع سوريا انطلاقا من اهداف النضال القومي المشترك ضد الامبريالية والصهيونية وعلى قاعدة التضامن النضالي والتكافؤ والاحترام المتبادل.

١٠) توطيد علاقات التحالف مع قوى التحرر والتقدم العالمية. وخاصة الاتحاد السوفييتي وبقية البلدان الاشتراكية، وتوثيق العلاقات مع دول حركة عدم الانحياز والدول الاسلامية والافريقية لتعزيز دعمها للنضال العادل لشعبنا وحقوقه الوطنية.

١١) تطوير اوضاع منظمة التحرير الفلسطينية باعتبارها اطارا لجبهة وطنية عريضة وتشكيل هيئاتها القيادية وفق البنود التنظيمية لاتفاق عدن ـ الجزائر وبحيث تشارك جميع القوى الوطنية في رسم سياسة المنظمة ضمن مؤسساتها الشرعية وفي هيئاتها القيادية.

واتفقت الاطراف على ان التمسك بهذه الثوابت والاسس الوطنية يزيل العقبات التي تعرقل دفع عجلة الحوار الوطني لاستعادة الوحدة. وتتوجه الاطراف المجتمعة الى سائر الفصائل والقوى الوطنية الفلسطينية للارتفاع الى مستوى المسؤولية الوطنية والمباشرة في حوار وطني مفتوح لجميع الفصائل والقوى الوطنية من اجل التوصل الى اتفاق وطني شامل يكون اساسا لانعقاد دورة جديدة للمجلس الوطني الفلسطيني تستعاد فيها الوحدة في اطار منظمة التحرير الفلسطينية.

وفي هذا الاطار جددت الاطراف المجتمعة تأييدها وترحيبها بمبادرة الاخ الرئيس المناضل الشاذلي بن جديد للدعوة الى لقاء وطني فلسطيني على ارض الجزائر الشقيقة لاستعادة وترسيخ الوحدة الوطنية.

وعبرت الاطراف المجتمعة عن تقديرها وعن مشاعر الامتنان لدى جماهير شعبنا الفلسطيني للدعم والمساندة المبدئية النزيهة التي يقدمها الاتحاد السوفييتي الصديق وسائر البلدان الاشتراكية للنضال العادل لشعبنا من اجل حقوقه الوطنية. واكدت الاطراف تأييدها الحار للمبادرات التي تقوم بها الاتحاد السوفييتي لتأمين انعقاد المؤتمر الدولي للسلام في الشرق الاوسط لايجاد حل عادل للمسألة الفلسطينية يضمن الحقوق الوطنية الثابتة لشعبنا. كما عبر المجتمعون عن امتنانهم للموقف المبدئي للاصدقاء السوفييت الى جانب وحدة منظمة التحرير الفلسطينية ودعمهم للمساعي الهادفة الى تذليل الخلافات بين القوى الوطنية الفلسطينية وتعزيز وحدتها.

وقد توجه المجتمعون بالشكر والتقدير للحزب الشيوعي التشيكوسلوفاكي وللشعب التشيكوسلوفاكي الصديق لاحتضانهم هذا اللقاء وجهودهم من اجل الوحدة الوطنية الفلسطينية، وللموقف المبدئي والثابت لجمهورية تشيكوسلوفاكيا الاشتراكية في دعم ومساندة النضال العادل والمشروع للشعب الفلسطيني بقيادة منظمة التحرير الفلسطيني ممثله الشرعي والوحيد.

براغ في ٦ / ٩ / ١٩٨٦.

Digitized by Birzeit University Library

أزمة ثقافة أم أزمة حكم ؟!

بقلم : محمود امين العالم

في بداية قرننا هذا، وتحديدا في يوليه عام ١٩٠٢، صدرت في القاهرة رواية للمفكر الاديب فرح انطون بعنوان " العلم والدين والمال. نقول رواية تجاوزا او " على سبيل التساهل" كما يقول هو نفسه في المقدمة. فالرواية يغلب عليها الحوار الفلسفي الاجتماعي الذى يدور بين ممثلي مدن ثلاث هي مدينة الدين ومدينة العلم ومدينة المال. وهو حوار يحتدم الى حد الصدام الفاجع في النهاية. على انه يحتدم اساسا بين ارباب العمل من ناحية ، والعملية، اى العمال ـ من ناحية اخرى . وبين هاتين الطبقتين يقف فريق من العلماء (او ما يمكن ان نطلق عليهم بمصطلحاتنا الجديدة : المثقفين). وعندما ينهض ـ في البداية ـ ممثل العمال معبرا عن شكوى العمال من طمع ارباب العمل ومطالبا بمشاركة العمال في الارباح، ينهض ممثل ارباب العمل مفسرا شكوى العمال، بأنها نتيجة لتحريض عناصر من خارجهم قائلا : " اننا نحب عمالنا كما نحب اولادنا . كيف لا ، وهم من بعض الطامعين الذين يثيرون خواطرهم علينا . ويحرضون طبقتهم على طبقتنا . فلتفصل الحكومة العمال عن هؤلاء المحرضين فيستتب السلام بين الجميع . وقد يكون في كلام ممثل ارباب الاعمال تحريضا خفيا بالعلماء ـ المثقفين ـ باعتبارهم المحرضين للعمال. وهنا ينهض رجل من فريق العلماء، يفند هذه الحجة قائلا :" فلو رفعت يد الذين يسمونهم بالمحرضين فهل يتحقق السلام الذى يحقق للعمال .. راحتهم وسعتهم، ام يبقى سلامهم موتا ادبيا وماديا كسلام اهل القبور ؟" ثم يأخذ في مهاجمة رجال الدين متهما اياهم بأنهم يتزلفون للاغنياء واصحاب الاموال ويجارونهم في كل شيء حتى ما يخالف مبادئهم الدينية ويدجلون على الشعب "لينشغل بالاوهام والاحلام عن مصالحه الحقيقية ".

وحتى هذه اللحظة من الرواية، نستشعر تحالفا بين العلماء (المثقفين) والعمال ، وفي واجهتهما يتحالف رجال الاعمال ورجال الدين. وينتهي العمال في النهاية بتقديم مقترحات واضحة وحاسمة هي : ان تصبح المعامل والمصانع والمتاجر والمرافق والمنافع

Digitized by Birzeit University Library

ملكا لجميع الامة، وتتولى الامة ادارتها بنفسها وتوزع ارباحها بين ابنائها . اى ان الحكومة تصبح هي التاجر الوحيد الذى تنحصر في يده المتاجر والمصانع والمزارع . انها دعوة كما نرى الى الاشتراكية بحسب مفهوم فرح انطون للا شتراكية في ذلك الوقت المبكر . وهنا لا يلبث ان يدب خلاف بين العمال والعلماء وبوجه خاص ((العلماء المعتدلين)كما تقول الرواية، او بتعبير آخر يتم فرز فكرى طبقي بينهما . فيتقدم بعض هولاء العلماء بحل توفيقي بين الطرفين هو زيادة اجور العمال من ناحية وفرض ضريبة على ايراد اصحاب الاعمال من ناحية اخرى. ويتقدمون بتشريع لذلك. ويرفض العمال الاقتراح،ويشعرون ان بعض العلماء قد اخذ يتخلى عنهم. وفي الصباح يجد الناس جدران الشوارع قد امتلاء بشعارات مكتوبة بحروف غليظة تقول " الشعب المهذب يخون الشعب المسكين" والشعب المهذب هنا هم المثقفون والعلماء . ونقرأ تحت هذا الشعار منشورا تقول بعض فقراته " لقد خدعوكم وضحكوا عليكم . فلا تصدقوهم، ولاترضوا باقتراحاتهم .. ايها الاخوة ... هل تعرفون الذين خانوكم ؟ .. خانكم اولئك الذين يسمون انفسهم علماء معتدلين . وما دروا ان الاعتدال لا يحصل حقا ضائعا . يقولون انهم اهل العلم وانهم خرجوا من احشاء الشعب ولذلك يرومون خدمته ؟! .. فاخبروهم بأنكم في غنى عن خدمتهم اذا كانت على هذا المثال .. وخير لنا عدوانهم . انهم اقتدوا برؤساء الدين ، ومالوا لاصحاب الاموال ترويجا لمصالحهم واشباعا لبطونهم "

عذرا لعدم استكمال بقية احداث الرواية، وعذرا كذلك عن الاطالة في عرض بعض عناصرها .ولكنها قد تكون مدخلا طيبا لموضوعنا ــ فمن هذه العناصر التي ذكرناها يمكن ان نستخلص بعض الدلالات :

نلاحظ اولا ان الرواية لا تدين العلماء ـ المثقفين عامة، وانما " المعتدلين" منهم فقط فالعمال في مناقشتهم مع اصحاب الاعمال يقولون لهم بفخر واعتزاز " اذا كان لكم مفكرون وفلاسفة، فلنا نحن كذلك مفكرون وفلاسفة ويذكرون اسماء من اسماء فلاسفتهم هو على حد قولهم " الفيلسوف كارل ماركس" . وفضلا عن هذا ففرح انطون مؤلف الرواية هو مثقف ملتزم بقضايا الديموقراطية والتحرر والتقدم والفكر العلمي . وكانت مجلته " الجامعة" منذ ان صدرت عام ١٨٩٩ في مصر منبراً ثقافيّا تنويريّاً يعبّر عن انعطافه علمية جديدة في الفكر العربي الحديث . الرواية اذن لا تدين المثقفين عامة، وانما تدين تلك الفئة منهم التي توظف ثقافتها لخدمة اصحاب السلطة والمال ،وذلك بتمييع الصراع الاجتماعي. والرواية بهذا تعبر كذلك بشكل غير مباشر عن ان لكل طبقة مثقفيها المعبرين عن مصالحها، ولهذا فليست هناك ثقافة واحدة تعبر عن المجتمع ككل ،وانما هناك ثقافة تعبر عن مصالح السلطة او الفئات الحاكمة المتسلطة ، واخرى تعبر عن جماهير الشعب. وبتعبير آخر، ان للثقافة دلالة طبقية دون ان يتنافى هذا مع طابعها القومي العام .

على ان الرواية تكشف ثانيا عن ان المثقف قد ينبع من اصول شعبية ولكن ممارساته وتطلعاته قد تجعله موضوعيا ينتمي الى طبقة اخرى نقيضة للطبقة التي نشأ منها

Digitized by Birzeit University Library

ـ كما تكشف الرواية ـ بل حياة فرح انطون كلها ـ عن اهمية الثقافة وخطورتها في الصراع الاجتماعي . فالعمال في اليوم التالي مباشرة ،يوجهون منشورهم لا ضد اصحاب الاعمال مباشرة، وانما الى الخطر المباشر الذى يتهددهم وهو الافكار، المقترحات، التي قدمها " العلماء المعتدلون" ! فهذه الافكار والمقترحات هي الخطر الذى ينبغي مواجهته بحسم .

والنقطة الاخيرة التي يمكن استخلاصها من هذه الرواية هي ان السلطة قد تستخدم رجال الدين في تضليل الجماهير عن مصالحهم الحقيقية .

ما اكثر الدلالات الغنية الاخرى التي يمكن ان نتبينها في هذه الرواية الطليعية فكريا وان لم نقل فنيا . والحق ان قيمتها ليست مجرد قيمة تاريخية متقدمة في هذه المرحلة المبكرة من تاريخ الفكر العربي الحديث، بل اكاد اقول انها ما تزال تحتفظ بقيمتها المتقدمة فكريا حتى اليوم . فما اشد غفلة كثير من المفكرين العرب في قراءتهم للاوضاع الاجتماعية والثقافية الراهنة عن هذه الافكار التي نقرؤها في هذه الرواية التي ظهرت منذ اثنين وثمانين عاما !.

الثقافة بين مواقف ثلاثة:

ان كثيرا من المثقفين العرب عندما ينظرون للثقافة العربية الحديثة خاصة، ينظرون لها على نحو تجريدى اطلاقي الكتلة صماء واحدة متعالية فوق التاريخ المثالية فوق الملابسات والاوضاع الاجتماعية المختلفة . وهم بهذا اما يمجدونها جملة او يدينونها جملة. وكلا الموقفين يفضيان الى امر واحد هو الغفلة عن الحقيقة، عن التاريخ، فضلا عن الاغتراب والعجز عن الفعل الموضوعي المؤثر .

واكتفي بالاشارة الى ثلاثة نماذج متعارضة المثال الاول هو هذه الكراسات التي اصدرتها منظمة اليونسكو في السنوات الاخيرة حول الثقافة في العالم العربي، حيث تتناول كل كراسة بلدا عربيا واحدا ـ واضيف اليها الدراسة الضخمة التي صدرت عن " المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم " تحت عنوان " التقرير النهائي والتوصيات التي خرج بها اجتماع الخبراء الحكوميين حول السياسات الثقافية في البلاد العربية". لست انكر ما في هذه الكراسات وتلك الدراسة من جهود طيبة من اجل توصيف الوضع الثقافي في البلاد العربية، ومحاولة التخطيط الشامل لمشروعات ثقافية محلية وقومية. ولكن الثقافة العربية تبدو فيها كأنما هي مجرد مشروعات متناثرة وكيانات معلقة في فراغ خالية من اية دلالات اوتمايزات اجتماعية. وهي مجرد " استمرار ـ على حد تعبير تقرير اجتماع الخبراء الحكوميين ـ لما كان مستمرا على مر العصور من نمو وابداع وتطور". ولكن ماهي هذه الثقافة المستمرة في " نمو وابداع وتطور "؟ ما دلالتها ،ما وظيفتها ، ما هدفها ، ما اشكالياتها الراهنة ؟ لا شيء غير رؤية مجردة غائمة حول ضرورة الحفاظ على ذاتيتنا الحضارية في اطار لقاء سعيد بين الاصالة والحداثة كيف ؟ لا احد يعرف ! لا يهم ! فالمهم هوان نلوك الكلمات الكبيرة المنبعجة وان نستنيم اليها وان نستريح وترين ،طمأنينة مطمئنة على

Digitized by Birzeit University Library

مسيرتنا الثقافية المظفرة،وبالتالي على اوضاعنا القائمة السائدة، سواء في مستوى السلطة السياسية اومستوى البنية الاجتماعية.

وفي مواجهة هذا المثال المطمئن جدا، نلتقي بمثال آخر غير مطمئن جدا ـ لو صح التعبير ـ فهو نقيض لهذا المثال الاول، وان كان يلتقي مع هذا المثال الاول فينظرته الى الثقافة العربية نظرة مجردة متعالية، ويراها كتلة واحدة صماء، ويحكم عليها لهذا حكما واحدا مطلقا وان اختلف حكمه عن المثال الاول، ذلك انه يكاد يدين جملة ممارساتها وتعابيرها، ويكاد يدعو الى القطيعة المنهجية والابستمولوجية والايديولوجية معها، تجاوزا وتخطيا لها وانطلاقا الى بنية ثقافية جديدة تماما . لعلي اشير على وجه التحديد الى الشاعر ادونيس،والى كتابه"صدمة الحداثة" خاصة ،وهو الجزءالثالث من كتابه " الثابت والمتحول" . وهو دعوة الى القطيعة المطلقةمع الذاكرة التراثية عامة، فضلاعن ادانته لعصر النهضة ورفضه له جملة. ولعلي اشير كذلك الى المفكر المغربي عبدالله العروى وخاصة الى كتابه " الايديولوجية العربية المعاصرة"، ومغالاته فيالدعوة الى اجتثاثالفكر السلفي والتوفيقي الى حد " الرضى بأن نتميز عن الغير (والغير هنا هو الثقافة الغربية) بنبراتنا فقط لا بمضمون ما نقول رب معترض يقول: ستكون حينئذ ثقافتنا المعاصرة تابعة لثقافة الغير" . ويجيب العروى : " وليكن اذا كان ذلك طريق الخلاص "١.

ولعلي اكتفي بالاشارة اخيرا الى مفكر مغربي آخر هو محمد عابد الجابرى الذى يقرر في كتابه " الخطاب العربي المعاصر" : "ان زمن الفكر العربي الحديث والمعاصر زمن ميت او قابل لان يعامل كزمن ميت". وان " العقل العربي" قد فشل في بناء خطاب متسق حول اية قضية من القضايا التي ظلت تطرح نفسها طوال المائة سنة الماضية. فلم يستطيع تشييد ايديولوجية نهضوية يركن اليها على صعيد " الحلم" ولا بناء نظرية ثورية يسترشد بها على صعيد الممارسة والتغيير ". وهو يرى ان الفكر النهضوى العربي الحديث والمعاصر مثل الفكر الاسلامي في القرون الوسطى " عبارة عن قراءة او قراءات لفكر آخر وليس لتاريخه الخاص" وهو يتهم العقل العربي بالجمود بسبب " انه يركن دوما الى نموذج سلفي والى اعتماد القياس الفقهي (قياس الغائب على الشاهد) وتوظيف الايديولوجية للتغطية على النقص المعرفي، والتعامل مع الممكنات كمعطيات واقعية ".

وأشير اخيرا الى المثال الثالث في النظرة الى الثقافة العربية المعاصرة ، وهو على نقيض المثال السابق . اذ يرى ان ازمة ثقافتنا العربية الحديثة عامة، تكمن في تبعيتها للفكر الغربي ـ رأسماليا كان او اشتراكيا ـ وفي قطيعته مع اصالته التراثية . ولهذا فهو يدعو الى رفض الثقافة الغربية عامة، باستثناء منجزاتها التكنولوجية فحسب، والعودة الى التراث السلفي القديم عامة، والديني بوجه خاص، تأكيدا لخصوصيتنا وأصالتنا الحضارية القومية، واستلهامه مصدرا للابداع والتجديد في حياتنا السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية عامة . وتتنوع الاجتهادات وتتفاوت داخل هذا المثال الثالث ، فهناك الاتجاه السلفي المتزمت الذى ينظر الىالتاريخ نظرة تماثلية جامدة ويسعى لاتخاذ الماضي معيارا قيميا

Digitized by Birzeit University Library

وعمليا ثابتا لصياغة الحاضر والمستقبل، وهناك الاتجاه السلفي الجديد وهو اكثر واقعية وعقلانية. وان غلب عليه الطابع الوسطي والتوفيقي والانتقائي والتعصب القومي .

ولسنا هنا في مجال مناقشة هذه الامثلة الثلاث في الموقف من الثقافة، ولكن حسبي ان اقول بأنها تتناول الثقافة العربية تناولا تجريديا غير تاريخي، ينتزع الثقافة من سياقها الاجتماعي ولا يبصر بما تزخر به من صراعات وتناقضات واختلافات بحسب الملابسات الاجتماعية والتاريخية المختلفة .

ولهذا فاننا لا نستطيع القول بما يقول به المثال الاول من ان الثقافة العربية على ما يرام، وانه ليس في الامكان ابدع مما كان، ولا يبدو ما نحتاج اليه عن ان يكون مجرد مشروعات جزئية للاضافة والتحسين والتطوير. فهذا تسطيح وغفلة عن حقيقة واقعنا الثقافي.

ولسنا نستطيع الدعوة الى القطيعة المطلقة مع الذاكرة التراثية كما يدعو ادونيس حقا، ان كل مرحلة فكرية جديدة ينبغي ان تكون قطيعة مع المراحل السابقة ولكن هناك فارقا بين القول بالقطيعة المطلقة مع الذاكرة التراثية، وبين القطيعة الجدلية التي تعني الاستمرار الابداعي، والتواصل النقدي الخلاق تعبيرا عن ضرورات موضوعية وذاتية جديدة. ويكاد ادونيس يذكرني بالعصفور الذي اشار اليه الفيلسوف الالماني كانط في كتابه " نقد العقل المجرد"، هذا العصفور الذي كان يضرب الهواء بجناحيه كي يطير، ويتصور انه لو لم يكن هناك هواء لكان طيرانه اكثر يسرا وسهولة ! ولا يعرف انه لولا الهواء الذي يقاوم جناحيه لما استطاع ان يطير !!.

لا ابداع ثقافي بمعزل عن الذاكرة التراثية الحية، بفضلها وعلى الرغم منها في آن واحد

ولسنا نستطيع كذلك الموافقة على هذه الدعوة التي يدعو بها العروي الى ما يشبه التبعية للفكر الغربي، او على الحكم الاطلاقي المجرد الذي يسحبه الجابري على ما يسميه بالعقل العربي عامة. والغريب ان دعوة العروي وحكم الجابري يتناقضان مع ما تتسم به كتابات هذين المفكرين من عقلانية نقدية ومنهج تاريخي .

ولسنا نستطيع كذلك اقرار النزعة السلفية بشقيها المتزمت والجديد . فهي باسم الاصالة دعوة الى تجميد الحياة، والى العزلة عن خبرات العصر وحضارته، فضلا عن غفلتها عن الرؤية الموضوعية للواقع في مختلف ظواهره الصراعيـــة .

ان مشكلة هذه الاتجاهات الثقافية جميعا ــ على اختلافها ــ انها تعالج الثقافة معالجة مثالية متعالية، خالية من الرؤية الاجتماعية والتاريخية . وهي لهذا، ورغم ما قد يتوفر لذى القائلين بها من جدية ونوايا طيبة وتطلع للتغيير بل للتثوير، فانهم يسهمون بشكل او بآخر في تكريس واقعنا الثقافي الراهن، وبالتالي واقعنا السياسي والاجتماعي السائد. ولهذا يكثر بينهم الحديث عن ازمة ثقافية هي في الحقيقة ازمة مفهوم معين للثقافة، وازمة ثقافة معينة .

مـــا هـــي الثقافـــة:

وتأسيسا على هذا، قد يكون من الضروري ان نتأمل معنى الثقافة وحقيقة ازمتهـا .

وأحب ان اؤكد منذ البداية انه ليس

Digitized by Birzeit University Library

هناك ما يمكن ان نسميه فراغا ثقافيا لدى اى انسان اوفي اى مجتمع . فهناك ملاء ثقافي دائما ايا ما كانت قيمة هذا الملاءالثقافي او مستواه او دلالته الاجتماعية . فالناس جميعا وبغير استثناء مثقفون وان لم يمارسوا جميعا وظيفة المثقف في المجتمع ذلك ان لكل انسان ثقافته التيتتمثل في رؤيته الفكرية للعالم ، وسلوكه العملي والاجتماعي والوجداني فيه ، سواء كان واعيا بهذا او غير واع. ولهذا فهدف التثقيف احيانا قد يكون هو التفريغ الثقافي لا التثقيف . التفريغ الثقافي ـ نقديا ـ من اجل اعادة التثقيف . اى يكون التثقيف نقدا ونقضا وتغييرا للبنية الثقافية المسيطرة من اجل ارساء بنية ثقافية اخرى جديدة. مختلفة ولعلي اسوق في هذا الصددتجربة صغيرة لي في لقاء مع احدى الفلاحين منذ سنوات بعيدة. كان فلاحا فصيحا بحق ، راح في اول لقاء بيننا يمتحنني في كل شيء ، منحركة الافلاك حتى ادق المشاكل والهموم الانسانية. وكانت اجابتي دائما تخيب ظنه . ذلك انه كان يملك اجابات جاهزة يغلب عليها الطابع الاسطوري السحري او الديني ، على حين كانت اجاباتي باردة جافة برودة وجفاف العلم ، وفي النهاية سألني الفلاح الفصيح الطيب : جل لي يا سي الافندى ... ايه معنى كلمة سلامات ؟ قلت له معناها يا عم جمعة التحية والامان . فضحك عم جمعه من اجابتي الساذجة وقال : شوف يا سي محمود ("سلا" ده كان صله ملك ظالم جوى جوى. الناس بتخافه وبتهابه. جام الملك سلا ده مات . الناس فرحت وخرجت تجول لبعضها سلامات. سلا مات). وهنا وجدت فرصتي للحديث لاول مرة ـ فقلت لعم جمعة : وهوه الملك الظالم مات خلاص يا عم جمعة ، يعني الظلم مات خلاص يا عم جمعة ؟ فرد على عم جمعة قائلا : الظلم مالي البلد يا سي محمود ، فقلت له : يعني سلا لسه ما متش ؟! قال : هه!؟ فقلت له : لو كان سلا يا عم جمعة اسم ملك ظالم صحيح ، كان لازم الناس لما تتقابل تقول لبعضيها : سلا.. لسه ما متش ، سلا ... لازم يموت" وهز عم جمعة رأسه وهكذا وجدت ثغرة ادخل منها الى بنيته الثقافيةكلها ، لنبدأ معا حديثا سياسيا اجتماعيا جديدا .

اردت ان اقول ببساطة ، ان لكل انسان رؤيته الثقافية التي تتجسد في تصوراته وفي سلوكه العملي ومواقفهالاجتماعية . وهذه الرؤية الثقافية رغم طابعها الشخصي الذاتي ليست مجرد رؤية شخصية ذاتية صنعها الانسان لنفسه بنفسه ، مهما كانت عبقريته الفردية ، او مهما كانت مشاركته الابداعية في اغنائها ،وانما قد امتص هذه الثقافة من الحقل المعرفي الاجتماعي الذى يعيشه ، فضلا عن موقعه الاجتماعيوممارساته وخبراته الحياتية في مجتمعه الخاص وعصره عامة، ان تفسير عم جمعة لتعبير "سلامات" هوجزء من بنية ثقافية تعبر عن ايديولوجية طبقية معين بشرط حركتهم سلبا او ايجابا وفضلا عن هذا فالثقافة لا تقتصر ـ كما يظن احيانا ـ على التعابير والمنجزات والمفاهيم والقيم الادبية والفنية والفكرية والعلمية فحسب . وانما تشمل كل المضامين الفكرية والوجدانية والتذوقية في مختلف مجالات السلوك السياسي والاقتصادى والاجتماعي ، وهي بهذا المعنى جزء من البنية الايديولوجية الاجتماعية العامة التي هي اكثر شمولا وتجريدا . ولهذا فالثقافة

Digitized by Birzeit University Library

كبنية ايديولوجية تتغلغل كقوة فاعلة في مختلف انسجة المجتمع وهياكله السياسية والاقتصادية والاجتماعية والادارية والتنظيمية عامة، على انها في الوقت نفسه هي نتيجة لهذه الانسجة والهياكل وافراز منها .

وليس التمييز بين ما يسمى بالبنية الفوقية الايديولوجية والبنية التحتية الاقتصادية الا مجرد تمييز وظيفي ، فالبنيتان متداخلتان متفاعلتان ، ويشاركان معا بانتاجهما ، في اعادة انتاج علاقات الانتاج السائدة، ففي كل مشروع سياسي او اقتصادي او اجتماعي مفاهيم وتصورات وقيم ثقافية هي القوة المحركة للمشروع ، وهي في الوقت نفسه ثمرة من ثمرات المشروع المنفذ نفسه . على انه في كل مجتمع ،لا نجد بنية ثقافية ايديولوجية واحدة وانما هناك البنية المعبرة عن الطبقة او تحالف الطبقات الاجتماعية السائدة، وهناك بنية اخرى معارضة متناقضة مع تلك البنية السائدة . وهذا هو التعبير عن الصراع الطبقي في المجال الثقافي والايديولوجي عامة. وكما ان لكل سلطة ايديولوجيتها ومثقفيها ، فهناك كذلك ايديولوجيون للسلطة المضادة التي يرهص بها الصراع الطبقي المحتدم. معنى هذا ، ان الثقافة ليست عملية محايدة، حتى وان بدت كذلك في الظاهر . انها معركة صراعية حادة. وان تكن خافتة في قلب العملية الاجتماعية ، معركة صراعية بين رؤيتين ثقافيتين . فهناك ثقافة " الملاط " (الاسمنت) التي تسعى لتوحيد وتنميط المفاهيم والتصورات والقيم تجميدا وتكريسا للاوضاع السائدة المعبرة عن مصالح الطبقة او التحالف الطبقي الحاكم ، انها ثقافة اصطياد الانسان ، التي تتخذ احيانا شكلا جهيرا صارخا شرسا ، في الرقابة على الصحف والكتب والتعابير الفنية ومصادرتها وفصل المثقفين من اعمالهم واعتقالهم وسجنهم ، بل تصفيتهم جسديا ، وهناك ثقافة التوعية العقلانية والتغيير والتجديد والتثوير التي تسعى لتأسيس رؤية سياسية واقتصادية واجتماعية جديدة هي وعي مناضل متطلع الى واقع انساني جديد اكثر حرية وعدالة وابداعا وانتاجا وسعادة .

وقد يكون من التبسيط المخل قصر الصراع في المجتمع بين ثقافتين ، فما اكثر ما في المجتمع الواحد وخاصة مجتمعاتنا العربية من ثقافات متعددة وذلك لتعدد الابنية والهياكل الاقتصادية والاجتماعية بل والقومية احيانا والطائفية احيانا اخرى مما يعقد الصراع الفكري داخل السلطة الواحدة نفسها بين الفئات المتحالفة فيها وانعكاسا للصراع الدائر في المجتمع . على انه في جميع الاحوال هناك ثقافة سائدة مهيمنة تعبيرا عن الفئات الاجتماعية السائدة المهيمنة وتكريسا لهذه السيادة والهيمنة . وعندما نقول بان الثقافة تعبر عن الفئات الاجتماعية السائدة لا نقصد بذلك انها تعبر التعبير المباشر الفج عنها ، ولا نقصد مجرد الدعاية الشعارية للسلطة ، فللثقافة وللفكر عامة، رغم تعبيرهما عن الواقع الاجتماعي ، قوانينهما ومنطقهما الخاص المستقل نسبيا ، وانما نقصد الجوهر الفكري العام الذي يسهم بشكل غير مباشر في انتاج واعادة انتاج علاقات الانتاج السائدة وعلاقات القوى المهيمنة .

الثقافة والواقع :

اذا كانت هذه هي الملامح العامة لمفهوم

Digitized by Birzeit University Library

الثقافة فما هي حقيقة ازمتها ؟ ان الازمة بشكل عام هي حالة اختلال للعلاقة الوظيفية بين مكونات ومقومات بنية معينة . فالازمة الاقتصادية هي اختلال العلاقة بين الانتاج والاستهلاك ، والازمة الصحية هي اختلال العلاقات الوظيفية بين عضو او اعضاء في الجسم الانساني وعضو او اعضاء اخرى. وهكذا فما حقيقة الازمة الثقافية؟ ولكن .. اية ثقافة نعني على ضوء ما سبق ان تعرضنا له ؟ ازمة الثقافة الرسمية والعربية السائدة المعبرة عن النظم السياسية المهيمنة، ازمة الثقافة الناهضة لهذه الثقافة ولهذه النظم المهيمنة؟ ازمة مثقفي السلطات الرسمية العربية وايديولوجييها ام ازمة ثقافية المعارضة والرفض والثورة وازمة مثقفيها ؟.

لو صح مفهوم الثقافة الذى تعرضا له من قبل ، الا يحسن بنا ان نبدأ اولا بتأمل الواقع الذى تعبر عنه هذه الثقافة، قبل ان نتحدث عن هذه الثقافة نفسها ؟ او بتعبير آخر ، ان نبحث في حقيقة الازمة في الواقع العربي نفسه قبل ان نبحث عنها في الثقافة المعبرة عن هذا الواقع ؟!

لسنا هنا في معرض دراسة تفصيلية تحليلية للواقع العربي عامة والمصرى خاصة وتحديد ملامح ازمته. وانما نكتفي ببعض الاحكام الوصفية العامة، تاركين هذا التفصيل والتحليل لمقالات هذا الكتاب الاول من " "قضايا فكريـــة ".

ولهذا نكتفي بالقول بأن بلادنا العربية منذ القرن التاسع عشر حتى اليوم تعاني ازمة تبعية شاملة للمشروع الرأسمالي العالمي في مختلف ابنيتها وهياكلها السياسية والاقتصادية والاجتماعية . ان هذا لا ينفي محاولات وجهود ونضالات بطولية شتى لمحاولة الخروج من هذه التبعية، بذلك طوال هذا التاريخ. الا انه في الواقع الراهن ، وخاصة ابتداء من السبعينات من هذا القرن، بعد ضرب المشروع الناصرى القومي التقدمي ، وقيام الثورة الساداتية المضادة، اخذت تتعمق هذه التبعية وتستشرى لا مصريا فحسب بل عربيا كذلك هذا هو جوهر ازمة واقعنا العربي . انها ازمة التبعية للتقسيم الدولي للعمل ، للرأسمالية الاحتكارية العالمية، اى للامبريالية العالمية وعلى رأسها الولايات المتحدة الامريكية. على انها ليست مجرد ازمة مفروضة من الخارج فحسب ، بل هي ازمة الابنية والهياكل الاساسية والاقتصاديـــة والاجتماعية الداخلية التي تكرس هذه التبعية وتتكرس بها. او فلنقل بموضوعية كاملة، انها ازمة الطبيعة الطبقية الاجتماعية لانظمة الحكم العربيـــة .

ومن هذه الازمة تنبع كذلك ازمتنا الثقافية فليست ازمة الفكر العربي نتيجة لسيادة بنية قياسية فقهية كما يقول الجابرى او بنية سلفية كما يقول ادونيس ، او توفيقية ثنائية لا تاريخية كما يقول العروى او اغترابية فاقدة للاصالة القومية والتراثية كما يقول السلفيون، هذه قد تكون بعض السمات في تجليات وممارسات الثقافة العربية السائدة نختلف او نتفق في تقييمها . ولكنها ليست جوهر الازمة او سببا لها . ان الازمة الثقافية مشروطة ومرتبطة بأزمة الواقع العربي، ازمة تبعيته للامبريالية العالمية. ولكن من واجبنا ان نعود الى تساؤلنا السابق : ازمة اية ثقافة؟ فلقد سبق ان اشرنا الى ان هناك اكثر من ثقافة متصارعة في المجتمع الواحد، الثقافة السائدة

Digitized by Birzeit University Library

المعبرة عن الفئات الاجتماعية السائدة، والثقافة المناهضة التي تسعى للسيادة تعبيرا عن ارادة تغيير البنية السياسية والاجتماعية القائمة . فأى الثقافتين هي الثقافة المأزومة؟ وأسارع بالقول : كلاهما ... وان اختلفت طبيعة الازمة وحدودها في كل منهما ولنعرض اولا لازمة الثقافة الرسمية .

أزمة الثقافة الرسمية :

تنبع هذه الازمة في تقديرى من اختلال العلاقة بين السياسات المعلنة وبين الممارسات العملية. كما تنبع من التناقض بين هذه الممارسات العملية، كما تنبع من التناقض بين هذه السياسات والممارسات وبين ما يحتدم به الواقع العربي من احتياجات وضرورات موضوعية ملحة للتغيير والتجديد والتطوير، وهذا يعرض انظمة الحكم لفقدان مصداقيتها وبالتالي لفقدان سيطرتها السياسية والاجتماعية ولهذا تتصدى هذه الانظمة لخطر فقدان مصداقيتها بأمور ثلاثة : القمع الايديولوجي، والقمع الادارى، والاغراء او الاغراق المالي . اما القمع الايديولوجي فانه يتخذ اكثر من مظهر ولست اغالي ان قلت ان التفاوت في محو الامية في العالم العربي ليس امرا اعتباطيا . بل هو هدف من اهداف هذا القمع الايديولوجي . ولكن ما اكثر مظاهر القمع الايديولوجي الاخرى من مسعى لتنميط الفكر وتسطيحه بالتعصب الديني، والتعصب القومي واثارة النعرات الطائفية واشاعة اللا عقلانية والفكر الاسطورى غير العلمي وتسييد روح الاستهلاك والاستمتاع بغير انتاج او ابداع ، فضلا عن اشاعة روح اليأس وعدم الاكتراث والقدرية والتسليم والنفعية الفردية والابتذال

هذه بعض مظاهر الثقافة التي تسعى الانظمة العربية لتسييدها واشاعتها وتغذية الجماهير بها لمواجهة ازمة مصداقيتها السياسية والاقتصادية والايديولوجية. وهي تستخدم لتحقيق ذلك مختلف وسائل الاعلام والتعليم والثقافة، من اذاعة وتلفزيون وسينما ومسرح ومدرسة وكتاب الى غير ذلك . انها محاولة لاشاعة الوعي الزائف لتغطية زيف الانظمة نفسها واخفاء تبعيتها وتخلفها عن خدمة مصالح الجماهير ان لم نقل خيانتها لهذه المصالح.. وفي قلب هذا الوعي الزائف او في قلب عملية تزييف الوعي يتحقق ما يسمى بالغزو الثقافي الامريكي الصهيوني . فالغزو الثقافي ليس عملية خارجية فحسب كما يقال ، وانما هو كالتبعية السياسية والاقتصادية جزء من العملية الاجتماعية الايديولوجية الداخلية كذلك بل هو وجه من اوجه هذه التبعية نفسها . انه استنبات واستحضار لكل القيم والتصورات الاغترابية المعادية لروح العقلانية والديموقراطية والنقد والابداع، والمتناقضة مع مبادئ وقيم ثورتنا العربية، ثورة التحرر والتقدم والوحدة القومية الديموقراطية .

على ان انظمة الحكم العربية لا تكتفي بالقمع الايديولوجي وانما تسنده دائما بالقمع الادارى. بالرقابة على الكلمة المكتوبة والمنطوقة ، بمصادرة الافكار وسجن المثقفين وتعذيبهم وقتلهم ، بحرمان الجماهير من تشكيل منظماتهم السياسية والنقابية والمهنية بحرية، ومن المشاركة مشاركة ديموقراطية في القرار السياسي والاجتماعي الذى يمس

Digitized by Birzeit University Library

حياتهم ومستقبل بلادهم .

والى جانب القمع الايديولوجي والقمع الاداري هناك الاغراء او الاغراق المالي ، اى اغراء المثقفين وشراء كتاباتهم وتشويه ضمائرهم بالدولار النفطي . انها لمصادفة موضوعية مؤسفة ان ارتبطت الثروة النفطية العربية بأشد الاوضاع الاجتماعية تخلفا واشد الانظمة السياسية رجعية وتبعية . وهكذا تنتشر ثقافة التخلف والرجعية والتبعية بانتشار هذه الثروة النفطية . فكم من بلايين الدولارات تصرف في مجال الاعلام خاصة من اجل فرض واشاعة هذه الثقافة التي تتزيا بأحدث الاساليب التكنولوجية الاعلامية وتستكتب ابرز والمع الكتاب والصحفيين العرب .

ولعلي اكتفي هنا بالاشارة الى تلك الجرائد والمجلات النفطية التي تبدأ صفحتها الاولى باسم الله ، وكلها كفر وطني واجتماعي وتبعية سافرة او مقنعة للامبريالية الامريكية ، وتواطؤ مع المخطط الامريكي ـ الصهيوني .

وهكذا بالقمع الايديولوجي والاداري والاغراء المالي تسعى انظمة الحكم العربية الى تغطية ازمة مصداقيتها الايديولوجية والسياسية ، أزمة تناقضها مع ما يفرضه الواقع العربي من ضرورات للتغيير والتجديد والتطوير ، او بتعبير محدد من ضروورات الخروج من التبعية للمشروع الرأسمالي الاحتكاري الامبريالي العالمي ، وبناء المشروع العربي الاستقلالي التقدمـــي .

على ان الذى لا شك فيه ، وبغير تفاؤل عاطفي ، ان ازمة المصداقية الايديولوجية للانظمة العربية تزداد تفاقما . ذلك انها اذا كانت تخفي تبعيتها الاقتصادية بل والسياسية برطانات ايديولوجية تزعم بها الاستقلالية القومية والخصوصية الحضارية والتراثية ، فان سلوكها العلمي ازاء ابرز قضايانا القومية الملحة مثل قضية لبنان وفلسطين والموقف من التوسعية والعدوانية الاسرائيلية والامريكية ، يفضح هذه الرطانات ويكشف تواطؤها وتبعيتها ويضاعف من ازمة مصداقيتها الايديولوجية . ولكننا لا نستطيع ان ننكر كذلك ان الايديولوجية الرسمية ما تزال تؤثر ـ ان لم نقل تسيطر على ـ عقول اغلبية جماهير الامة العربية ، اغلبية " الشعب المسكين" على حد تعبير فرح انطون . فما يزال الوعي الزائف يعمي كثيرا من العقول والقلوب والعيون . وما اكثر ما تستعين الانظمة العربية بمفكرين ومثقفين كأبواق للتضليل والخديعة ، بعضهم عن اقتناع صادر عن وعي زائف ورؤية اجتماعية ضيقة قاصرة ، وبعضهم عن تبريرية ومصلحية وانتهازية رخيصة .

على ان الامر لا يقف للاسف عند هذا الحد ، وانما يتعداه الى ما تحاوله وتنجح فيه احيانا المؤسسات الامريكية من جرجرة بعض مثقفينا الى دراسات وابحاث وبعثات ظاهرها العلم وباطنها محاولة الاحتواء الثقافي والمالي او التعرف على حقائق واقعنا من مصادره العلمية ، او على الاقل ، ربط هؤلاء المثقفين بهم وابعادهم عن الانشغال بهموم امتهم وعن الانخراط الواعي المسؤول في انشطتها الوطنية والتقدمية .

هذا عن ازمة الثقافات الرسمية .

فماذا عن ازمة الثقافة التقدمية المناهضة لهذه الثقافات الرسمية ؟

أزمـة الثقافـة التقدميـة :

ان ازمة هذه الثقافة تختلف في طبيعتها عن ازمة الثقافة الرسمية . فهذه الثقافة لا

Digitized by Birzeit University Library

تصدر تعبيرا او تكريساللتبعية والتخلف ، وانما تصدر عن رفض لهماوسعي للتوعية الشاملة من اجل القضاء عليهما وتجاوزهما الى واقع آخر متحرر متقدم موحد ديموقراطي . الا ان هذا الرفض وهذه التوعية يقف فيوجهها ، وبحد من تأثيرها امور اربعة :

لعل اولها واهونها على ما فيه من قسوة ، هو العنف الاداري الذى يتعرض له المثقف التقدمي العربي ، والذى يمتد من حرمانه من كلمته الى تجويعه والى دفعه الى الجنون او الى السجن بل الى حرمانه من الحياة نفسها وقد يكون من الطبيعي في غمرة الصراع الاجتماعي ان يعاني المثقف هذه المعاناة في سبل قول الحقيقة والاسهام في تغيير الحياة وتجديدها . على ان الامر لا يقف عند معاناة المثقف نفسه وانما ما تعانيه كلمته نفسها نتيجة لذلك من قيود على انتشارها وفاعليتها

على ان ثاني هذه الامور هو عزلة المثقف المصرى والعربي بشكل عام عن الجماهير الشعبية وهو بهذا يسهم هونفسه في تقييد انطلاق كلمته وانتشارها وفاعليتها . على ان الامر لا يقف عند حرمان الجماهير من الوعي الذى يتيحه لها معرفتها وتذوقها لمنجزات المثقف التقدمي ، وانما يمتد الى حرمان المثقف التقدمي نفسه من الاحساس بحيوية الواقع الجماهيرى مما يسقطه في كثير من الاحيان في تجريدات بل شطحات استعلائية لا تتسق ولا تتفق مع احتياجات واقعنا العيني المحـــدد .

فما اكثر ما نتبين في كتابات وابداع بعض مثقفينا الذين لانشك في وطنيتهم وتقدميتهم لجوءا الى الابهام والاستغلاق ، ولا اقول بمجرد الغموض ، باسم التجديد والحداثة . وهو في الحقيقة اقرب الى الاغتراب بل الى الهروب الى الامام المستحيل الذى لا يختلف كثيرا عن الهروب الى الماضيالسحيق !

وما اكثر ما نتبين كذلك جمودا في تطبيق بعض المفاهيم والتصورات والخبرات الانسانية التقدمية والثورية في غير مراعاة لخصائص واقعنا العيني الملموس ، وما اكثر الاكتفاء بمعرفة المفاهيم التقدمية والثورية والتشدق بها والغفلة او التعالي عن الحقائق البسيطة والاحتياجات الملحة للواقع الحي . ان التعالي الثقافي التجريدى وتالية النصوص والرؤية غير التاريخية وغير الموضوعية للواقع وفقدان روح النقد والنقد الذاتي والديموقراطية وعدم احترام حرية الاجتهادات الفكرية المختلفة واغفال الخصوصية باسم النظرة الكلية ، او طمس النظرة الكلية باسم الخصوصية هي كذلك بعض السلبيات التي يصاب بها الفكر التقدمي ، وتفقده الايجابية والفاعلية .

اما الامر الثالث فهو ان الثقافة وان تكن سلاحا في النضال الوطني والطبقي ، ومصباحا للتنوير الاجتماعي والتاريخي ، الا انها ليست مجرد اداة اجرائية ، ليست مجرد وسيلة لغاية ، وانما الى جانب ذلك هي غاية في نفسها . ليست هذه دعوة الى الثقافة من اجل الثقافة ، وانما هي حرص على الارتفاع بالثقافة عن ان تكون مجرد كتابة لمناسبات ، اوخدمة لتكتيكات مؤقتة ، دون ان يعني هذا تجاهلا اواغفالا ـ في الوقت نفسه ـ للدور الضرورى الايجابي الاتي للثقافة في كل لحظة من اللحظات . ومن هنا تنبع ازمة خاصة من ازمات الثقافة التقدمية ـ كيف تخدم الثقافة التقدمية اللحظة الراهنة في غير تسطح او

Digitized by Birzeit University Library

ابتذال او ديماغوجية، وتكون في الوقت نفسه رؤية ابداعية عميقة للانسان وللحياة ؟!.

ما احوجنا للفكر المناضل المباشر، ولكن ما احوجنا كذلك الى ما يمكن ان نسميه بالصناعة الثقيلة في مجال الفكر والثقافة، اى ما احوجنا الى الفكر النظرى الذى يمتلك واقعنا امتلاكا نظريا ووجدانيا بدرجة عالية من الابداع والعمق، دون ان يفرض علينا هذا ان نتخلى عن الواجبات الملحة للحظة الانية ان المثقف العربي التقدمي ممزق في كثير من الاحيان بين اشكالية واجبات اللحظة الانية ومتطلبات الدراسة المعمقة المستأنية والتأصيل الابداعي !.

اما الامر الرابع والاخير فهو انعدام الوحدة بين المثقفين التقدميين العرب . ولست اعني هنا وحدة الفكر، بل وحدة النضال الثقافي العملي، فالثقافة العربية التقدمية تمتلئ باجتهادات متنوعة من فكر ديني عقلاني مستنير، الى فكر قومي موضوعي، الى فكر ماركسي متمرس وعيا ونضالا، الى فكر وطني ديموقراطي عام ذى خبرة عملية حية. ولاحد يطلب الغاء هذه الاختلافات الفكرية او التغافل عنها وتجاهلها . فانها جميعا تشكل خصوبة في الفكر العربي، وتعبر عن قوى وطنية واجتماعية مختلفة وخبرات متنوعة. على ان هذه القوى باجتهاداتها وخبراتها ما تزال مفككة، معزولة عن بعضها البعض، بل مفتتة احيانا في داخلها بل قد تنشغل في كثيرمن الاحيان بالصراع فيما بينها اكثر من الصراع على جبهة ثقافية موحدة ضدالعدو المشترك للثورة العربية. ولا شك ان الصراع الفكرى واجب لتنمية الفكر نفسه . ولكن الصراع الفكرى ينبغي ان يخضع لاولويات وضرورات النضال السياسي والاجتماعي العام والا اصبح فوضى وتمزقا .

هذه بعض سمات ازمة الثقافة التقدمية وهي كما رأينا لا تمس اساسا مضمون هذه الثقافة بل تمس فحسب قضايا ذات طابع تنظيمي ومنهجي في ممارساتها .

أزمة حكم :

ولهذا يمكن القول بأن الازمة الثقافية الحقيقية انما تعانيها اساسا الثقافات الرسمية انعكاسا وتعبيرا عنازمة الواقع العربي نفسه، وان هذه الازمة تتحمل مسؤوليتها انظمة الحكم العربية اساسا . ان الازمة اذن ليست مجرد ازمة ثقافية، بل هي في الجوهر ازمة حكم هي مصدر كل الازمات الاخرى التي يعانيها واقعنا العربي بمستويات واشكال يعانيها واقعنا العربي بمستويات واشكال مختلفة .

ولهذا فان كل محاولة للبحث عن مخرج من ازمة الواقع العربي او من مأزقه ـ كما يقال هذه الايام ـ بالدعوة الى الوحدة القومية، او الى مجرد التضامن العملي العربي ضد العدوان والتوسع الاسرائيلي، اوالى اشاعة الديموقراطية، او الى الخروج من التبعية للامبريالية العالمية عامة والامريكية خاصة، سوف تصطدم دائما بانظمة الحكم المهيمنة وبطبيعة انتماءاتها ومصالحها الطبقية، او بالاحرى، سوف تصدمها وتقف في طريقها هذه الانظمة !.

ان السمكة تفسد من رأسها كما يقال، وكذلك المجتمع الانساني ..

Digitized by Birzeit University Library

ولعل هذا يفسر مختلف المحاولات الايديولوجية والديماغوجية لاخفاء وطمس حقيقة الدولة وطبيعتها . فهي بحسب هذه المحاولات مجرد سلطة محايدة فوق الطبقات ، خادمة للمجتمع ككل ،ومعبرة عن الصالح العام لجميع فئاته بغير استثناء او تحيز ! او هي سلطة اسطورية غامضة بل مقدسة احيانا فرأسها هو ظل الله على الارض ! او هي مجرد افراد موظفين شتى يقومون بمختلف الخدمات دون رابط طبقي يحدد قسماتهم او سلوكهم ! او هي الحكومة التي تتغير السياسات والممارسات بتغيرها ! الى غير ذلك . وتزداد هذه المحاولات الايديولوجية والديماغوجية بالنسبة للبلاد المستقلة حديثا ، او المتخلفة او التي تسمى ببلدان العالم الثالث ، وخاصة تلك التي لم تتبلور فيها بعدبلورة واضحة الفئات والهياكل الاجتماعية والطبقية .

ولهذا ، فان الوعي بحقيقة الدولة وطبيعتها وازالة الاوهام وفضح الزيف حول مفهومها مهمة محورية في اية دعوة سياسية او اقتصادية او اجتماعية او ثقافية .

كلمـــة اخيـــرة ...

ولهذا كله كان اختيارنا لموضوع " الدولة" ليكون الموضوع الاول في المشروع الفكري الذي تسعى سلسلة كتب " قضايا فكرية" الى تحقيقه من اجل تأصيل العقلانية والديموقراطية والابداع في حياتنا وثقافتنا وفي ممارساتنا النظرية والنضالية عامة .

ولسنا نزعم اننا سنقول في هذا الموضوع او غيره من الموضوعات التي ستتصدى لها قضايا فكرية " مستقبلا ـ الكلمة الفصل ، النهائية ، او نزعم اننا نحتكر الحقيقة وحدنا .

ان مسعانا وهدفنا ان نجعل من " قضايا فكرية" منبرا ديموقراطيا حقا ، لمختلف الاجتهادات الفكرية في اطار الرؤية العلمية للهموم السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية التي يحتدم بها واقعنا المصري والعربي وعصرنا الراهن عامة ، وان نسهم بهذا مع مختلف القوى الوطنية والديموقراطية والتقدمية في الارتفاع بمستوى الحوار الدائر في فكرنا العربي الراهن ، وفي الارتفاع كذلك بواقعنا المصري والعربي نفسه من ازمة تخلفه وتبعيته .

هذا هو مسعانا وهدفنا .. وهي مسؤولية نتحمل القيام بها باعتزاز وجدية .

ولكنها كذلك .. مسؤولية المثقفين الوطنيين الديموقراطيين والتقدميين جميعا .

افتتاحية الكتاب الاول من " قضايا فكرية"

عن مجلة النهج

Digitized by Birzeit University Library

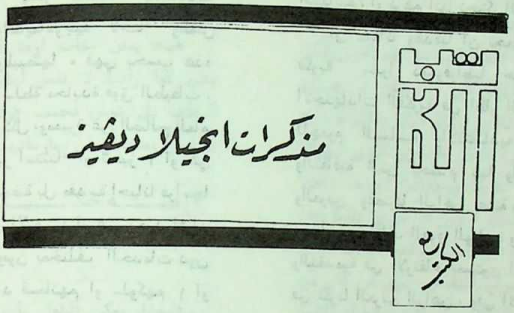

انجيلا ديفيز، صورة حية للشباب والثورة والامل ، للمناضلة والمثقفة ،في الحزب الشيوعي الامريكي وفي الجامعة، ضد العنصرية والاحتكارات ونهجها السياسي الذى لا يحمل غير الدمار للعالم .

وقد اصبح اسم انجيلا ديفيز معروفا على نطاق العالم كله، حين نظمت معها في مطلع السبعينات اوسع حملة تضامن للمطالبة بانقاذ حياتها، حينما قامت " العدالة" الامريكية بالزج بها في السجن وهددتها بالاعدام بغرفة الغاز، لقد نجحت تلك الحملة التي قل مثيلها في انقاذ حياة هذه المناضلة الشيوعية الشابة، التي كتبت فيما بعد مذكراتها. حيث صدرت في كتاب ترجم للعديد من اللغات ، بينها اللغة العربية .

في هذه المذكرات تلقي الكاتبة الاضواء على نشأتها وحياتها وتطورها الفكرى والسياسي الذى قادها للالتزام بالماركسية ومن ثم للانضمام الى الحزب الشيوعي، وتشكل المذكرات وثيقة ادانة للسياسة العنصرية للولايات المتحدة الامريكية، داخل امريكا نفسها ، وتفضح بشكل ساطع حقيقة وجوهر"الديموقراطية" الامريكية المزعومة .

تل الديناميت .. ذكريات من الطفولة

نشأت انجيلا ديفيز في جنوب الولايات المتحدة، في بيرمنغهام، في ولاية الاباما، حيث العنصرية والتفرقة ضد السود هي القانون السائد." في الرابعة من عمرى ادركت ان الناس الذين يعيشون في الطرف الاخر من الشارع يختلفون عنا، ولم ادرك ان السبب في ذلك هو لون البشرة ".

" اصبح الشارع الرئيسي هو خط الحدود بيننا وقال البيض لنا : ان تجرأتم وعبرتم

Digitized by Birzeit University Library

الى الحي الشرقي فان الحرب ستعلن وتشتد .

" كانت امسية من امسيات ربيع عام ١٩٤٩، عندما سمعت صوت انفجار كبير. استمر حديث الرجال والنسوة في تلك الليلة عن الموت، الحقد، الناس ذوى البشرة البيضاء ،اناس اخرون يموتون، ومع ذلك يستمر السود في الانتقال الى الحي الاخر دون خوف . كانت الانفجارات التي تهز منازلنا جراء البيض على تلك الخطوات، وسرعان ما عرفت المنطقة باسم " تل الديناميت ".

" عندما انتقل الى التل عدد مناسب من العوائل السوداء اصبح لي عدد من الاصدقاء والصديقات، بدأنا في تلك المرحلة تقوية الصلب دفاعنا الوحيد وهو الكلمات "، وفي محاولة للدفاع عن كرامتنا، كنا نحن الصغار نقف في الطريق في انتظار مرور سيارة الناس البيض كي نشتمهم بأسوأ الكلمات ونضحك بعد ذلك بشكل هستيـــرى ".

" كنا مرغمين ،نحن الصغار، على اتخاذ مواقف عدائية تجاه عالم البيض، لقد كانوا سببا رئيسيا لحرماننا من الاشياء التي نتمناها ايضا نشعر بالغيرة منهم ونحن نراقبهم يخطون كافة الاماكن المسليّة التي يحرم علينا دخولها. ومع مرور الايام لم استطع منع نفسي من ان انظر اليهم في حسد، ومع كل تلك الاحاسيس كنت اتمنى ان امارس شيئا من التوفيق ما بين احلامي ومبادئي ، كنت اتخيل نفسي فتاة بيضاء ، وتطوف بي الاحلام في الصارع، دور السينما والحدائق ، ثم اكتشف الخطأ في تلك الاحـــلام ".

" في فترة المراهقة ، تذكرت تلك الاحلام وأردت تحويلها الى حقيقة ملموسة، كنت اتقفى فانيا، نسير يوما في بيرمنغهام عندما خطرت لي فكرة مفاجئة: سنتظاهر بكوننا من الاجانب، نتحدث بالفرنسية ثم نتوجه الى مخزن للاحذية، ومشهد فتاتين تتحدثان بالفرنسية جعل موظفي المخزن يهرعون لمساعدتنا. وبدلا من توجيهنا نحو مؤخرة المخزن حيث يجلس السود عادة ، دعينا بكل احترام الى الجلوس على مقاعد القسم الامامي من المخزن. ادعيت عدم معرفتي للانكليزية وبدأت فانيا تتحدث بلغة انكليزية ركيكة. وازداد حماس الموظفين لنا، طلبوا استدعاء المدير الذى سيكون قادرا على تفهم طلباتنا بشكل افضل، كان منظر المدير مسليّا، قال وابتسامة عملاقة تطغى على ملامحه " والان ماذا استطيع ان افعله لكن ايتها السيدات الصغيرات الحلوات ؟" ثم سألنا عن بلادنا والغاية التي جئنا من اجلها الى الولايات المتحدة الامريكية والى بيرمنغهام بالذات . وقد تطلب الجواب من شقيقتي جهدا كبيرا. وبعد محاولات عديدة علم المدير اننا قدمنا من جزر المارتينيك في جولة سياحية للبلاد .

قال وعيناه تبرقان: " اوه من الامور النادرة ان نلتقي بأمثالكن". اما الزبائن البيض فقد دهشوا لوجود فتاتين سوداوتين في القسم الخاص بالبيض، لكنهم عندما سمعوا فرنسيتنا ابدوا اهتماما شديدا بنا واعربوا عن رغبتهم في التعرف الينا . وأخيرا وعندما طالت اللعبة، قررت انهاءها . نظرنا الى وجه المدير الغبي وانفجرنا في الضحك .

قال بخشية :" هل هناك ما يضحك ؟".

فجأة تحدثت معه بالانجليزية واخبرته بحقيقة الامر :" كل ما على السود ان يفعلوا كي يلاقوا الاحترام هو التظاهر بكونهم من

Digitized by Birzeit University Library

الاجانب ".

نهضنا من مقاعدنا ، غادرنا المكان ونحن ما نزال نضحـــك ".

فـــي نيويورك : بدايات الوعـــي

حين بلغت انجيلا الخامسة عشر من عمرها فكرت في الحصول على زمالة دراسية في نيويورك ."بدأت احلم بنيويورك وبعالم ثقافي جديد .. وبالرغم من مخاوف والد ي في ارسالي الى المدينة الكبيرة فقد استطعت اقناعهما بمقدرتي على مواجهة كافة الظروف والدفاع عن نفسي ضد مخاطر المدينة ".

" نحو الافضل او نحو الاسوأ ، لم ادر ، لم استطع معرفة ذلك وانا في القطار المتوجه نحو نيويورك ، وفي كل محطة كان القطار يتوقف فيها ، كنت افتقد تدريجيا المناظر الطبيعية المألوفة بالنسبة لي . عندما وصل القطار مدينة واشنطن ، اصبحت فجأة ، محاطة بالغرباء وغربة الناس البيض" .

" كنت وكأنني اصبحت شخصين في آن واحد ، مرة اتطلع الى الماضي ــ القسوة ، الخوف وحبي لعائلتي ، ثم اتطلع الى المستقبل ــ مستقبل متوهج بالتحديات "".

" مع دراستي لمادة الاشتراكية في دروس التاريخ ، بدأت احس وكأن عالما جديدا قد انفتح امام عيني . وللمرة الاولى تعرفت الى امكانية قيام مجتمع اقتصادي اشتراكي . في تلك الفترة لم اكن قد ادركت بعد معنى الاشتراكية العلمية ، حاولت تفهم تجارب اليوتوبيا الاشتراكية . كنت مأخوذة باولئك الناس الذين يعزلون انفسهم في مجاميع صغيرة من اجل بناء مجتمع اشتراكي انساني .

ربما كان اتجاهي الرومانسي هو دافعي الى الانبهار باليوتوبيا الاشتراكية ".

" اما تأثير البيان الشيوعي على فكان أشبه بضربة صاعقة . قرأته بامعان ووجدت فيه أجوبة لاشياء كثيرة كنت حائرة ازاءها ، قرأته مرارا وتكرارا بالرغم من عدم ادراكي لمعنى بعض مقاطعه . كنت اتحمس لامكانية حدوث ثورة اشتراكية في البلاد . وبدأت انظر الى مشاكل السود ضمن المشاكل الكبرى للطبقة العاملة" وبقراءتي للبيان الشيوعي سقطت الغشاوة عن عيني وبدأت اضع كل شيء في مكانه الطبيعي : العينان المثقلتان بالكراهية في تل الديناميت ، هدير المتفجرات ، الخوف من البنادق المخفاة ، النسوة السود النائحات ، اطفال بلا طعام ، الاماكن الخلفية في الباص الخاصة بالسود ، واتضح لي ان ما كنت اظنه حقدا شخصيا من جانبي وتعصبا من البيض في الجنوب ضدنا ، لا يعدو كونه نتاجا من نتاجات نظام فاسد يتشبث بالبقاء بتشجيعه لمشاعر البغضاء والحقد بين طرف وآخـــر ".

" وحركت كلمات البيان الاخيرة لدى رغبة عارمة للانضمام الى الحركة الشيوعية ؛ (يزدري الشيوعيون اخفاء افكارهم واهدافهم . وهم يعلنون بصراحة انهم لا يستطيعون تحقيق غاياتهم الا من خلال الاطاحة بكل الظروف الاجتماعية السائدة . ليس لدى البروليتاريا ما تخسره سوى قيودها ، وتربح من وراء ذلك عالما بأسره ! يا عمال العالم اتحدوا !) . وبالصدفة في فترة قراءتي للبيان الشيوعي ، دعيت من قبل احدى الصديقات لحضور اجتماعات منظمة للشباب تعرف باسم " ادفانس" ، وهي منظمة ماركسية

Digitized by Birzeit University Library

ـ لينينية ، ذات علاقة ودية مع الحزب .

وكانت المنظمة تشارك في كافة تظاهرات السلام وفي التظاهرات المطالبة بالحقوق المدنية للسود في الجنـــوب ".

• المشـاركة في مهرجان الشبيبـة العالميـة الثامـن .

بعد الانتقال للجامعة لم تستطع انجيلا الاندماج في جو الحركة الطلابية." حيث كان الانزال النفسي والطبيعي فيها امرا محكما. بحثت في صعوبة بالغة عن الطلاب السود المبتدئين حتى استطعت اكتشاف اثنين منهم"

" كنت اتراسل مع فلوماسون" احدى صديقاتي في مدرسة اليزابيث ايروين" بانتظام . قررنا سوية الاشتراك في مهرجان الشبيبة العالمي الثامن الذى كان سينعقد في هلسنكي، فنلندا . امضيت بقية العام في العمل من اجل توفير نفقات الرحلة. كنت اعمل في المكتبة وفي مطعم الجامعة ووجدت لي عملا اضافيا في احد مقاهي والتام. بسبب العمل المتواصل ، تقلصت حدود حياتي الاجتماعية ".

" عندما وصلنا فنلندا ، كان المهرجان قد اوشك على الافتتاح. ضم مهرجان الشباب العالمي برنامجا ثقافيا كبيرا واحتفالات لنصرة الشعوب في افريقيا ، اميركا اللاتينية، آسيا والشرق الاوسط. وكان من ابرز معطيات المهرجان في نظري ، التقائي شخصيا بوفود شباب العالم وتبادل وجهات النظر معهم .

الوفود، بل احتوى ايضا نشاطات هائلة لعملاء سي.اى.ايه. الذين انبثوا في كل مكان وخاصة بين اعضاء الوفد الامريكي (اعترفت الوكالة بالامر فيما بعد)، وقد شمل نشاط اولئك العملاء اختطاف احد اعضاء وفد المانيا الديموقراطية اضافة الى تفجيرهم لعدد من القنابـل .

" بعد ان عدت الى الولايات المتحدة الامريكية وجدت تحقيقا للمخابرات في انتظاري: ماذا كنت تفعلين في مهرجان الشبيبة الشيوعي؟. كان العميل يريد ان يعرف : الا تعرفين مشاعرنا نحو الشيوعية؟ الا تعرفين كيف نتعامل نحن مع الشيوعيين ".

• مواصلة الدراسة في فرنسا والمانيا

بعد ذلك حولت انجيلا دراستها الى فرنسا ، وبعد الانتهاء من دورة اللغة الفرنسية انتقلت الى جامعة السوربون في باريس.

" يلف السوربون على الدوام ، غموض مثير يدفع الطلاب غالبا الى الصمت. استفدت من ذلك الصمت ، كرست قراءاتي للادب المعاصر. المسرح الفرنسي المعاصر، الرواية الفرنسية، الشعر والنظريات. وفي نهاية العام ، كنت قد شاهدت كافة المسرحيات الفرنسيـــة ".

" بالرغم من انني كنت على وشك استلام شهادة في الادب الفرنسي ، فانني كنت راغبة حقا في دراسة الفلسفة. لم اكن ادرك تماما غايتي ، لكنني كنت اشعر بالراحة والامان لدى قراءتي لما يقوله الاخرون عن اشياء ثابتة: الكون ،التاريخ ،الكائنات البشرية او المعرفة".

" كنت راغبة في الدراسة في معهد الدراسات الاشتراكية / جامعة فرانكفورت. كانت لغتي الالمانية محدودة. وفي خلال

Digitized by Birzeit University Library

العام الاخير في براندیس، قررت تقديم طلب للحصول على زمالة دراسية لدراسة الفلسفة في جامعة فرانكفورت ".

" في موسم الربيع الاول الذى امضيته في المانيا، نظمت رحلة لكافة طلاب الزمالات لزيارة طرفي المانيا . امضيت غالبية الزمن المخصص للرحلة في برلين عاصمة المانيا الديموقراطية . في خلال تلك الفترةتعرفت على عدد من الاصدقاء الالمان والكوبيين. في فرانكفورت ايضا عقدت صداقات متعددة مع الطلبة الاجانب. وفي الجامعة اشتركت في تظاهرات عديدة استنكارا للاعتداءات الامريكية على فيتنام. وتأثرت حقا بمدىوعي الحركة الطلابية في فرانكفورت وفي سائر ارجاء المانيا . كان الطلاب والعمال يشاركون في تظاهرات كبيرة احتجاجا علىسياسةحكومتهم"

" كلما اشتد النضال في وطني، ازددت حزنا لابتعادى عن التجربة . كنت اتقدم في دراساتي وازداد فهما بالنسبة للفلسفة. لكنني مع ذلك كنت اشعر بعزلة متزايدة مع مرور الايام. كنت بعيدة عن مسرح النضال الى الحد الذى لم استطع فيه تحليل مراحله. لم تكن لدى معلومات كافية لتمييز التيارات التقدمية الحقيقية عن غيرها . ويوما بعد آخر بدأت ادرك عدم مقدرتي على انهاء دراستي في فرانكفورت. كان النضال عصب حياتنا وأملنا الوحيد في البقاء. لقد اتخذت قراري وانتهت الرحلـــة ".

• الطريـــق الـــى الحـــزب :

بعد عودتها الى الوطن تنقلت انجيلا في العمل بين المنظمات والتجمعات اليسارية المدافعة عن حقوق السود . غير انه كان لديها شعور بأن ذلك غير كاف .

" لم تكن الصورة بالنسبة لي (مجرد شيء اعمله) قبل الاستقرار النهائي. ولم تكن السياسة بالنسبة لي ناديا عصريا ارتاده بحثا عن اسلوب حياة جديد للحياة الاجتماعية فالثورة شيء جاد . وعندما يقرر المرء النضال ،عليه ان يهبه جل حياته ".

" عندما اقترب عام ١٩٦٨، ادركت مدى حاجتي الى الانضمام لمنظمة معينة. فالقفز من نشاط الى آخر لا يمت الى الثورة بصلة. العمل الثورى الجاد يتطلب جهودا متواصلة ومنظمة ومرتبطة ايضا بجهود الاخرين. وبما انني كنت اعتبرنفسي ماركسية، فان الاختيار امامي كان محدودا . لذلك بدأت في التفكير في الانضمام الى الحزب الشيوعي وناقشت الامر مرات عديدة مع عدد من الاصدقاء .

" منذ ايام دراستي الاعدادية ومنذ حضورى مهرجان الشبيبة العالمي الثامن عام ١٩٦٢، لم اجر اتصالات مع اعضاء الحزب الشيوعي، وبدلا من ذلك كنت على اتصال بالجماعات الماركسية الاخرى. وفيما بعد، لما بدأت استعيد تلك الايام التي امضيتها في اوروبا ، ادركت مدى تأثرى العميق بالافكار المناوئة للشيوعية والتي كانت قد تسربت الى " الحركات اليسارية الاوروبية ".

وبعد عمل طويل في حركة تحرير السود، تعرفت انجيلا على الشيوعيين وتأثرت بأسلوبهم في العمل اشد التأثيـــر .

" بدأت محاولاتي للحصول على المعلومات التي كنت في حاجة اليها ، من اجل اتخاذ قرار حاسم لحسم موضوع انتمائي الى الحزب الشيوعي. وفي تلك المرحلة من

Digitized by Birzeit University Library

حياتي ونشاطي السياسي ، كنت اتوق اكثر من اي وقت آخر ، لان اكون جزءا من حزب ثورى جاد. كنت في حاجة الى قاعدة والى رفاق اشاركهم ايديولوجية واحدة. لقد سئمت المجموعات التي تنقسم على بعضها لدى مواجهتها لاية مشكلة بسيطة. كانت المعركة المطلوبة، هي التي تشارك فيها جماهير الشعب والطبقة العاملة بشكل عام ، وكنت اعلم بأن هذه المعركة يجب ان تكون بقيادة حزب له قوامه التنظيمي والفكرى .

وفي تلك الفترة اعدت قراءة كتاب لينين (ما العمل؟) . وقد ساعدني الكتاب في توضيح موقفي. كنت في انتظار الانضمام للحزب الشيوعي ، وفي تموز ١٩٦٨ اصبحت عضوة فيه. وبعد تلك الخطوة عدت الى الجامعة للاستعداد لامتحان شهادة P.H.D وعندما نجحت في الامتحان ، اصبحت مساعدة مدرس في قسم الفلسفة .

رونالد ريغان .. كان هناك !

بعد عودتها من كوبا ــ ضمن وفد حزبي انجيلا ان عميلا للاستخبارات قد قام بنشر مقالتي جريدة الجامعة عن قيام قسم الفلسفة باستخدام فتاة شيوعية للتدريس. كما ظهرت مقالة اخرى في صحيفة " سان فرانسيسكو الكرونيكل" لم اكن بالنسبة لكاتبها عضوة في الحزب الشيوعي فقط ، وانما قال ان لديه معلومات عن قيامي بتهريب الاسلحة لحزب الفهود السود ".

" عندما قرأت تلك المقالات التافهة، ضحكت ولكني مع ذلك احسست بمدى خطورة موقفي. تأكدت ظنوني لدى معرفتي ان الهيئة العليا للجامعة برئاسة حاكم الولاية رونالد ريغان (الرئيس الامريكي الحالي) قد اعطت تعليمات لمجلس ادارة جامعة لوس انجلوس باستجوابي صراحة فيما اذا كنت عضوة في الحزب ام لا .

" عندما وافقت على العمل في جامعة لوس انجلوس، كنت قد نسيت تعليمات كراس ريجينت الجامعي الصادر في عام ١٩٤٩ والذى يمنع استخدام الشيوعيين. وكانت تلك الفقرة غير الدستورية قد ازيلت من الكراس ولكنها بعثت اخيرا من قبل رونالد ريغان وجماعته من اجل منعي من التدريس في الجامعـــة .

" تعهد الرفاق باعداد حملة في المجتمع الاسود في لوس انجلوس حول حقي في التدريس. اشترك في الحملة ايضا الرفاق البيض. اما في الجامعة، فقد حمل الراية كل من اتحاد الطلبة السود ومنظمة الاساتذة السود ، كما اصر رئيس قسم الفلسفة على رفضه لمبدأ تلقي الاوامر من الخارج .

" كان المسرح معدا للمعركة. وكانت الخطوة الاولى قيامي بالاجابة على الرسالة التي وجهتها اليّ الجامعة والتي تضمنت استفسارا عن صحة انتمائي الى الحزب. توقع الكثيرون ان التجئ الى التعديل الخامس وأرفض بموجبه الاجابة على السؤال كي لا ادين نفسي. لقد بدأوا الهجوم ، وسأرد بمثله اجبت على السؤال بتأكيد عضويتي للحزب الشيوعي واعلنت احتجاجي الشديد لتوجيه مثل هذا السؤال الي . كما اوضحت لهم عن استعدادى لدخول معركة مكشوفة معهم كشيوعية " كان رد فعل رسالتي اعلانهم عن النية

Digitized by Birzeit University Library

في فصلي. وتحمس لذلك الامر كافة الرجعيين والعنصريين واعداء الشيوعية في البلاد. انهالت رسائل التهديد على قسم الفلسفة ومكتب الحزب الشيوعي. واضطررت من اجل المحافظة على سلامتي الى تغيير الكثير من عاداتي اليومية. غير اننا في النهاية حققنا فوزا في المحكمة : عدم جواز طردي من الوظيفة لاسباب سياسيـــة ".

• جورج جاكسون : الحبيـــب ـ السجيـــن :

وتخصص انجيلا القسم الاخير من الفصل الرابع من مذكراتها للاسباب المباشرة التي جعلت الشرطة تطاردها ثم تعتقلها وتقدمها للمحاكمة وهي مهددة بالاعدام .

فقد تبنى الحزب الشيوعي قضية الدفاع عن ثلاثة من السجناء السود كانوا مهددين بالموت بسبب اتهامهم زيفا بقتل حارس السجن اثناء مشادة عنيفة حدثت في سجن سوليداد بين السجناء البيض والسود . بين هؤلاء السجناء الثلاثة المتهمين جورج جاكسون الذي نشأت بينه وبين انجيلا خلال حملة الدفاع عنه وعن زميليه علاقة حـــب :

" ازدادت اتصالاتي مع جورج وانتظمت اكثر من ذي قبل. كنا نختلف او نتفق حول عدد المسائل السياسية. وقد تطورت الفة خاصة بيننا . وفي رسائله التي تناول الجزء الاكبر منها موضوعات مثل : الحاجة الى نشر الافكار الشيوعية بين الجماهير السوداء الحاجة الى تطوير حركة السجون، دور النساء في المعركة. الخ . في تلك الرسائل ، تحدث جورج ايضا عن نفسه ، حياته السابقة ، امنياته الخاصة وطموحاته، افكاره عن المرأة وشعوره تجاهـي ".

" لقد اصبحت كثيرا التفكير بالمرأة مؤخرا ـ هكذا كتب لي مرة ـ ، : هل هي ظاهرة عاطفية ام انها بادرة خاطئة ؟".

" بدأت اتعرف على جورج ، لامن خلال الرسائل التي كنا نتبادلها فحسب، بل ايضا من خلال الناس الذين كانوا على صلة وثيقة به ـ من خلال افراد اسرته، ومن خلال جون ثورن والذي كان دائم الاتصال به بحكم كونه محاميا عنه. وكلما ازددت اقترابا من جورج، وجدت نفسي اكشف جانبا من خفايا نفسي لاصدقائه المقربين. وفي الرسائل استطعت الوصول اليه، ابديت استجابتي لا بالنسبة للمسائل السياسية التي طرحها ، بل اخبرته ايضا عن ازدياد عمق عواطفي نحوه وتجاوزها احاسيس العمل السياسي، لقد شعرت بعاطفة شخصية نحوه ".

وفيما كانت حملة الدفاع عن جورج وزميليه في ذروتها ، وكان دور انجيلا الشخصي في الحملة اساسيا، حتى اعيد طرح موضوع تدريسها في الجامعة مجددا بأمر شخصي من رونالد ريغان ـ حاكم الولاية ! وقد افضت مناقشة ذلك الموضوع من جانب اللجنة المختصة الى قرار بانهاء التعاقد مع انجيلا ديفيز كأستاذة في الجامعة" لان احاديثها السياسية خارج الصف المدرسي لا تتناسب مع عملها كاستاذة جامعية"!.

• تمـــرد ... فـي المحكمـــة :

اثناء محاكمة جورج جاكسون ورفيقيه حدث ما لم يكن متوقعا ، فقد قام الشقيق الاصغر لجورج باشهار السلاح على القاضي، بعد ان

Digitized by Birzeit University Library

انتاده ـ بالاشتراك مع بعض زملائه ـ الى خارج القاعـــة :

ـ " اقتيد القاضي والبندقية ملتصقة في عنقه ،كما اقتيد المدعي العام وعدد من المحلفين الى سيارة في الخارج. اطلق الحراس النار على السيارة . ثم انطلق وابل من النيران عليها. وعندما تبدد الدخان ، وقع الجميع مقتل جميع ركابها او اصابتهم بجروح على الاقل بسبب كثافة النيران. قتل القاضي ، اصيب المدعي العام".. وكذلك قتل جون شقيق جورج جاكسون .

لقد كان جون في السابعة من عمره حينما قبض على اخيه جورج قبل عشر سنوات لم ير ه خلالها الا لماما. وتقدم انجيلا تحليلا مكثفا رائعا للظروف النفسية الصعبة التي جعلته يعب جام غضبه على المحكمة التي كانت تنظر في قضية اخيه :

" سرق المجتمع منه طفولته بعد ان وضعوا شقيقه وراء القضبان عندما اصبح قادرا على التفكير والتذكر" .

" ان السابعة هي السن التي يلعب فيها غالبية الاطفال بمسدسات بلاستيكية حمراء برائة تقذف الماء عندما يضغط عليها . ولكنه في السابعة ادرك ان المسدسات هي كبيرة الحجم في حقيقتها ورمادية اللون وانه عندما يتم سحبهامن حزام حارس السجن ويضغط على زنادها لا تقذف دفقا عذبا من الماء. انما تقذف الطلقات النارية التي تجلب دفقات من الدم والموت. دون سن السابعة التقى جون بجورج في خلال زيارات السجن لهم، رأى اخاه يعيش مع حقيقة الموت ، كل ساعة وكل دقيقة .

" في خلال الاشهر القليلة لصداقتنا ، لا اعتقد انني قد ادركت كم كان شقيا بسبب خيبة ويأس العشرة اعوام الماضية، بسبب العجز الرهيب امام الجدران والقضبان والمسدسات وقاعات المحاكم تلك التي كان يترأسها قضاة بيض متحاملون ".

لقد اصبحت انجيلا مطاردة بسبب اتهامها في التمرد الذى حدث في المحكمة. وتوارت عن الانظار، غير ان الشرطة قبضت عليهاوهي متنكرة في فندق مغمور في نيويورك ، حيث تنقلت من سجن ولاية الى سجن ولاية اخرى خلال ثمانية عشر شهرا قبل تقديمها للمحاكمة بتهمة القتل ، الاختطاف والتآمر. وفي الصفحات الكثيرة المكرسة للفترة الطويلة التي قضتها في السجن تقدم الكاتبة صورا مروعة عن ظروف السجون في " بلد الحرية".

• "الخنازيـر" .. قتلـوه .. !

وفترة وجودها في السجن صدمت انجيلا بحادث اليم في ٢١ اغسطس ١٩٧١ :

" لم ادر كم من الساعات انقضت وانا مستلقيةعلى السرير الحديدى في الزنزانة، احدق في السقف وافكار شتى تتصارع في ذهني بوحشية. كان الوقت متأخرا عندما عادتالمشرفة لتقول: " السيد مور في انتظارك" سرت خلفها. ولما انتهينا الى نهاية الرواق ، رأيت ماركريت وهوارد في انتظارى امام زنزانة العمل. كانت عينا ماركريت حمراوين ومنتفختين وعلامات يأس مرتسمة على وجهها . وكان العرق يتصبب بغزارة من هواردوالتجاعيد تملأ كل جبهته، وأنفاسه تتصاعد بقوة، وكأن التعب قد نال منه تماما. نظرت اليهما وانا احس بشيء ما

Digitized by Birzeit University Library

يتسلل مني. جلسنا في الزنزانة المغلقة علينا والهدوء يلفنا . كنت في خلال الساعات المنصرمة الاخيرة احاول مقاومة الافكار التي تتزاحم في ذهني عن احتمال حدوث انفجار ما في سان كوينتين . كنت اصرخ في داخلي : " لا تدعوا ذلك الشيء يحدث بجورج" كلما صرخت الاصوات في داخلي، كلما اخبرتني وجوههم عن حدوث ذلك الشيء فعلا .

" جورج" ؟ سألت دون ان اقول اى شيء بشكل مباشر .

أومأ هوارد برأسه .

قلت " انه لم ..".

أطرق هوارد وهو يدمدم بصوت خافت جدا: نعم. استطعت الامساك بماركريت التي انخرطت في البكاء. احسست كأنني قد تجمدت في مكاني. لم اكن قادرة على تكوين الكلمات في فمي وغير قادرة على دفع الدموع الى عيني. وكأنما قد وضعت في قالب من الثلج." انجيلا .. لقد قتلوه الخنازير"..

تسلل الي صوت هوارد كأنه آت من بعيد ...

" لقد قتلوه .. اطلقوا النار عليه من الخلف"

" وفي زنزانتي، استيقظت من الكابوس المتجمد لاواجه حقيقة مقتل جورج. وهناك، وفي الظلمة ،بكيت. كان جورج رمزا لارادة كل واحد منا خلف القضبان ورمزا لتلك القوة التي توحد بين الناس المضطهدين. لا بد وان الناس في شتى انحاء العالم يتحدثون الان عن الانتقـــام .

" ان جورج بشجاعته وتحمله عذاب سبع سنوات من السجن الانفرادى ومقاومته للاضطهاد سيكون مصدرا للوحي بالنسبة لنا جميعا. ومقتل جورج بالنسبةلي، يعني خسارة رفيق وقائد ثورى. ويعني ايضا خسارة حب كبير لا يمكن تعويضه .. انني لا استطيع ان اقول سوى انني في استمرارى في حبه سأحاول التعبير عن ذلك الحب بالطريقة التي كان يريدها حتما ــ بالاصرار اكثر على النضال من اجل القضية التي قتل من اجل الدفاع عنها "

" مات جورج، وكانت الامي العميقة قادرة على القضاء علي لو لم ادفعها الى الاتجاه المناسب. كان الحزن الذاتي في تلك الزنزانة الرمادية وتحت اعين السجانين الطيبة بالكراهية، قادرا على تحطيم ارادتي القوية ودفعي الى الانحناء على ركبتي امامهم. ان مقتله سيجدد حقدى تجاههم وتجاه النظام العنصرى. ان مقتله سيمنحني الشجاعة التي كنت في حاجة اليها للنضال ضد العنصرية التي قتلته. لقد ذهب هو . لكني ما زلت هنا واصبحت احلامه احلامي انا ".

الفصل السادس من الكتاب مكرس لمحاكمة انجيلا ، التي انتهت كما هو معروف ببرائتها تحت تأثير التحرك الواسع للقوى الديموقراطية وللحزب الشيوعي داخل الولايات المتحدة لانقاذها ، وكذلك تحت تأثير حملة التضامن الاممي الواسعة في كل بلدان العالم معهـــا .

. علينـــا ان نسيـــر :

بعد صدور الحكم " بدأت اتحسس كل ما حولي لانني كنت ادرك كم هي قصيرة مثل تلك الاوقات. هناك العمل وهناك الكفاح. ان التحدى يقف امامنا كحجر عثرة في الطريق وعلينا ان نسيـــر ..".

عن "طريـــق الشباب" مجلة اتحاد الشبـــاب الديموقراطي اليوغوسلافي

Digitized by Birzeit University Library

الأمثال الشعبية

بقلم : عبدالله حسين ـ غزة

ينعقد الاجماع في مجال تعريف المثل الشعبي على انه حكمة شعبية شفهية مجهولة القائل لها طابع تعليمي من حيث الموضوع ، ولون من التركيز من ناحية الصياغة ، وان هاتين الخاصتين ساعدتا المثل الشعبي على الذيوع والانتشار .

والامثال ظاهرة شعبية لا تنفرد بها امة من الامم وهي صورة للمجتمع وطريقة تفكيره ، ومنهجه في السلوك من ناحية العادات والتقاليد ، ولذلك تعتبر وثيقة اجتماعية وتاريخية ونفسية يهتم بها الدارسون ، لانها ، في المقام الاول ـ تترجم عن فلسفة الحياة التي يدين بها شعب من الشعوب في تلقائية وبساطة ، ولا شك ان انواع الخبرات المأخوذة من تجارب الحياة ، والتي يقوم عليها المثل الشعبي في كثير من الاحيان ذات اثر سلبي في سلوك الناس اعتمادا على ان المثل نتيجة خبرة سابقة لاجيال ماضية ، ومن هنا نعرف لماذا يقدم قائل المثل الجملة التالية كمقدمة للمثل الذى سيقوله وهي (اللي قبلنا قالوا ..) على ان المتتبع للامثال الشعبية الفلسطينية يرى لها امثلة مشابهة في المضمون في امثال الاقطار العربية الاخرى . وفي بعض الاحيان يجد نفس المثل مع تغير طفيف يمس لفظه هنا او هناك ، مما يؤكد فلسفة عربية شعبية تحدد مزاجا خاصا ، ونظرة واحدة لشئون الحياة ، ومن الجدير بالذكر ان اجدادنا قد اهتموا بجمع الامثال الشعبية قبل ان يعرفوا ما نسميه اليوم بالادب الشعبي .

هذا وقد ساعدت صياغة المثل التي تعتمد على التركيز وفي احيان كثيرة على السجع ، على سهولة حفظه ولعلنا نرى هاتين الخاصتين في مثل قولهم (سكر بمفتاح ونام مرتاح) ، و(كبر العمة ووسع الذمة) ، و(خلي القطين بحوابيه ، تايجي مشتريه) .

ان المثل الشعبي يندفع في تدفق تلقائي ، مكتسبا حدته في الحس كقاعدة سلوكية ،

Digitized by Birzeit University Library

يناسب " حالة معينة ، ثم يتراجع ليندفع مرة اخرى مغايرا ومتناسبا مع ذات " الحالة" بصورة عكسية، مما يوفر للوهلة الاولى تصورا خاطئا في كون المثل الشعبي قولا مناسبا في ظرف مناسب مثلما نجد ذلك في :ـ

أ ـ الجـار ولـو جـار .

ب ـ يا جارى انت بحالك وانا بحالي .

فالتحليل الخاطئ هو بمناسبة " سروري" مع الجار اقول المثل (أ) وبمناسبة "غضبي" من الجار اقول المثل (ب) وهذا احتكام الى فهم انتهازى فالتفسير سيكلوجي ، والتحليل صحيح هو ان المثل (أ) قد اتبنى وعيه من واقع طبقي معين . الفلاحون الصغار حيث ضرورية الجار استنادا الى طبيعة العلاقات الزراعية السائدة اما المثل (ب) فيكشف عن الصراع الطبقي الذى يأخذ مجاله الواسع والعنيف داخل المدينة بكل تناقضاتها التي تخترق علاقات الجوار التقليدية، وروابط القرابة وعصبية الدم ، فتتراكم "هموم الناس" كل طبقة تبحث عن " حوار جديد" بالمعنى الانتاجي ، فليس على كل جار ان يو صل علاقته بجاره مهما كانت الظروف .. ولو جار بمعنى ولو طغى وظلم حكما بقاعدة السلوك ـ الحيرة وانما هو التناقض المادى الذى يفرض شروط العلاقات الجديدة .

وان اى فعل ميكانيكي بين الامثال الشعبية يؤدى بالضرورة الى استنتاجات جامدة وعاجزة، كما ادى بالفعل هذا الفصل الميكانيكي الى حيرة كثير من الباحثين . في شروحهم الانشائية فلم تستقطبهم الا ظاهرة (التناسب) والوقوف عليها . ان " "الوحدة والصراع" في استيعاب الامثال الشعبية لاتعني عدم التفصيل بل تحتم تفصيل التفصيل في اللغة وفي المضمون والدلالات والاشارات فهناك من وجهة اولى : البادية والقرية والمدينة لكل منها أمثالها الشعبية التي يفرزها الوجدان الجمعي ،ومن ثم تعجن هذا الوجدان وتشكله. وهناك من جهة ثانية وبخط متقاطع طبقية الترابط العضوى بين هذه المواقع" جغرافيا" حيث تحكمها حركة التاريخ المادى المتفاوت فعليا في كل موقع وفي كل مرحلة ولكنها تمتلك سمة الشمـــول .

دعني اقول ان الامثال الشعبية هي جزء هام وضرورى من التراث الشعبي .

ان العرب لم تهتم الا بأمثالها الفصيحة انطلاقا من اهتمامها السياسي بالتراث الفصيح ـ الرسمي ـ من شعر وقصص واخبار وتاريخ وأمثال ، وكانت العرب تلتقط الامثال الشعبية من افواه بدو الجزيرة، والمثل الشعبي يأخذ بعض قوته باستمراره ومضامينه واستلهام تفاصيله داخل وعائه اللغوى واخيلته وصيغة القديم مثال ذلك :

ـ (العليق عند الطراد ما ينفعـــن) = فهذا المثل يشير الى الخيل في السباق، فالعليق وقت الطراد ـ السباق ـ لن ينفع ، اذ لا بد من الاستعداد السابق اذ نلاحظ ان كل الامثال الشعبية المتعلقة بالخيل قد تكاملت معانيها اجتماعيا واستوت تماما الى هذه المعاني الاجتماعية في وجدان الشعب في الوقت الذى ينتهي فيه عهد الخيول والفرســـان .

كذلك :ـ اللي الو قبراط بالخيل بركب

ـ الفرس ما يعيبها جلالها

ـ الخيل الاصايل يتجود في الاغر

هذه الامثال الشعبية الفلسطينية قد بقيت

Digitized by Birzeit University Library

في نصوصها القديمة، اذ ان الرجل الشعبي الذي كان يملك فرسا ويعتز بها كل الاعتزاز، "الخيل بطونهن كنز وظهورهن عز" في الماضي هو الان في حاضره يتمثل زوجته امتلاكا للفرس" الذي هو ماضي" تماما. اي ان يعطى للماضي كل حاضره ومستقبله .

كما لا بد للمثل ان يتأثر بالتغيير، حيث نجد مفارقة اخرى في الشكل" تشابه لا تفارق المضمون الا وهي الثبات على القديم رغم الحلول من صيغ معينة من التطور :-

- لا تقول فول، حتى يكون في العدول -

فمفردة " العدول" قديمة وغير مستعملة في الاحاديث اليومية الفلسطينية حاليا، ورغم هذا يتناقل المثل جيلا بعد جيل . . فالمثل اذن اكثر من مجرد معناه القاموسي، انه الطاعة والخضوع والسلوك بجبرية تنفيذه وتحقيقه وعاقبة تجاوزه .

يقول المثل الشعبي الفلسطيني مباشرة وبصيغة الامر " زى المثل اعمل" كما يقول ايضا بمعنويا كل الامور " ما خلى المثل وما قال" وهو بذلك يفلسف شمولية الحياة الشعبية .

دعني اوضح شيئا لا بد ذكره في هذا المجال وهو ان الارستقراطية في معظم مجتمعاتنا تنفر عموما من صراحة الامثال الشعبية وتنظر باشمئزاز وقح الى جماهير الفلاحين المسحوقين وفقراء المدن. فتعتبر هذه الامثال نابية مؤذية، فجة، تماما كما وبكلمات اخرى تعتبر الارستقراطية ان البلاغة الشعبية هي بلاغة دونية وبقدر ما تنفر باشمئزاز، فانها لا تتوانى عن استغلال هذا التراث لمصلحتها . ومع انها سلطويا غارقة في اوبئتها الاجتماعية، فانها تتغطى بالبلاغة الرسمية المفتعلة .

انني وبهذا الصدد فلقد جاءت الى فلسطين القبائل العربية التالية ثمود - سليح - جذام - عاملة - لخم القيس بن جسد مما ادخل علينا لهجات مميزة امتاز بها اهل مجتمعاتنا الفلسطينية . ولذلك نجد في الامثال التالية نصوصا مختلفة النطق :-

× المدينة - يا كل النبي ويعس بالصحابة.
القرية - يوكل النبي ويغمس بالصحابة.

× المدينة يا قاعدين يكفيكم شر الجايين .
القرية : يا كاعدين يكفيكو شر الجايين

وهي لا تؤثر على صياغة الامثال في معانيها، بل تربط كل مثل بمكان انتاجه الشعبي .

ان الوعي الشعبي حازم، لا يغرق في المزاجية، بل لا يعترف بالمزاج الذاتي :-

- كلمة بت ولا عشرة لـت .
- اللي بنزل من السما - بتتلقاه الارض .

وهذا الوعي وعي الكادحين بالضرورة - صريح بدون لف ولا دوران، ومن خلال هذا الالتزام ينبع انتشار المثل الشعبي لانه يعكس الواقع الشعبي كما يعكس الطموح في تجاوزه.

والان فلنتذكر معا جملة من الامثال الشعبية تقال في مناسبات عدة في المجتمع العربي الفلسطيني فعن الاقطاعيين الذين يبيعون الارض للاعداء ويطردون فلاحيها، وهم بذلك مرتبطون بالقوى المضادة لحركة المجتمع الشعبي، وبصدد هذا نأتي بالامثلة التالية :-

- اللي بتزوج امي هو عمي .
- اللي باكل من خبز السلطان بيضرب بسيفه
- شو عرف الحمير بأكل الزنجبيل .
- العز للرز والبرغل قتل حاله.
- العين ما بتعلاش على الحاجب .

Digitized by Birzeit University Library

- كثر انيابك ـ الناس بتهابك .
- العز بلبـق لاصحابـه .
- النـاس مقامـات .
- الناس اجنـاس .
- من قلد معيشة غيره ـ عيشته حرمت عليه
- من خرج من داره قل مقـداره .

وهذا ما يثير سخط الفلاحين وثورتهم بشكل يجعلهم يعبرون عن وعيهم الطبقي المبهم ، الاقطاعي ملاذه في الدين :ـ

- خليها على اللـه .
- الله فضل ناس على ناس .
- الـرزق علـى اللـه .
- انت تريد وانا اريد والله يفعل ما يريـد
- اللي ما يعطيه ربه ـ يا تعب قلبه .
- هذا من فضـل ربـي .
- الله اللي بيعطي والله اللي بيأخـذ .

عند معظم بل كل سكان او اهل القرى اوبعض المدن الفلسطينية والذين هم من الفلاحين الكادحين .الارض هي كل شيء وكل شيء من الله ، والارض وما فيها ومن عليها ينطق ويسبح باسم الله من انسان وحيوان ونبات وجماد وطيـر :ـ

- الجاجة بتشرب وبتطلع لربها .
- الخبز مصحـف اللـه .
- لو الله باكل ـ لاكل خبز وعنب .
- الفلاح يبذر حبه ـ وبتكل على ربه .
- الرمان بيعطي القلب ايمان .
- لا تقطع البلوط لانه مسكن الجلوط .

ان الفلاح نفسه يصف الارض الجميلة الغناء بالجنة وهو يجاهد ويناضل فعليا في سبيل ماهينقصه ، وهو في ذلك صبور جدا

- الله مع الصابرين
- الصبر مفتاح الفـرج .
- من صبر ظفر ومن لج كفـر .
- احنا في التفكير والله في التدبير
- خل الحساب ليوم الحساب .

وعن طبيعة العلاقات الاسرية والعائلية داخل المجتمعات الشعبية تقال الكثير من الامثال الشعبية ايضا فهم يقولون :ـ

- اذا توجع الانسان قال أخ .
- اذا طلعت ذقن ابنك ، ربي لحيتك .
- ثلثيـن الولـد لخالـه .
- الخال تخلى والعم مولـى .

ومن الامثال الاصيلة التي توضح العلاقات الاسرية من خلال الفقدان :ـ

- ان مـات ابـوك ملكـت نفسـك . وان ماتت امـك مـات كـل من يحبك
- وان مات اخوك انكسر ظهـرك وان ماتت اختك انستر عرضك . وان مات ابنك انحرق كبدك .

. وعن الامثال الشعبية الدارجة التي تقال في الزواج :

- عليك بالطريق ولو دارت وبنت العم ولو بارت .
- بنت العم تصبر على الجفا ، اما الغريبة بدها تدليـل .

. واما عن التكافل الاجتماعي والتعاون الودي حيث للدين في ذلك نصيب ، تعزيز للجوار الاجتماعي والعائلي ..

- النبي وصى على سابع جـار .
- الجار قبـل الـدار .
- ما بعلم بحالك غير ربك وجـارك .
- السكـان قبـل المكـان .

Digitized by Birzeit University Library

- جارك القريب ولا اخوك البعيد

. وعن صفات الجود والكرم والنخوة والوفاء ،تعزيزا للعلاقة ودون مثالية مفرطة من الامثال التي تضرب في ذلك .

- الجود من الموجـــود .
- البخيل حارس ماله لغيره .
- البخيل عـــدو الله .
- الكرم ستار العيـــوب .
- الخير مرزوق ياكل من مال الناس والبخيل ياكل من جيبه .

. وعندما انفجر مفهوم " المال " في الوجدان الشعبي ، حيث ماتت كليا اساليب المقايضة القديمة ، جاء هذا " الغول" يقضم كل شيء ويشكله على هواه ومن الامثلة المضروبة في ذلك :-

- المال يجر المال ، والقمل يجر السيبان .
- المال عديل الـروح .
- مالي وانا حـر فيـــه .
- يا خاش السوق بلا مال مثل الخاش طوشة بلا رجـال .

. ان الحرفي يحب حرفته وصنعته ، وهو حريص على ان يدافع عنها بل ان يسخر من غيره، وهذه صفة شعبية ، نستطيع القول بذلك لاننا نلمسه كل يوم في مجتمعاتنا الشعبية الفلسطينية :-

- اللي ما هو كاره يا نـاره .
- صاحب الصنعـه مالـك قلعـه .
- صنعه في اليـد امانه من الفقر .

. وبصدد الامثال التي تضرب في حياة العمال عندنا (اي في المجتمع الفلسطيني) نجد الكثير منها تضرب عند التعرض للاضطهاد والبطش والتحدي منهـا .

- اللي بسكت عن حقه بسكت عن عرضه .
- الله ما بسمع من ساكت .
- قطع الاعناق ولا قطع الارزاق .
- الحيط الواطي بتنطه كل الناس .
- لا تدير ظهرك للدبابير وتقول تقادير .

ان الفلاحين في اى مجتمع فلاحي مشدودون لارضهم وتراثهم الفلاحي الاصيل ، فهم دائما نشيطو الحركة بحثا عن الرزق ملتصقون بالارض التي تطعمهم ارزاقهم :

- مطرح ما ترزق الـرزق .
- في كل بلد حط لك وتـد .
- الـرزق بـدّو نطـة .
- بلاد الله واسعـه ـ السعـي مطلوب .

. اما عن المرأة الفلسطينية في الثقافة الشعبية فتقول الامثال الشعبية .

- مش كل بيضا شحمه ، ولا كل سودا فحمه
- خذ هالبيضة ولو انها مجنونة .
- شو تعمل الماشطة في الوجه البشـع .

هذه هي امثالنا الشعبية الفلسطينية العريقة والتي تضرب في اكثر من مناسبة او بالاحرى في كل مناسبات حصيد الحياة في جميع مناحيها وجوانبها ـ اقتصاديا واجتماعيا ـ سياسيا ، وعلميا و ... الخ .

والان لنوجز بعض امثالنا الشعبية التي تقال في اكثر من مناسبة :-

(١) في الاسرة الكبيرة :-

- اللي بستحي من بنت عمه ما بجيش اولاد
- من فقدني بعظمه كنت عنده عظيـم .
- نوم السراى للضحى العالـي .
- ما يجيد الواحد الا اصلـه .
- الزبدة للحبايب والرايب للنسايب .
- يا مآمنة الرجال زى الميه بالغربال .

Digitized by Birzeit University Library

- ماتت الحمارة وانقطعت الزيارة.
- عند الغولة عرس .
- كثر العزومه بتقطع النصيب .
- العورة لابن عمها
- الخال مخلي والعم مولى
- دور لبنتك قبل ابنك .
- اسحب البنت من كمها تطلع لامها .
- السعادة بثلاثة: الدار الوسيعة و المرأه المطيعه والفرس السريعة .
- الكي بالنار ولا حماتي في الدار .
- عليك بالدوره ولو دارت وبنت العم ولو بارت .
- خطية الولايا بتخرق في الزوايا .
- اللي باخذ من غير جنسه، دق البين فلسه
- كون نسيب ولا تكون قريب .
- دلل ابنك بغنيك ـ ودلل بنتك بتخزيك

(٢) في الاقطاع والتجار :ـ

- الناس مع الواقف .
- انت بدك عنب والا تقاتل الناطور .
- اذا انت امير وانا امير مين يسوق الحمير
- عند الزحمة ما في رحمة .
- قرد موالف ولا غزال مخالف .
- العز بلبق لاصحابه .

خاتمة :

ان الامم العريقة تستمد اساسيات وجودها وبقائها واستمراريتها من تراثها المجيد الخالد ومن ماضيها العتيد الغني بالتراث الاصيل .

والامة العربية ذات مجد عظيم وحضارة عريقة، ولما كان الشعب الفلسطيني جزءا لايتجزأ من هذه الامة العربية لذا كان له ماض عريق وتراث خالد استمد منه مقومات بقائه واستمراريته في الحياة ورغم كل المحاولات التي اعترضت سبيل تقدمه وتطوره ورغم ما تعرض له هذا الشعب من محن ومصائب على مدى الدهر، كان الهدف منها طمس معالم هويته وسحق تراثه لان الحاقدين امنوا بان في التراث مبعث للحياة من جديد، ورغم هذه المحاولات فقد اثبت الشعب وجوده معتمدا على ما خلفه الاجداد والاباء من تراث خالد كان ولا يزال نبراسا يضيء معالم الحياة لهذا الشعب . ولقد اردت ان ابرهن على اهمية هذا التراث من خلال هذا البحث المتواضع الذى يتضمن مقدمة عن التراث الشعبي الفلسطيني، ثم ما يحدث في العرس الفلسطيني من المراسيم الشعبية سواء في القرية او المدينة التي تختلف بعض نماذجها حسب عادات كل اسرة او مجتمع .

كما وحرصت على ان يتضمن هذا البحث مجموعة مفصلة من الامثال الشعبية، التي استشهد بها اهل شعبنا على مرالزمن لما للامثال اهمية كبيرة في حياة الامم .

وها انا انهي هذه المقالة البحثية المتواضعة موضحا مغزى واهمية التراث الشعبي في حياة الشعب ومجتمعاته، لان من لا تراث له لا حاضر ولا مستقبل له ولا هوية ولا وجود له يدل عليه .

المراجع :ـ

١) مجلة التراث والمجتمع ـ العدد ١٦ ـ ١٩٨٤، جمعية انعاش الاسرة. ٢) مجلة العربي الكويتية العدد ٦٥ ـ نيسان سنة ١٩٦٤ . ٣) مجلة العربي الكويتية العدد ١٩٤ كانون ثاني سنة ١٩٧٥ . ٤) مجلة العربي الكويتية العدد ٢٤٧ رجب سنة ١٩٧٩ . ٥) التراث الفلسطيني والطبقات كانون اول سنة ١٩٧٧ منشورات صلاح الدين ـ القدس .

Digitized by Birzeit University Library

أمسيات من وحي التلفزيون والإذاعة

بقلم : محمود الخطيب ـ بيت لحم

الامسية الاولى :

كنت اجلس جلستي المعتادة وجهاز التلفزيون مفتوح هو الاخر والمذيع الهمام مدلوق في بذلته .. مهندم .. محفوف .. منوف الوجه وبلا شوارب .. وهو يتحفنا بين الحين والاخر بالمغني بعد المغنية ولكن النفس الامارة بالسوء لم تستطع تذوق (بدائع) الفن التي يتحفنا بها التلفزيون .. لا ادري، فلعل مرجع هذا الى عدم وجود اذن موسيقية لدي .. او ان مرجعه الى الزعيق المتواصل وكأن استوديوهات التلفزيون انقلبت الى مكان لاكتشاف اقبح الاصوات وتقديمها للشاهدين في محاولة لاثارة الاعصاب ليس الا .. ربما تصور البعض انني اتجنى واذن فما عليهم الا ان يشاهدوا حلقة واحدة مما يقدمه برنامج (ما يطلبه المشاهدون) .. لقد كانت اولى الاغنيات التي اتحفنا بها مقدم البرنامج اغنية اسمها (خِلّي يا خلي) .. استعنا على الشقا بالله وسمعنا الاغنية وماان هدأ صوت المطربة بتاعة خلّي يا خلّي حتى هجم علينا فحل مفتول العضلات اخذ يلاعب حواجبه ويفتر اجفانه وهو يغني (يا حالي عالبدوية) .. حاولت ان اهرب من بشاعة صوت المغني الى تتبع الفاظ الاغنية ولكن : ماذا اتتبع وماذا اترك ؟! ما زال الحال هو الحال والفاظ الاغاني هي الالفاظ والمعاني المبتذلة المعادة هي الالفاظ والمعاني .. ما زال معنى الحب في اغانينا وفي افلامنا هو البحر والوصال والدلال والجفا والدموع والغنى والشك والى آخر هذه المطارحات التقليدية بين اثنين يتبادلان المواجع ويتباكيان على الماضي الذي راح .. وفي الافلام غير القبلات والضمّات والسرحان لا شيء .. كأن مجتمعنا قد حل كل مشاكله وهو يعيش الان فقط ليحل المشكلة النهائية والاخيرة: رضى الحبيب الذي هجر .. او كأن كل من عندنا انقلب الى روميو .. يمسك قيثارته ويداعب اوتارها تحت شباك جولييت .. لكي تكافئه في النهاية بطلة من طلعتها البهيّة .. وربما حنت عليه مع هذه الاطلالة بابتسامة .. متى

Digitized by Birzeit University Library

تقول لنا الاغاني الحقيقة ؟ متى تقول لنا ان الحب ليس اثنين يضمان بعضهما وانما هو اثنان يضمان الدنيا والمجتمع .. ان يعمل اثنان على تجميل الحياة لا ان يستغرق كل منهما في تجميل الاخر ...

نعود الى الغناء .. كانت ثالثة الاثافي في هذه الاغاني المنتقاة حسب ذوق معد البرنامج او ذوق مقدمة لا ادرى .. واذا بمطربنا هذه المرة يتمخطر على المسرح بكوفية وعقال ويكثر من التصفيق استنهاضا لهمم المستمعين من المشاهدين كي يشاركوه في اغنية (مرعية والا بلا راعي) اى ان الحبيبة في هذه الاغنية احدى الحيوانات في قطيع !

اغلقت التلفزيون واسترحت ثم بدالي بعد مدّة ان افتح الراديو لافتش عن نشرة انباء او برنامج فيه ما يفيد .. هذه اذاعة بعيدة يعلو صوتها ويخفت تغنّي هي الاخرى اغنية محليّة لم افقه كثيرا من كلماتها .. يبدو انني كالهارب (من الدلف الى المزراب) كما يقول المثل لكن مياه المزراب (عفوا الاغنية) قد انتهت وأفهمنا المذيع ان وقت ركن (حل المشاكل) قد أزف..

الامسيـــــة الثانيـــــة :

نويت هذه الليلة ان اشاهد الندوة الثقافية التي ذكر المذيع انها سوف تبث هذا المساء وزاد ان جاء علينا بذكر اسماء الاساتذة المتحاوريـــن .

احضرت نظارتي الطبية ـ فانا لا استطيع ان اقرأ الكلام المطبوع على الشاشة دون نظارة الا في جهد ـ جلست في مكاني المفضل قبل موعد الندوة بعشر دقائق .. وفجأة اقتحم الغرفة احد ابنائي .. غلام في فترة المراهقة مغرم بالكرة الى حد الهوس واعتقد اننا لو كنا من سكان مصر لكان حتما من جملة المصابين في (طوشات) الكرة التي تعتبر في مصر بمثابة (فشة خلق) يلجأ اليها الشعب هناك للتنفيس والتفريج عن انفسهم المثقلة بالكبت وبغيض لا ينتهي من المحذورات .. نهايته .. هجم ابني المراهق على جهاز التلفزيون وجلس .. فتح الجهاز على احدى المحطات وهو يهمهم : (راح علينا اول الماتش) .. بدأت ارى اللاعبين يتراكضون على الشاشة الصغيرة وراء الكرة . انضم الى المراهق بعض اخوته واخرون من شلته . الكل جالس (مخشب) .. صامتون كأن على رؤوسهم الطير ـ كما يقول المثل العربي ـ يتعقبون الكرة في شغف اسطوري ويضرب احدهم كفا بكف بين الحين والاخر تعبيرا عن الحسرة على الفرصة المضاعة التي لم ينتهزها احد اللاعبين ..

حاولت ان اجارى هذا الحشد من الشباب .. حدقت في الشاشة ولكن ما العمل وانا لا افهم الالف من المئذنة في ابجدية الكرة ولا يهمني ان دخلت الكرة في الهدف او كان دخولها في جهنم الحمراء !...؟

الوقت يمر والندوة مر على بدئها وقت ليس بالقصير .. سألت الغلام الجالس بالقرب منّي عن الزمن الذى سوف تستغرقه المباراه حتى تنتهي فاجاب دون ان يحول عينيه عن المباراه : ساعة . ازدادت رغبتي في مشاهدة الندوة .. اخذت اتطلع الى الصور المعلقة في الغرفة والى الاثاث .. قلت في نفسي : حرام عليك ان تحرم هؤلاء متعتهم

Digitized by Birzeit University Library

وان تفرض انانيتك بحكم كونك رب العائلة.. علينا ان نتعامل مع الواقع احيانا في صبر وان نتجنب الحلول الفوقية او الاستخفاف بمشاعر الاخرين واذواقهم عندما لا تعجبنا هذه الاذواق فما ادرانا .. لعلنا نحن المخطئون!

المهم .. رضينا من الغنيمة بالاياب .. ويبدو ان قائل المثل كان مشتركا في غزو فاشل اما انا فلم اكن ابالي من غزو ولا ما يحزنون وانما هو انسحاب فرضه اولئك (الزعران) من عشاق الكرة .. انسحاب استعجلته قبل ان اسمع لسان حالهم يقول :

ومن يك ذا فم مر مريض
يجد مرا به الماء الزلالا

هكذا افسد هؤلاء على متعة الاستماع الى ما سيقال في الندوة ليستمتعوا هم بمشاهدة هوايتهم المفضّلة .. ربما كان المسؤول عن اهتمامنا نحن الكبار بهذه المتع الرياضية تلك التربية المتزمتة التي ربانا عليها اهلنا اولئك الذين كانوا ـ سامحهم الله ـ يعتبرون اللعب مسبّة والترفيه من علامات قلة العقل ولذلك ظلوا يلحون علينا كي نترك هذه (العصائب) بالتوبيخ حينا وبالعصا احيانا كثيرة حتى نشأ عندنا ما يشبه الطبع يطل برأسه علينا كلما رآنا نحاول الاستهانة بقواعد (الانضباط) السالفة .. ولله في خلقه شؤون

الامسية الثالثة :

غالبية الناس عندنا يحضرون المسلسلات .. يحاولون ان يقتلوا اوقات الفراغ .. ان يطردوا السأم او يشغلوا بالهم بشيء طريف. ان يتبيّنوا ما يجري حولهم وان يشاركوا في المسيرة الانسانية حتى ولو كانت هذه المشاركة عن طريق التفرج ! ان يتبينوا كيف حل المخرج احدى المشكلات الاجتماعية التي تعرض في المسلسل فكثير منهم لهم مشاكل، من نفس عيّنتها ومن طرازها .. ويريد البعض ان يمتّع الطرف برؤية الاثاث الفاخر ومشاهدة آخر صيحة في دنيا الموضة المتمثلة عادة في ملابس الممثلين والممثلات .. اختلفت الاذواق والمشارب والاهداف والاسباب ولكن النتيجة واحدة هي الجلوس امام التلفزيون والبحلقة فيه كل ليلة من اول المسلسل الى آخره على الاقل اضافة الى رؤية ما يحشر اثناء عرض المسلسل من شرور لا بد من مشاهدتها واصبر على بلائها وهي الاعلانات .. وانا انسان من عامة هذا الشعب لي عادات حسنة واخرى سيئة : اعمل وانام وآكل الطعام وامشي في الاسواق . اتفرج وامرض واحب الخير لي وللناس واقرأ واشتم بعض الناس .. ولا يعجبني احيانا العجب كأنما اريد ان تخلق الدنيا والناس على هواي ولهذا تراني قليل التسامح ضيق الصدر عندما ارى ما لا يعجبني اضافة الى انني احضر المسلسلات .. وآخر مسلسل حضرته هو (الحياة مرة اخرى).. طبيب يعمل في الارياف عرضت عليه حالة وفاة مفروض انها عادية فاكتشف ان وراء هذا الموت جريمة حاول كشفها فكانت النتيجة ان رماه العمدة وزلمه في مستشفى المجاذيب . الطبيب ليس مجنونا وانما هو ثائر على الباطل وله اخت استغلّت دخوله في المصحة فعطت على اطالة الفترة الى اقصى حد لتنفرد بميراث والدهما لوحدها، ثم يخرج الطبيب من المستشفى ليجد الدنيا هي نفس الدنيا والحال هو الحال الاول والعن .. ويخوض الدكتور معركة ضارية ضد اخته وزوجها وضد

Digitized by Birzeit University Library

الباطل المتمثل في اغراءات بعض شرائح المجتمع الفاسدة له بالفساد : ابن عمه الذى اصبح من كبار المستوردين وابنة عمه التي لا تبيع الا البضائع المستوردة وتبقي البضائع الوطنية في المحل للتغطية وتبيع السلعة بثلاثة امثال ثمنها ولا تدفع ضرائب للدولة ولا جمارك بفضل ما يقدمه لها اعوان لها وعلى شاكلتها من المنتفعين بمزايا عصر الانفتاح !! وصاحب العمارة والسيارة التي عمل الدكتور سائقا عليها .. وحتى الاطباء من طبقته وجدهم يمارسون طبا كالشعوذة ويستخدمون ممرضات يعاملن المرضى على طريقة إخدم نفسك بنفسك .. الى آخر هذه العينات التي صورها لنا المسلسل وصور اصطدام الدكتور (النظيف) بها وصراعاته النفسية وانفعالاته .

والطبيب يرزح تحت وطأة هذا الباطل الذى يحيط به من كل الجهات .. ويتواصل الضغط عليه ويظل يتنامى والطبيب يفشل المرة بعد المرة في التكيف مع هذا (الواقع)

هذه النهاية التي كانت على غير انتظار والتي انتهاها البطل صدقني والحق يقال وجعلت الفار (يلعب في عبّي) بل دفعتني للتساؤل : هل كانت دوافع مؤلف المسلسل ومخرجه دوافع شريفة ؟ وهل يصدق العقل ان هذه نهاية طبيعية لحياة انسان على هذا المستوى العالي من المعرفة مما يفترض فيه ان يكون مسلحا بما يساعد على اجتياز مصاعب الحياة ؟..

هل نهاية المسلسل واقعية حتى ولو كانت هناك حيوات لاناس في مصر انتهوا وينتهون هذه النهاية التي توحي بالف معنى ومعنى؟ وهل على الكاتب ان يحكي الواقع كما حصل على الرغم مما فيه من استسلام وقنوط ام عليه ان يحور هذا الواقع لكي يلائم النموذج الذى ينبغي ان يحتذى ؟. هذه التساؤلات واشباهها اجاب عنها شولوخوف ـ كما يذكر الدكتور مندور في احد كتبه ـ ويؤسفني انني قد نسيت اسم الكتاب وانا انقل هذا الكلام من ملخص في دفتر عندى .. فلقد سئل شولوخوف لماذا يؤاخذ شخص على تصوير شخصيات سلبية متخاذلة اذا كانت هذه الشخصيات توجد فعلا في واقع الحياة وكان مذهبه في الادب هو الواقعية اى الكشف عن واقع الحياة . فأجاب شولوخوف بان " كل فن اختيار واختيار الشخصيات السلبية المتخاذلة لتصويرها ينم عن ضعف . ان مانسميه واقعا ليس الا الصورة الذهنية التي لدينا عن الحياة فاى شيء لا يتخذ وجوده الا من الصورة الذهنية التي لدينا عنه ولما كانت هذه الصورة ملكنا فنحن نستطيع ان نلونها باللون الذى نريده والذى نرى فيه مصلحة لانفسنا ولمجتمعنا .

ونحن في حاجة الى ان نقاوم عوامل الشر واليأس والتشاؤم وان نعمق اعتقادنا بان في استطاعتنا ان نسيطر على مصيرنا وان نتغلب على عوامل الشر والفشل . ثم انه لايلزم لكي يوصف الادب بالصدق ان يقص ما حدث فعلا بل يكفيه ان يقص ما يمكن حدوثه وبذلك يصبح ادبا معقولا مشاكلا للحياة وبالتالي صادقا ".

وعلى كل يبدو لي ـ والله اعلم ـ ان المخرج نصّب من نفسه ناطقا باسم تلك الطبقة من المستغلّين الذين يعيشون ويثرون على حساب سرقة اللقمة من فم الجياع ويتاجرون بكل ما هو محرّم ابتداء من اللحوم الفاسدة وانتهاء بالمخدرات .. ويريدون ان تعمى كل العيون فلا تكتشف سرقاتهم وان تقطع كل

Digitized by Birzeit University Library

الاصابع التي تشير الى اشخاصهم بالاتهام ..

ارجو المعذرة فربما كان للنهاية الفاجعة التي اختارها مخرج المسلسل تأثير في نفوسنا نتج عنه هذا الشعور بالقرف من برامج التلفزيون ومسلسلاته تأثير كان اشبه بالصفعة بعد ان شاهدنا البطل طوال الحلقات يتحسس موضع اقدامه وسط غابة مطوءة بوحوش عصر الانفتاح ودعاة المبدأ الميكافيلي الذي تظللهم راية الغاية تبرر الوسيلة .. يتحسس خطواته كيما يتمكن من النهوض مرة اخرى في محاولة جديدة للتغلب على الشرفكانت النتيجة مخيّبة لامالنا لا بل ومشجعة على الاستسلام والقنوط ونفض الايادي من الاصلاح وداعية الى تغليب منطق الشر والى تلقين الخارجين عن تقاليد عصر الانفتاح ومرتزقته درسا يردهم الى القطيع مستسلمين لواقعهم .. يذبحون وهم صامتون دون مقاومة .. فاذا كان هذا هو ما يرمي اليه المخرج فلم اذن هذا الالحاح المتواصل في حلقات المسلسل على ابراز التناقضات بين السلوك الخيّر والسلوك الاثم ، .. بين ما هو شرف وما هو رذيلة .. بين الايثار والاثرة .. بين القيم الفاعلة والقيم الهادمة .. ولِم هذا التملّق لمشاعر المشاهدين اذا كان المخرج مؤمنا سلفا بان قيم عصر الانفتاح تطرح نفسها بشكل لاينفع معه تجاهلها ؟ ولماذا لا يمتلك الجرأة الادبية ليقول لنا ما يريد دون لف او دوران بانه نصير لمبدأ " أنا وبعدي الطوفان "؟! وانه عندما يرسم مواقف المقاومة لا يرسمها لكي تنتصر وانما لكي تكون نهاية المقاوم عبرة يتجنبها الاخرون وقد رأوا النهاية المؤلمة التي آلت اليها ؟ واذن فالهدف من هذا الرسم يصبح واضحا قد حكاه المثل الاستسلامي الذي يقول " حط راسك بين الروس وقول : يا قطّاع الـــروس "..

مسكينة مصر بل مسكين هذا الشعب الذي ابتلى بأمثال هذا المخرج الذي جاء يفهمنا ان امامنا احدى طريقين : اما الركوع واما الجنـــون !!.

نحن نعلم أن مجتمعنا مملوء بالسلبيات مثقل بالصراع تحتدم فيه المعارك دائما بين المستغِل والمستغَل وان الشرّ قد يبدو احيانا هو الاقوى وكلنا نعلم كذلك ان جولة الباطل كثيرا ما تنتهي بالفشل . وان الايحاء المتواصل بالفشل قد يصبح فشلا حقيقيا اذا ما تغلغل في اعماق اللاشعور .. ولكنا نعلم كذلك ان البشرية في صراعها الدائب مع الشر تتجاوب مع التفاؤل ويستهويها من يضيء لها شمعة .. بريقا من الامل .. من يشحذ عزيمتها لا من يسود في عينيها مستقبلها علاوة على ما هو عليه من سواد .. من يلعن المستغِل ويساهم في تعريته وكشفه لا من يحاول ان يوحي للناس ان الاستغلال قدر مفروض عليهم من السماء لا سبيل الى رده او ازالة آثاره وان عليهم ان يذعنوا له وإلا فامامهم مصير واحد ان ينطحوا الصخر ثم يستوطنوا بعد ذلك مستشفى المجاذيب !.

واخيرا احب ان اقول للمخرج ان القوى النامية الصاعدة لايمكن ان تنحسر واذا بدا للبعض انها في حالة انحسار فما ذلك الا لانهم لا يرون الا ظواهر الاشياء في حين تخفي عنهم حركة الاعماق .. ومن يعش يرَ حتى ولو حاول ان يغلق على نفسه منافذ الضياء .

ملاحظة : كتبت هذه الامسيات في اوائل شهر كانون الاول الماضي .

Digitized by Birzeit University Library

شهادات فيليتسيا لانغر عن عصر الحجارة

فيليتسيا لانغر الشاهد الاكثر التصاقا بالجرح الفلسطيني، والاكثر صدقا في الدفاع عن الانسان الفلسطيني امام المحاكم العسكرية الاسرائيلية، وفي المحافل الدولية، قدمت فيليتسيا لانغر شهادات جديدة تحدثت فيها عن مجموعة من الحوادث التي تتعرض لها اناس ما زالوا على قيد الحياة، ومنهم من لا يزال يقبع في السجون.

قد يقول قائل ان فيليتسيا لانغر محامية وحسب، لكنها هنا اكثر من ذلك، فهي تطرح قضيتها باسلوب ادبي مشوق ،يدفعك الى التهام السطور لمعرفة نهاية القصة، الا انها ليست قصة، بل هي واقعة، حادثة رأتها وهي هنا تسجلها بصدق، غير ان صدق الاحساس بالقضية، والتفاعل مع معاناة ابطال شهاداتها ،جعلتها ترتفع بكتابتها الى مستوى رفيع، مستوى ادبي يستحق التقدير والاحترام، نحن هنا امام كاتبة تنقل مشاهداتها، ومعايشاتها التي تحياها كل يوم.

عالم رهيب

زرقة السماء من فوقك .. وحولك صحراء جافة قاحلة تمتد حتى الافق.. شعور قاتل بالعزلة ورغبة قوية بالخروج حالا من هذا القفر الذى بني السجن في داخله مثل استحكام من الاسمنت. تقطع افكارك اصوات اصطكاك قطع معدنية امتزجت بأصوات خطوات منتظمة وبطيئة. تتحقق مصدرها بعد برهة قصيرة : تلك هي السلاسل الحديدية التي تقيد رجلي أبي وعمر !.

يقول، وقد بدت عليه علامات الغضب الشديد" لقد كبّلوني بالقيود بهدف السير امتارا معدودة، مع انهم يعلمون جيدا بأن الهروب من هنا يكون صوب الموت فقط. وأننا قد اخترنا الحياة !". ثم ينظر إليّ ويقول لي، كمن أحسّ بمدى تعبي وارهاقي :

Digitized by Birzeit University Library

"كان من المستحسن ان لا تأتي الى هنا ، بل ان تنتظري حتى ينقلوني الى مكان آخر قريب انني ادرك انه من الصعب الوصول الى نفحة!"

على الفور اعتذر عن ضعفي لدى من حكم عليه بالعيش هنا سنوات عدة ـ منذ تأسيس هذا السجن ـ ليكون قد امضى خمس عشرة سنة وراء قضبان الاحتلال ... لقد حفرت تلك السنوات الاخاديد في وجهه وصبغت شعره باللون الرمادي وأكلت من جسده بالمرض الذي لا يريد أحد علاجه. اما العيون .. فانها نفسها التي لم تخب .. وهي تشع الآن بِشْرًا وبشاشة :

يتجاهل آذان الحيطان وتلك التي لحراستنا ، ونأخذ بالحديث عن الحاضر وعن المستقبل ، عبر فسحة الامل والايمان التي تنسيني للحظة الصحراء المحيطة بنا ....

رغم انهم قد اعدّوا له ان يبقى الى الابد سجينا فانه جد واثق بالمستقبل . حتى انك لا تلمس من تعابير التشجيع التي يتفوه بها أن يستنشق الصحراء وان عيونه محرومة من رؤية جمال الورود وقطرات الندى التي تغطي الاوراق الخضراء عند الفجر .. وساعة الوداع يقدم اليّ تحياته وتهانيه بمناسبة يوم المرأة .. كلمات ودّ وحب من " نفحة" هي أغلى من الذهب !.

ارافقه حتى الباب الداخلي ، اخطو معه الخطوة تلو الخطوة بالوتيرة نفسها التي تصطكّ بها السلاسل الى أن يختفي وراء البوابة الثقيلة .. وينظر الي السجانون بوجوه متجهمة تقطر حقداً وغضباً ..

انهم . وهم السجانون ، مسجونون ايضا في الصحراء ، مع كل ما في الامر من مفارقة اتوجه الى احدهم واسأله ، كيف استطاعوا المكوث هنا طيلة هذا الوقت ، مستنظرة منه بعض كلمات التذمر والتظلم .. ولكن بدلا منها يجيبني بافتخار : " لدينا بركة سباحة وزاوية الحيوان ايضا .. اننا هانئون هنا وسعيدون ، فلا تقلقي !".

استغرب ذلك. وأسأله فيما اذا كان الكلاب المسجونون خلف القضبان ، والجاهزون للانقضاض على فريستهم والتهامها في كل لحظة يشكّون " زاوية الحيوان" التي قصدها ، بينما بركة السباحة ما هي الا الكميّات الغزيرة من العرق المتصبب منهم في قيظ الصيف الصحراوي الشديد! ولكنه يحتج بشدة قائلا : " شاهدي بنفسك عندما تخرجين من السجن لتدركي بأنني لا اهزأ " !

وعند خروجي اطلب من سجان آخر ان يريني العجائب التي وصفها لي زميله قبل لحظات فيستجيب لي . نتوجه يمينا واذا بكلبين اليفين امامي ويخيل اليّ انهما سيمزقانني اربا بعد لحظات. لكن السجان يقوم بتهدئتهما فيما انجح بصعوبة في اخفاء جزعي . واشتم حب استطلاعي الزائد ..

الكلبان يرافقاننا . فتبدو لي مسافة امتار معدودة وكأنها لا نهائية .. وفجأة تظهر امامنا بركة سباحة صبغ قاعها وجدرانها بالازرق وملئت بالمياه الصافية.. على ضفتيها ينتصب برج صغير يقفز منه المستحمون . والى جانبه ساحة نصبت فيها اجهزة للعب الاطفال ، وفي قسمها الاخر هنالك منطقة مسيجة يجول بداخلها قطيع صغير من الماعز .." بعد فترة سنحصل على القرود ايضا وتصبح لدينا بالفعل حديقة حيوانات صغيرة". يقول مرافقي باعتزاز !

Digitized by Birzeit University Library

اقف متجمدة مقابل واحة الصحراء هذه. السجان الذي بجانبي والكلبان يشكلان شهادة على اننا لسنا امام سراب وانماامام قطعة حياة من هناك ، فيما وراء القفر .

لقداعدت هذه الزاوية الفاخرة للسجّانين فقط . وهي غريبة عن عالم الزنازين والسلاسل والكلاب المخيفة .

اسمع احدهم يصرخ من بعيد مادّا صوته "ليمح اسمك" . فالتفت ناحية الصوت دون ان افعل شيئا ، واذا بالرجل يوضّح ما يقصده بحركة من يده مؤدّاها قطع الرأس ثم يعود على شتيمته ثانية، كمن يلقي عليّ تحية الوداع، ابتعدت عن المكان بسرعة .

وفي الليل اجلس مع نفسي واستعرض تلخيصا حزينا لنظرة خاطفة اضافية الى داخل العالم الرهيب .

(١٩٨٣)

النظـام الاردنـــي
لـــم يتغيـــر ...

==========

لا تزال الحكومة الاردنية، تصرعلى تأكيد سياستها ونهجها السافر تجاه ابسط الحقوق الاساسية للانسان، فقبل ايام احالت سلطات الجسر الاردنية احد المواطنين الى المخابرات في العبدلي، وبعد طول عناء ،استطاع المواطن المسكين ان "ينجح"في مقابلة احد رجال المخابرات الاردنية، حيث طلب اليه استنكار"الشيوعية"، فاعلمه المواطن انه ليس شيوعيا، ولم يكن كذلك في اى وقت، فرد عليه ضابط المخابرات بانه يعرف ذلك .. وبما انه ليس كذلك فلماذا لا يستنكر ؟! رد عليه المواطن ان هؤلاء الناس لم يسيئوا له، ولم يفعلوا ما يستحق الاستنكار فلماذا يسيء لهم ؟! .. خيروه بين الاستنكار وبين العودة الى الضفة الغربية ، فاختار العودة ....

بقي ان نعرف ان المواطن المذكور بلغ الخامسة والستين . وهو يؤكد ان قصته هي قصة العشرات بل المئات من المواطنين ..

ولعل في هذه الحادثة التي تتكرر كل يوم ، اشارة اخرى للنهج الذى لا تزال تنتهجه حكومة النظام الاردني ، وبالمناسبة ... فان هذه الاساليب هي نفسها التي كانت متبعة منذ ان تسلم الملك عبدالله الحكم، لتصبح فيما بعد السياسة الرسمية للنظام ...

بقي ان نقول، ان نظاما يستخف بمواطنيه وبحقوقهم الاساسية، لايمكن ان يحقق السعادة لهم ولا يمكن لاحد ان يناضل من اجل عودته اليهم، فهل يمكن لاحد ان يذهب الى نظام كهذا برجليه ؟! ،نظام يعشش العفن والتخلف في اجهزته وتتفنن مخابراته في قمع المواطنين .

Digitized by Birzeit University Library

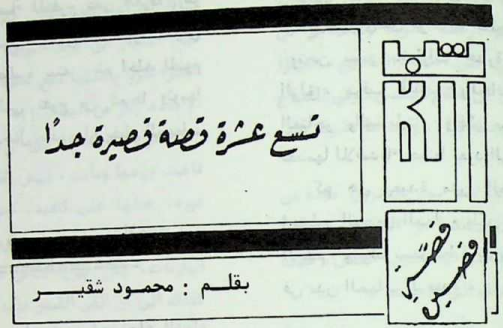

١ ـ نزهة

يجربون غرائزهم المنفلتة في حيطان البيوت وأجساد النساء . يقتلون ويدمرون كل شيء . ولا تطمئن ضمائرهم الميتة . فثمة اشياء اخرى لا بد من انجازها . يقضون حلمات اثداء الصبايا الذاهلات ـ قبل ان يحين موعد قطفهن ـ مع جرعات الويسكي والعرق ، يرقصون مثل قبيلة متوحشة ، ثم يغادرون المخيم ، ترقبهم وجلة من مخبئها . زجاجة حليب لم تنكسر ، وشمعة قرب جثة الطفل . لم يقتلها الرصاص ، فظلت تضيء الى ما بعد الفجر بوقت طويل .

٢ ـ وداعة

تأتي وحدها الى المكان الذى اعتادا الجلوس فيه ، ترقب القرية الصغيرة التي تنام في حضن الجبل : ثمة على البعد بيت كئيب امامه امرأة وحيدة ، تشعل النار في الحطب ، وثلاثة من رجال الشرطة يتدثرون بمعاطفهم ، يتمشون في ساحة المخفر مثل اطفال وادعين . لماذا جاءوا في الظلمة واقتادوه بعيدا عنها ، ما داموا بمثل هذه الوداعة التي تغلف حركاتهم في الساحة البعيدة ، المحاطة بغبش المساء ، الذى يتسرب الى صدرها مثل وباء لا تدرى كيف تصده او تمنعه من الدخول ..

٣ ـ عزلة

ذوو الياقات البيضاء ملاءوا الصالة المزدانة بالثريات هم وزوجاتهم المتبرجات ، اللواتي عبأن فضاء الصالة بالبهجة والرواء ، فيما روائح العطور التي اتقن اختيارها لهذا المساء ، تعبق في المكان .

ذوو الياقات البيضاء كلهم جاءوا للتفرج على فرق الفنون الشعبية التي وفدت الينا من بلد صديق كما هي العادة في مثل هذا الوقت في كل عام .

وكما يحدث دوما ، فان الوحيد الذى لم

Digitized by Birzeit University Library

يجيء هذا المساء للتفرج على الغرقة، هو الفلاح الذى انتهى لتوه من حلب بقرته الاولى والاخيرة في حظيرة بيته ، ثم اخلد للنوم قرب زوجته التي تفوح من شعرها وثوبها الخلق رائحة الحقل ، دون ان يفطن اليهما ـ واأسفاه ـ احد .

٤ ـ بـــــــلاد

فوق قمة جبل بعيد لم تصله الدول والحكومات ورجال الحدود بعد، يشيدان كوخهما الصغير ، ولا يملكان سوى كتاب وحفنة طحين ودفء في العيون. في الصباح تشعل المرأة النار في الحطب من اجل رغيف ساخن ،ثم تجلس قرب الرجل يأكلان الرغيف، وينظران الى البعيد حيث الشعوب تشقى وتكد

يؤرقهما الشعور بالذنب، ويتفقان على مغادرة الجبل كيلا يتهمها احد بالافتقار الى النوايا الطيبة، غير انهما يفاجآن ذات صباح برجال الحدود وقد نصبوا الحواجز، واقاموا بناية تهتم بشؤون المغادرين والقادمين تماما بالقرب من كوخهما الوحيد فوق قمة الجبل البعيـــد .

٥ ـ حلـــــــــم

كم هي بعيدة مدن الضباب التي حلمت بالتجوال فيها انا وانت، انا في معطفي الاسود الذى يشبه معاطف رجال المباحث في الافلام البوليسية. ومع ذلك فاني اواصل ارتداءه دون حرج. وانت في معطفك الاحمر، مثل وردة يافعة، تسيرين الى جوارى وتدائف الثلج تتهاوى مثل فراشات جانحة فوق رأسينا ،ونحن نسير بخطوات حذرة فوق الرصيف الزلق، نرقب النهر والحافلات، وابواب المتاجر والبنايات، ونفكر بهدايا تذكارية نقدمها للاصدقاء حينما نعود الى الوطن .

كم هي بعيدة مدن الضباب التي لا استطيع الوصول اليها . ولكن علي ان اواصل الحلم ، وسوف نسير معا ذات يوم ، انا وانت، في مدن الضباب البعيدة .

٦ ـ المطـــــــار

يأتيان معا الى صالة المطار ، يرقبان الناس وهم يجتازون الابواب التي تنفتح تلقائيا، يتأملان اللوحة الالكترونية التي تصدر بين الحين والاخر اصواتا لها وقع محبب في النفوس، يحدقان في وجوه العائدين من الخارج، يشيعان الذاهبين الى الافاق البعيدة، وتنمو في صدره وصدرها الرغبة في التجوال والانعتاق، ولا ينتظران احدا، اذ يكفيهما ان يدخلا صالة المطار بين الحين والاخر، ليشعرا بالدفء وبالتواصل مع عوالم تتحدث عنها اللوحة الالكترونية باختصـــار .

بعد ايام اقتيدا الى التحقيق حينما لوحظ ترددهما الزائد على هذا المكان الحساس، ورغم حسن نواياهما المطلق، فقد احجما عن ممارسة متعتهما الاخيرة تلك في صالة المطار.

٧ ـ الضحيـــــــة

جاءوا على عجـل، تجمعوا في الظلمة

Digitized by Birzeit University Library

حتى انهم لم يجدوا الوقت الكافي لتشذيب ذقونهم ،رقصوا رقصة دموية والخناجر في اغمادها تتدلى على امتداد قاماتهم . تفرقوا على عجل قبل ان تطلع الشمس، وفي الصباح تعثر الاطفال بجثة امرأة ، وجدوها مقتولة على تخوم الحي .

يا للقسوة، ثمة سبع وعشرون طعنة من خنجر تناوش الجسد بدءا من الخاصرة وانتهاءا بالثدي الذي يتخثر فيه حليب الطفل ، حيث لن يخرج من هناك الى الابد .

٨ ـ الزفاف

الام البدينة، لم تشأ ان تضيع وقتها لبلة زفاف ابنتها بالوقوف خلف الباب لاستراق السمع ،فتلك عادة قديمة بليت .

الام البدينة، جلست تلتهم الطعام اللذيذ في مطبخ العريس الذي لم يطل الاختلاء بعروسه طويلا ، فقد سد باب المطبخ بقامته المديدة لحظات ، قبل ان تنتبه اليه الام البدينة، وهو يحمل بين ذراعيه جثة ابنتها الرقيقة، معلنا بدون اكتراث ـ كمن يعلق على الطقس ـ انه يكره كل شيء يذكره بالشمع الابيض ذي البرودة التي تثير الاعصاب .

٩ ـ عقوبة

المرأة الخاطئة ،ولدت طفلها وراء الاكمة ادثرته بقطعة من قماش وهي تفكر في مصيره: هل تلقي به على مقربة من قصر السلطان لعله يشتاء فيصبح وزيرا ذا شأن ؟؟ ام تضعه تحت شباك المرأة العاقر، التي لم تنجب لزوجها شيخ التجار من يرث امواله من بعده، مما اضطره للزواج عليها سبع عشرة مرة، فلم يرزق الا بعدد وافر من البنات !!.

المرأة الخاطئة، قبل ان تتخذ قرارها، فاضت روحها وماتت ، نهش طفلها الوليد من فوره، حطمها على كتفيه، حفر بين الاشجار قبرا لائقا، دفن امه وهو يبكي، ثم مضى في الطرقات، يكرز بين الناس بالمحبة، وظل كذلك الى ان القى القبض عليه، لانه لا يحمل اية وثيقة تدلل على اصله وفصله او حسبه ونسبه .

١٠ ـ اجتماع

تنادى القوم الى اجتماع طارئ للبحث في احوال الطقس الذي يتهددهم باقتلاع مبين. حينما وصلوا قاعة الاجتماعات، كان الجوع قد استبد بهم على نحو لم يألفوه من قبل. اكلوا بعضهم بعضا ون استخدام الشوكة والسكين، فذلك ادعى للاصالة كما زعموا ، ثم ناموا مطمئنين .

١١ ـ فراق

تفرقوا ايدي سبأ ، يمضي الطفل خلف امه متلكئا ، ولا يصغي الى كلامها الملحاح، فهو مشدود الى جمال الصخور بتكويناتها العجيبة التي تعيد الى الذاكرة ،صور حيوانات شتى.

Digitized by Birzeit University Library

ترتد اليه الام، تعنفه وتشده من اذنه امام الخلق اجمعين، يمشي خلفها حزينا، لم تعد تستهويه الصخور بأشكالها المتباينة، ينساب في قلبه احساس بأن ثمة منغصات كثيرة تحجب جمال هذا العالم .

تزداد شكاوى الام من طول الطريق، ينطلق صوتها ملعلعا، يقترب الطفل من امه، يلتقط يد اخته الصغيرة. يقتادها عبر دروب متعرجة، ويدرك انه يكبر قبل الاوان. كانت تلك خطواته الاولى بعيدا عن الوطن، ولم يعرف معنى ذلك الا فيما بعد .

١٢ ـ وحـــــدة

بعد منتصف الليل بقليل، ايقظه لسع الهواء البارد، اتجه نحو النافذة وهو يؤنب نفسه، لانه لم يغطن الى اغلاقها قبل النوم. عاد الى سريره، ثم توقف حينما انتبه الى ان القطة ليست على السرير ولا في ركن الغرفة او تحت المائدة الهرمة. عاد الى النافذة وانتظر، وحينما ادركه اليأس انزوى في سريره وهو يتمتم : كم مرة حذرتها من الخروج ليلا ! قال ذلك وهو يسعل، قاله وكأنه يقصد امرأة.

١٣ ـ خيبـــــة

المرأة العانس لم تكن قد اخذت زينتها بعد ، حينما اقتحم عليها الباب موظف الفندق ليخبرها ان الجهة المضيفة قد توقفت عن تسديد الفواتير .

المرأة العانس بكت، لان موظف الفندق شاهد بأم عينيه طقم اسنانها الاصطناعية، منقوعا في كأس ماء قرب سريرها العيت، وهي لم تأخذ زينتها بعد .

١٤ ـ الحـــــرب القـــادمة

من قال اننا لا نستعد للحرب القادمة؟ تنشر المرأة غسيلها على حبال الجيران، تعض الملاقط الخشبية ملابسها الداخلية، والمرأة تحلم بأيام رتيبة .

كناس البلدية يجمع القمامة من زوايا الشارع وهو يسعل، فالطقس الكئيب يجرح حلقه مثل زجاج ينكسر .

وبائع الحليب لا يكترث ـ ما دام في آخر الشهر يقبض الثمن من السادة المترفين ـ اذا انسلت القطط الهرمة الى الاواني الزجاجية، التي لم يحكم اغلاقها جيدا، تدحرجها امام الابواب المغلقة، تلعق منها حليب الصباح الدافيء، تأهبا ليوم طويل من التثاؤب والتمطـــي .

١٥ ـ اشيـــــاء

لم يبق من راتبها الضئيل شيء، اشترت كعادتها كل شهر، ادوية للرجل الذي ينام في البيت منذ سنوات. اشترت مربولا مدرسيا للبنت، وبنطالا ترتديه البنت تحت المريول اشترت حلوى ودفاتر للاولاد. وبما تبقى

Digitized by Birzeit University Library

لديها من نقود . اشترت لاول مرة منذ سنوات ،كحلا لعينيها ومساحيق وعطورا لها رائحة ما ، من بائع اعمى، يقعي خلف صندوقه الزجاجي فوق الرصيف .

١٦ ـ احتجـــــاج

حدثها فيما يشبه الهمس بأنه لم يخرج الى العالم الفسيح ، لان الرجال الجالسين في غرف مكيفة الهواء ، المنهمكين في مهمات غامضة، لم يرق لهم ان يروه طليقا في الدروب البعيدة .

ها هو ذا يجيء اليها يحمل تحت ابطه زوادته ،ويتأهب للسفر عبر طرقات كفها الصغيرة، فيما قمر الخريف يرقبهما من عل، مثل دمعة قد تسقط على المدى الساكن، بين لحظة واخرى، محدثة ضجيجا تنفط له اقسى الاذنـــدة .

١٧ ـ بـــــــراءة

تجلس الاسرة امام التلفاز، تتناول عشاءها البسيط زيتا وزيتونا وزعترا وخبزا من قمح البلاد، يتقدم الزنوج في الشارع وهم يحملون اللافتات، تقف اللقمة في حلق الصبي وهو يرى رجال الشرطة البيض يعترضون الجمع في ايديهم الهـــروات .

تقترب الكاميرا من فتي زنجي يبقبق الدم من رأسه الحليق، يكف الصبي عن تنـــاول الطعام . قالعصا في قرنة البيت ، وفي يد المعلم اوتحت ابط الجنرال، وعلى شاشة التلفاز .

١٨ ـ حيـــــــاة

المرأة الحامل ، التي بقيت على وجه الارض صدفة، بعد ان حصد السلاح النووى كل شيء ، ولدت طفلا وسيما . غير انه في اللحظة التالية لولادته، وقعت ذرة من الاشعاع النووى فوق انفه الصغير، فاستطال الانف الى درجة مريعة، مما يضطر الام كل صباح الى قطع ثلاثة الاف ياردة سيرا على الاقدام، للوصول الى طرف الانف القصي، كي تغسله بالماء والصابون قبل ان ترضع الطفل حليب الصباح لانه على اية حال طفلها الوحيد الباقي على وجه الارض بأنف لا مثيل له في كل الازمـان .

١٩ ـ الاغنيـــــــة

يا امرأة، ها هي ذى الشعوب الطليقة تسرح اغانيها في الفضاء المديد مثل طيور بيضاء . الوحيدان في هذ المهرجان الصاخب ،اللذان يسيران في صمت ولا يغنيان هما : انا وانت ، فمن سرق منا الاغنيـــة ؟؟ .

يا امرأة، اني اخاف عليك من ايام كئيبة ورجال غامضين يخرجون مثل العناكب من الشقوق المظلمة، فتعالي اخبئك في صدرى الذى كابد من ويلات كثيرة، تعالي، ولا داعي في مثل هذا الوقت للاغنية، فلدينا قدرة على الاصطبار مئة سنة اخرى على اقل تقدير .

Digitized by Birzeit University Library

سجين القرية

قصة قصيرة

بقلم : د . ابرهيم العلم

كان الليل خيمة سوداء ضربت اطنابها على القرية ، فتساءل ابو وضاح، هل ثمة رجل غيره في القرية يعاني هذا الارق الذى يكابده ويهز رأسه في أسى وكأنه موقن ان لا احد يمكن ان يظل مستيقظا الى هذه الساعة المتأخرة من الليل، ومع ذلك فما زالت الظلمة ممتدة كبساط رملي في الصحراء .

انه ليذكر ليالي كثيرة لم ينم فيها، حين كان يستذكر دروسه استعدادا للامتحانات النهائية، على انه شتان بين ذلك الارق المكافح وبين هذه التعاسة التي يستشعرها الان ، بل انه ليذكر انه كان يسافر الى الضفة الشرقية من نهر الاردن للتجارة بعيد هزيمة حزيران ثم يعود مساء اليوم نفسه قاطعا النهر ، اذ كان الجسر متهدما بفعل الحرب ، واذا نام بعد ذلك فغرارا خوفا إما من جنود الغزاة واما من اللصوص، اذ كان يستلقي قريبا من اريحا على الاعشاب المتطاولة .

ولو كان المرض العارض مبعث هذا الارق لهان الامر، فان لالم الجسد نهاية على الاغلب .. وما اهون المرض حتى ولو كان مستديما ازاء مايتأجج في صدره من جزع في هذه الايام ، بعدما فضحه ابو نعيم السمار امام بعضهم في اثناء الشجار معه ، على ان احقلها بالفزع كان البارحة عصرا، اذ تقدم منه احد الشبان داخل دكانه التي يعمل فيها منذ نحو عشرين عاما ، تظاهر بانه يريد ان يبتاع علبة تبغ ، ثم همس في اذنه " سنلتقي في بيتك حين تغلق الدكان " .

عندما اتجه الى منزله بدا كفأر يحاذر مصيدة وقعت فيها فئران من سربه .. اذ تلفت مرار في اثناء الطريق على قصرها ، " ترى ايين يختبيء الان هذا الشاب ؟ لا شك في انه مبعوث من آخرين .. والا فمن اين له تلك الجرأة ، فقد كان واثق الصوت حاد النبرة "

وقال احد الشبان الثلاثة الذين حضروا الى البيت بعد دقائق من وصوله :

ـ هل تعرف ماذا يعني بيع الارض لهم ؟ يعني ان ابنك لن يجد ارضا يبني عليها غرفة تؤويه هو وأولاده وسيضطر عندئذ الى الرحيل ، فاذا لم يفعل هو، رحل احفادك عندما يكبرون .

فعلا الاصفرار وجهه، وأحس بوخز في صدره الايسر فوق موضع القلب .. ازداد

Digitized by Birzeit University Library

الوخز ايلاما وراحت يداه ترتجفان فبدا الخاتم الذهبي الضخم الذى يحلي اصبعه الخنصر كأنه يوشك ان ينزلق .

- ارجوكم .. احس اعياء ، ولا تصفقوا ذلك السمار اللعين .

- فلماذا اختصمتما فشهر بك ، وهو من قرية بعيدة ؟!

سأل الشاب الثاني وكان ضيق الجبين اشعث الشعر . ثم اردف :

- لانك لم تعطه عمولته من صفقة البيع ، وحتى لو لم تتخاصما ، فان امر خيانتك لن يظل مكتوما ، فلا مكان للاسرار في هذه الايام .

شعر بدوار وباضطراب في معدته كمن يريد ان يتقيأ ثم غاب عن الوعي .

وحين فتح عينيه من حديد ، كان الشبان الثلاثة قد اختفوا !

- اين ذهبـــوا ؟

سأل في هلع ، فاجاب وضـاح :

- غادروا البيت في صمت .

وقالت زوجته في اسف :

- كان بامكانهم ان يبقوا حتى يعينونا وهم يرونك على تلك الحال من الاغماء .

ثم قالت بعد قليل :

- لعلهم السبب فيما حصل لك .

فاسرع يجيب في انفعال :

- لا .. لا .. لم يكونوا السبب .. ولا تخبري احدا .. لا علاقة لهم بهذا الامر .. هل تفهمين . لا علاقة لهم !.

" لا مكان لي في هذه القرية " قال ذلك الظلام ، شعر كأن صخرة سقطت على صدره فانفض قلبه كارنب برّي مطارد . وما بزغ الفجر حتى نهض على عجل فتوضأ وصلى ثم جلس في الشرفة الزجاجية الضيقة كدأبه في هذه الايام .. راقب حزم الاشعة وهي تنبجس من خلف الجبل مؤذنة ببدء نهار جديد ووازن بين شعوره باستهلال الصباح في الماضي وبين شعوره اليوم ، اذ كان يبتهج لاطلالته كطفل تبهره كل نأمة في الوجود ، اما الان فما باله لا تتحرك مشاعره بمثل تلك البهجة ؟ فكأن الظلام ما زال رابعا على الكون ، لا فرق لديه في ذلك بين نهار او ليل .. ان سوط الشعور بالمذلة يجلد نفسه ويضنيه فيفور عذابه كقدر تغلي ، فهذا ابنه وضّاح لا يرغب في الاستمرار في الدراسة ، مما استثار حنق الام فصاحت به في سخط عارم :

- تبيعهم ارضك ثم تطلب من ابناء (البلد) ان يسكتوا عن خيانتك .. فلم اكن اعلم ان حب المال قد امات ضميرك . او لم تحسب للناس حسابا ؟ اين اخفي وجهي عن النسوة في البلد ؟ ثم اردفت مغتاظة

- حتى اهلي باتوا لا يرحبون بي .

فقال في نفسه بمرارة :

- وهل موقف اهلي خير من موقف اهلك ؟ انه اسوأ . فان مقاطعتهم لي تكاد تكون تامـــة .

فما دخل وضّاح باحة المدرسة ذات صباح حتى ابتدره زميلة ساخرا :

- لو كنا نعلم ان اباك بحاجة الى المال لجمعنا له التبرعات !.

وقال آخر وهو يقهقه :

- حقا فان اباك رجل مسكين لا يملك سوى عمارة واحدة في المدينة وسيارة اجرة وحانوت ذى بابين .

فقال لابيه وهو يعود منهوكا وكأنه كان

Digitized by Birzeit University Library

يقتطع الصخور من الجبل .

ـ هذا آخر يوم اذهب فيه الى المدرسة .

وألقى بمحفظة الكتب ارضا في عصبية .

xxxxx

حصار العذاب يلفه في القرية وفي البيت غير ان البقاء داخله خير من الخروج الى الناس.. صار يكره البيع والشراء بعدما استولى عليه الهوان وهو الرجل الذى كان مقدّمًا في القرية، فزفر في حرقةوهو يستذكر الماضي " سقى اللـه تلك الايام حين كنت ادعى لاقضي في الخلافات بين الناس فلم ادخل قضية الا اعنت على حلها ولا استشرت في زواج الا اتممتـه ".

طفق يقعد في غرفة الضيوف كل يوم ولا سيّما ساعات الصباح بعد ان يشرب القهوة على الشرفة فيطلع من النافذة الرحبة على حركة الجيران والمارة .. فلا بد من ان يجوس جاره ابو راضي بين بيوت القثاء والكوسا في البستان المتواضع الذى يحيط ببيته الصغير، فاذا تبعته ابنته التي لم تجاوز عامها السادس ، حافية القدمين، انتهرها ثم امسك بيدها وارغمها على دخول البيت، ثم لا يلبث حتى يدعو زوجته طالبا وعاء يضع فيه حبات القثاء والكوسا الندية، ويدلف الى البيت بعد ذلك كي يتهيأ للخروج الى العمل . فلم يعرفه الا فقير الحال، ولكنه الان يحسده على نعمة الحرية التي يستمتع بها، ولقد كان يعرج على دكانه صباحا بعض ايام الاسبوع ليشترى علبة سردين ومخللا ورغيفين ليتناول طعامه في مصنع الكعك حيث يعمل منذ خمسة عشر عاما، الى جانب ما يحمله من البيت من بندورة وجبنة مكبوسة بالملح .

وكانت ام العوف القابلة تستأثر باهتمامه ايضا ، فان نشاطها لم يفتر الا قليلا عما كان عليه قبل عشرين او ثلاثين عاما . على ان جسدها يبدو الان ظاهر الضمور ، لقد استقبلت معظم مواليد القرية ساعة الوضع من تجاوزوا الثلاثين من اعمارهم، فان نساء القرية يفضّلن اليوم الولادةفي المستشفى الحكومي القائم في المدينة، فلا يزال يذكر يوم قامت بتوليد شقيقه الاصغر صبحي، ان نسيت احضار المقص الذى تستخدمه في قطع الحبل السرى، فاندفعت خارج الغرفة تبحث عن مقص فصرخت في وجهه " هات المقص يا ولد ، قبل ان (يغطس) اخوك" فركض يفتش عنه في غير اتجاه حتى عثر عليه، ثم ارتمى على كرسي قريب وهو يلهث في سرعة ، وها هي ذى الان تسير بخطى بطيئة الا انها ثابتة،

" لا شك في ان الحركة بركة .. وانا وحدى المقيد في القرية .. مقيد بحبال غير منظورة . فالى متى هذه الحال ".

على ان مكثه في البيت قد طال ، ولم يعد وجوده في القرية امرا يهم احدا، بيد ان هذا خير من الالتقاء بهم في الدكان او في الشارع فلن يضطرهم الى توجيه الاهانات اليه ولن يضطر الى ان يتجرعها في مهانة.

وطالما تساءلت الزوجة وهي تخلو الى نفسها " الى متى هذا العذاب يا رب ؟ الدكان مغلقة ، والولد محجم عن الدراسة وانا عاجزة عن ان افعل شيئا .. هل احل المشكلة حين اغادر البيت الى اهلي ومن يرحب بي مدى الحياة ؟".

وكان الجواب دموعا حارة سالت على وجنتيها الذابلتين وبللت ثوبها الرديء اللامع ، فان بريقه هو كل ما بقي لها من ماضيها الجميل .. فامسك بيدها وأجلسها

Digitized by Birzeit University Library

بجواره في رفث " ليتها تفاتحني بما تطوى عليه الصدر من مشاعر . لم لا تصارحني ؟ اني راض بأى امر تتخذه " ثم رفع صوته بما يطو الهمس قائلا :

- يعز علي ان تنكمشي بعيدا عني كأنني مسلول .
- وهل هذا الذى فعلته ، انظر ماذا صنع بك الطمع .

قالت ذلك واشاحت بوجهها نحو لوحة معلقة على الحائط كتبت عليها آية قرآنية قصيرة .

فنهض واقفا وسار مطاطيء الرأس كأنه يبحث عن شيء اضاعه علي ارض الغرفة ، ثم دخل غرفة النوم ليستلقي وقد بدا انه يتلمس حلا . فان هذا العذاب اخطبوط يعتصر جسده ويلف الزوجة والابناء دون ذنب ارتكبوه . حدث في السقف فاتسعت عيناه ، لا مناص اذن من ان يغادر القرية حتى يتسنى لاسرته ان تواصل حياتها بكرامة ، فلقد كان غير واثق من جدوى هذا الحل في السابق ، اما الان فأضحى خياره الوحيد .

Digitized by Birzeit University Library

بقايا صور لعائد من الزيارة

كان راجح غنيم السلفيتي * يذرع غرفته ذهابا وايابا بانتظار سماع اسمه لزيارة اطفاله وام عياله، فهي مرة في كل شهر، مشغول بالف حساب وحساب. وفجأة شعر برعشة في صدره حينما سمع اسمه الاول، خطا بشوق وحنين نحو الباب ليفتح له السجّان الباب ليرى زواره كالعادة من خلف القضبان، وما ان وصل الى شباك الزيارة حتى هش في وجهه اصغر اطفاله والذى كان يبلغ من العمر ما يزيد عن العام بقليل، وبصوت تسرب الى اعماق اعماق القلب لافظا كلمة (ابا) ولم يعرف كلمة حنان الا وردّدها على طفله يا بني يا روحي، يا .. الخ وعاجلته طفلته التي تكبره بقليل يا با اطعمني ملبّسة" ما خطر امام حنانه وشوقه ان يطلب من الضابط المشرف على عملية الزيارة، الذى اجاب بالرفض على طلبه، ولم يسمح له باعطاء ابنته ملبسة واحست الطفلة على صغرها بانها احرجته، وكأنها ارادت ان تكفر عن ذلك بسؤالها الصعب" ليش بابا بطلت تيجي عندنا كنك صرت ناسينا ؟" فكان سؤالها اشد احراجا من طلبها، فشعر ان المكان يضيق به من شدة الدوار والارتباك والاضطراب، وارفقتها ام عياله ببساطتها وطيبتها بقولها " سامع يا راجح" مما عمل على التهاب المشاعر فوق عليها بنظرة عاتبة حارقة لاذت اثرها بالصمت ، وقال محاولا اخفاء تأثره :" خلينا نتونس بعض قبل ما تخلص الزيارة" ولم يتم حديثه حتى صاح الجندى المراقب من خلفه" وهو يعرف بلقب شاويش في السجن" قائلا: "يا الله خلاص انتهت الزيارة" واسرع مودعا حيث عملت المشاعر عملها في اثارة " الازمة الطعونة" ودخل غرفة التفتيش معتمدا على ذراع رفيقه احمد ذيب دحدول* وبعد عودته الى غرفته في السجن بدقائق امسك قلمه ليخط كلماتها خلال ساعتين من الزمن، وقد تجلت روعته في وصفه الدقيق مستعيدا تلك الكلمات في اشعاره التي جسد فيها . الرجل الصلب والاب الحنون والانسان الرقيق مشاعر الشوق والمحبة لابنائه، للغد، للحرية .

* زجال وطني معروف، عانى من قمع السلطتين الاردنية والاسرائيلية، كتب رائعته هذه اثناء فترة اعتقاله مع رفاقه في عام ١٩٧٤ . ضمن ما عرف بالاعتقالات الادارية في حينه، وقد انتخب حال الافراج عنه عام ١٩٧٦ عضوا في مجلس بلدية سلفيت .

Digitized by Birzeit University Library

يقول راجح غنيم السلفيتي " حكاية زيارة" قيلت في هذه القصيدة في سجن نابلس المركزي سنة ١٩٧٤ بعد انتهاء زيارة زوجتي واولادي لي وما كان في تلك الزيارة من مؤثرات من الاطفال ومن القائمين على ترتيب الزيارة من مسؤلي السجن . الذين رفضوا ان اناول الطفلة عندليب ابنتي " عبير" حبة ملبس طلبتها مني وغير ذلك من اشياء بسيطة في ذاتها ولكنها مؤثرة جدا على نفسية سجين يرى اطفاله لاول مرة بعد انقضاء شهرين على اعتقاله " المقطع الاول والثاني الكلام موجه للابن الذكر احمد الوحيد، والمقطع الثالث موجّه لعندليب . وضحى واحمد ويسرى البنت الاولى والاحب على القلب وهي من مواليد سنة ١٩٤٠ وكذلك لام الاولاد الزوجة المخلصة والتي قاست من مرارة اعتقالي كثيرا سواء من قبل ذويها والاقربين ومن شقة الزيارات والمراجعات واساليب النضال في سبيل اطلاق سراح المعتقلين الاداريين مثل مراجعات وعرائض واعتصامات وغير ذلك ـ اما المقطع الرابع فهو موجه لعندليب التي كانت اكبر الاطفال ـ والمقطع الخامس موجّه لهم جميعا حيث اشتمل ايضا على مشاعري وتمنياتي لهم .

المقطـــــع الاول

أبتـا اللّـي بَرجعتهـا بصـوت جهـور ... نزلـتْ علـى قلبـي مثـل قطْـر النّـدى
هزّت كياني وعمّقـت فـيّ الشّعـور ... بالمسوء وليّـة وهـان فـي عيني الـرّدى
اكبر يـا أبنـي بسرعـة ياللّه وفـور ... وازرعْ اشْـواك القلـقْ في عيـن العِـدَا
رسْدي على اسباب التّخلّف ثـورْ ... واطلـعْ لجيْلـكْ مثـل عالـي ومقتـدي
يـا ابْني بعـدْ منّي إنـتْ منْـذور ... للْخير للْحـق المُضيّـع للْفـدى
أمشي علـي دروبـي العتيقـة ودوّر ... وخليـك لصوْتـي مثل رجع الصـدى
واجعـل من العلْم الحقيقي نـوْر ... مـا ضـلّ مـن بمشعل العلْـم اهتـدى

المقطـــــع الثانـــي

اطمئني يـا ابنـي ضباعـكَ من الشيْـش ... تبـوسْ ظفْـرك هاللّي بعَـدُو ما عِسي
كنّ الرّعـبْ وأكبـر وانكسي يْـشْ ... وامشي علـى درْبـي والبسْ ملْبسـي
لاتخيْـشْ أطـي لا تخذلنيـش ... واطلـع الاوّل فـي صفوف المدْرسـة
أول ما تكبر التحـقْ بالجيـش ... وخلّـي خطـاك اتهـزّ قلـب اليابسـة
بحسّن إمّـك إن تقاعسْ ترحميـش ... وكسْـرى عاضْلاعـه إيـدِ المكنْسـه

Digitized by Birzeit University Library

وَطنَـكْ يـا ابنـي مـن الناقـورة للْعريـشْ مَهْـد الهُـدى وعِنْـد الخليْقَـة مقدّس
لا عشـت بَعْـدي ولا هَنالَـكْ عيْـش وأرْضَـكْ بأقْـدام اللئـام مدنّسة

المقطـع الثالـث

يـا عندليبـي يـا يسُرتـي يـا ضُحَايَ يـا أحْمَـدي يـا إم أوْلادي السّروْم
عَـارفْ صَعُوبَـة عِيْشكُـم وانْتُـو بَـلايَ مِـنّ غيْـر مـا تبيْـدو العتَـبْ واللـّوم
بشِعْـري وأفكَـاري اللـّي مزْوجـة بدمّـايَ بَـدْري مَعِـيْ حطّلتكُـمْ وزْر الهمُـوم
مُعْليـش بذكـم تصبـروا مثْلـي ومعَـايَ مـا دام هدفْنَـا واضـحْ ومعلـوم
بكْفِـي تعْرفـو إن أرْجَالـي وغنَـايَ أقْـوَى مـن أريَـاح العواصف والسّمُوم
إن أبعَدونـي عنْكُـم بسجْنـي عـزَايَ إنّـو ضميـرى حُـرْ مـش مَحْكُـوم

المقطـع الرابـع

يـا عنْدليـبْ يـا زغيرتـي ابتدْريـشْ لمّـا قلتيلـي يابـا بـدّي املّيـا
طَلَبـكْ بسيْـطْ لكـنّ صعب قدّيـشْ لَـو ابتدركـي اصْعُوبتُـه مـا بتنْسب
اترجّيْـتْ آمرْهُـم مـا لبّانيـشْ وْجَـاوَب بهـزّة رأس وخلقـه معْبّس
ازعلْتـي وكشّرْتـي ومَخبّيتيـشْ وحاطـت الدّمعـة فـي عينيكي النّاعْسة
وقلْتـي يـا بُوّيـي ليـش ما بتيجيـشْ كنّـو يـا بوّيـا قلْبُـك الطيّـب قسي
يـا بنَيّتـي بحكْمُـك تظْلمينيـشْ قلْـب الأبُـو ما قسـى بعمْـرُه ولا نسي
يـا عقْـرب السّاعـاتْ لا تمشيـشْ وتقْطـعْ علينـا هالثّوانـي المؤنسة
شُـو الفائـدِه باللّد خـلاصْ صاح الشّاويش بنغمـة مُزعّجـة مـن الذهـن ما ابتنسى
وطلعْتـي تقُولـي بـاى بـاى تنسانيـشْ وانـا ارجعـتْ علبـرشْ روحـي متعبة

المقطـع الخامـس والاخيـر

يـا حبـابْ قلْبـي بكْـرة لمّـا تكْبـروا وتْصيـرْ تجـي زياراتكُـمْ عالْبـال
لا بـدّ مـا بتاْمُلـوا وتتْذكّـروا منْتظـر أبْـواب السّجـنْ والاقفـال

Digitized by Birzeit University Library

وتتْـئَـالُـوا شُـو ذَنْـب أبُونَـا بمَكّـرُوا ... حَتّـى يتجَـازَى بالحَبـْسْ والإعْتقَـالْ
لا تنْبَـرُوا وتتحـرّرُوا وتتحَيـّـرُوا ... منّـي خُـذُوا اوُضـحْ إجَابـة عَالسّـؤالْ
ذَنْبِـي لإنّـي صِحت بالنّـاس انفـروا ... لا ترْتضُـوا العيْشـة بـذُلّ الاحْتِـلالْ
مُذْنبْ لانّـي قلْـت يـا أهْلِـي اثـْأروا ... ما بنْسَـى شـاره غيـر رديّ الخـصـالْ
مـارق لأنّـي مـن نَفَـرْ بيْفكّـروا ... وبيقاومُـوا عفَـن الضّـلالـه والضّـلالْ
جاحـدْ لأنّـي مِن طَليعـة بيسْهَـروا ... ويمهّـدُوا دَرْب المَجـدْ للعمّـالْ
هَـذي ذنُوبـي الْ مِـنْ أجْلهـا كشّـرُوا ... عَـنْ نَابهُـم ورَمُونـي بالأغْـلالْ
بِهَـم أفكَـاري يحْصُرُوهـا ويقْهَـرُوا ... بالْكبْت قَهـرْ الفكـرْ ضَـرْب مِن المُحَـالْ
وانتُـوا يـَا حبابـي تْحَضّـرُوا وتْسَمّـرُوا ... كُـلْ مِـنْ إلـو دوْرُه مِـن الأجْيَـالْ
بكْـرَه جَابيكُـمْ دوْرْكُـمْ تتْصَـدّرُوا ... وتتسَلّمُـوا الرّايـة مِـن الكهّـالْ
وْتواصْلُـوا المشْـوَار تـا تتْحَـرّرُوا ... مِـنْ نيـْر الاستعْبـاد والإستغْـلالْ
ومِـنْ تجْربتْنـا تكْسَبـوا وتْتنـوّرُوا ... ومِـنْ تجَارْبكُـم تصْنعُـوا الآمَـالْ
ومِنْ بَعـدْ مـا سيْـف التّسَلّـط تكْسِـروا ... وعَليكُـم اتخيّـم هَـدَاة البـالْ
وتمِيـروا بخيـرات التّحَـرّرْ تشعُـروا ... وتتلَـذّذُوا بحَـلاوة الاستقْـلالْ
دوْرُوا عاقبْـري وبْـن وعَمْـرُوا ... فُـوقْ عظاماتـي اجنِبـة للأطْفـالْ
وفـي كُـلّ سـاعـة حَـظْ ابقـوا اتذكّـرُوا ... اسْمِـي وجيبُـوا سيْرتِـي بمَـوّالْ

Digitized by Birzeit University Library

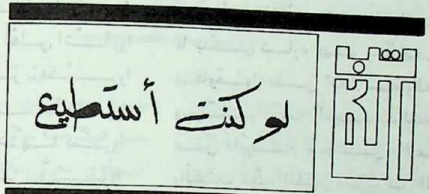

بقلم : باسم النبريص .

لو كنت استطيع
لو لم يكن طعامي القديد والنجيع
مسحت من عيونك الدموع
زرعت في صحرائك الربيع
اضأت في دروبك الشموع
ابعدت ذل الفقر عن حياتك
حققت كل امنياتك
لكنني يا امي
يا سر حسرتي وهمّي
لكنني فقير
كاخوتي فقير
كاخوتي مضيع اجير
كاخوتي مستلب مطحون
ككل كادح في وطني المغبون !

xxxxxx

Digitized by Birzeit University Library

لـــو كنـــت استطيـــع
لـــو كـــان وضعـــي يسمـــح
لـــو كـــان خالقـــي المنـــاح يمنـــح
اذن لكنـــت امنـــح
اذن لكنـــت افـــرح
اذن لكنـت كالذيـن يملكـون حفنتـي نقـود
اذن لجئـت ركنـك المهجـور فـي صبـاح العيـد
وفـي يـــدى مـــا اريـــد
لكننـــي يـــا امـــي ....
.....
لا ينفـــع الكـــلام
لا ينفـــع الكـــلام

Digitized by Birzeit University Library

اتحاد الكتاب الفلسطينيين
"وندوة الشهر في غزة"

استضافت اللجنة الثقافية بجمعية الهلال الاحمر في غزة، قرابة الثلاثين من الكتاب والمهتمين بالقصة والشعر، ضمن نشاط اتحاد الكتاب الفلسطينيين بالضفة الغربية وقطاع غزة، حيث عقدت ندوة الشهر في مقر الجمعية بغزة صباح يوم الجمعة الموافق ١٩٨٦/٩/٢٦ وحضر اللقاء كتاب من الضفة الغربية بالاضافة الى كتاب قطاع غزة، حيث افتتح جميل السلحوت الندوة، فأكد على ان هذا اللقاء يتم ضمن توجهات الاتحاد بعقد لقاءات ونشاطات ثقافية في قطاع غزة، مؤكدا على وحدة الضفة والقطاع، " فالوطن واحد والهمّ واحد" ثم اتفق الحضور على ان تقرأ القصص والقصائد ثم يفتح النقاش .

فقرأ محمد ابو النصر قصته الحسام والغمد، وتلاه عمر حمش حيث قرأ قصة الشيخ محمود يشيد تمثالا .

وفُتح النقاش بعد ذلك، حيث تحدث كل من فضل الريماوي وعلي الجريري، وقرأ جميل السلحوت مداخلة ابراهيم جوهر في نقد قصتي محمد ابو النصر وعمر حمّش حيث تعذر مشاركته في الندوة .

ثم عقب غريب عسقلاني حيث تحدث عن موضوعة الخلاص، هل يأتي من الداخل ام من الخارج ...

ثم تحدث محمد البطراوي والذي اشار الى خصوصية الادب في الارض المحتلة .

ثم قرأ كل من ماجد ابو غوش ، محمد شريم ،ووداد البرغوثي قصائد ،تناولها بالنقد كل من علي الجريري والذي حاول توضيح بعض المعايير النقدية .ومن ثم انتقل الى مقارنة ذلك بما قاله الشعراء ، وتلاه وسيم الكردي ، وبعض الزملاء الاخرين .

وقد يكون من المفيدتسجيل الملاحظات التي التقى حولها النقاد والمتحدثون إ.

١) التقريرية والمباشرة.

٢) عدم وضوح التجربة الفنية عند الشعراء.

٣) الاستعجال في صياغة الفكرة وقتلها قبل اكتمال نموّها .

٤) بعضهم يلجأ الى الرتابة، والابتعاد عن الجو الشعوري الذي يجب ان يلازم النص

٥) تكرار الافكار القديمة .

٦) عدم الاستفادة من الادب القديم ، عدم توظيف التراث في الصيغة الشعرية .

٧) هروب البعض الى اللغة ، والاتكاء عليها على حساب الفكرة والمعنى .

Digitized by Birzeit University Library

برنامج مسرح النزهة الحكواتي لشهر تشرين اول

القدس ـ اصدر مركز النزهة الحكواتي برنامجه للشهر تشرين اول حيث تضمن عروضا لمسرحيتي عنتر في الساحة خيّال تأليف واخراج راضي د. ثحادة ، ومسرحية الاستثناء والقاعدة ، تأليف برنارد بريخت واخراج مرنسوا ابو سالم. وتعرض في مناطق الجليل ما بين الفترة الواقعة من ٧ وحتى ١٥ ـ ١٠ وستعرض فرقة الامل للفن والمسرح في قاعة المركز مسرحية العلم في جيبي يومي ٩ و ١٠ ـ ١٠ وتضيف كذلك المركز بالتعاون مع اللجنة العليا للعمل التطوعي الفرقة النصراوية للرقص الشعبي والحديث في امسية رقص وغناء يوم ١٨ / ١٠ ويختتم مركز النزهة الحكواتي برنامجه في مسرحية معك ولعة لفرقة مسرح الورشة الفنية وهي من اخراج جورج ابراهيم . والتي تستمر من ٢٤ ـ ١٠ الى ٢ ـ ١١ .

" التنمية والتخلف في المناطق المحتلة" عدد جديد من " نشرة ابحاث بيرزيت "

==========

القدس ـ مكتب الاتحاد" ـ اصدر مركز الابحاث في جامعة بيرزيت مؤخرا العدد الثالث من نشرته الفصلية " " نشرة ابحاث بيرزيت" باللغتين العربية والانجليزية. وجا العدد في ١٦٠ صفحة من القطع المتوسط مخصصا لموضوع التنمية والصحة في الارض المحتلة . هذا وقد تأخر توزيع العدد بسبب اضراب العاملين ٧/١٧ ٨/١٠

تضمنت النشرة دراستين في واقع التنمية والصحة ومعوقاتها في الارض المحتلة وثالثة حول الامية عند الذكور والاناث واخيرا عالجت بعض القضايا النظرية في استراتيجيات التنمية الريفية، واحتوت النشرة على عدد من المراجعات تتعلق بالتنمية الاقتصادية في قطاع غزة والترحيل والاحزاب السياسية في الضفة الغربية .

واحتوى العدد ايضا على عدد لا بأس به من التقارير المتعلقة بالمؤسسات ، فقد تطرق احدها الى مستقبل التنمية في ظل الاحتلال من خلال مؤتمرين وعالج الثاني ندوة عمل عقدت في جامعة بيرزيت بعنوان. استراتيجيات التنمية الريفية في المناطق المحتلة اما التقريران الثالث والرابع فقد خصصا لمؤسسة القانون من اجل الانسان (الحق) ومركز تطبيقات التنمية الانتاجية (متين) .

هذا وسيختص العدد القادم ـ المتوقع صدوره في الخريف القادم ـ في ابحاث الاثار الفلسطينية كما سيشمل الابواب الدورية المعتادة .

اصدارات جديدة

. " الزمن والشمس اللذيذة مجموعة قصصية جديدة للكاتب السعودي ناصر العديلي صدرت مؤخرا عن دار العلوم للطباعة والنشر وهي تضم ١٦ قصة قصيرة .

. في بيروت صدرت نشرة بعنوان " الثقافة العربية ـ الكتاب في لبنان" وهي عبارة عن كراس يضم قوائم باسماء

Digitized by Birzeit University Library

الكتب العربية التي صدرت خلال العام ١٩٨٥ عن دور النشر يتألف الكراس من ٨٦ صفحة ويضم عناوين الكتب وتعريفا بها، واسماء المؤلفين او المترجمين مع سطور تعريفية وفهرس ابجدي باسماء المؤلفين .

. في العراق صدر كتابان للدكتور سمير سمعان عن المسرح الاول : دراسات في الادب المسرحي : والثاني : تجارب جديدة في الادب المسرحي. وقد صدر الكتابان عن "دار الشؤون الثقافية العامة في وزارة الثقافة العراقية

""الشمس السوداء" قصص لكتاب سوفييت ترجمها نعيم بدوى، صدرت في العراق ضمن سلسلة " مكتبتنا ". المميز لهذه المجموعة انها من قصص الخيال العلمي .

عن نقابة العاطلين في المدارس الخاصة صدرت نشرة باسم صباح الوطن بمناسبة افتتاح العام الدراسي الجديد ٨٦ – ٨٧ تضمنت عدة مقالات حول اوائك الذين يحجون برحلات الولاء الى غير شعوبهم . وموضوعا حول تمتين وحدة اتحاد العاطلين في مختلف قطاعات التعليم وقضايا النضال المطلبي في كل من جامعة بيرزيت ومعهد ابو ديس . ورزنامة فلسطينية وبيان اتحاد العاطلين في مختلف قطاعات التعليم واخبار ونشاطات النقابة في الصيف الماضي كما تضمنت النشرة اغنية مرسيل خليفة من كلمات الشاعر محمود درويش وافتتاحية صباح الوطن في جريدة الطليعة بقلم المربي فالح العطاونة .

مجـــدل عسقـــلان

كما صدر عن مركز ابحاث جامعة بيرزيت الكتاب الثاني الذى يبحث في القرى الفلسطينيـة المدمـــرة – مجدل عسقلان – وكان الكتاب الاول قد صدر عن المركز وتناول قرية عين خوض .

بيـن التـراث الرسمـي والتـراث الشعبـــي

كما اصدر المركز ضمن سلسلة "ابحاث متفرقة" دراسة حول التراث الرسمي والتراث الشعبي للدكتور عبد اللطيف البرغوثي ، وهو الكتاب الخامس في هذه السلسلة .

مجلـة الحيـاة للاطفـال العـــدد الرابـــع

صدر العدد الرابع من مجلة الحياة للاطفال وقد صدر هذا العدد مع بداية العام الدراسي الجديد وهو حافل بالحكايات والقصص والاناشيد والالعاب والتمارين الذهنية والفكرية والرسومات الجميلة وقد جاء هذا العدد متميزا بلغته السهلة البسيطة ومواضيعها المناسبة لمراحل نمو الاطفال واخراجها الفني وترتيبها المتجانس والجدير بالذكر انها المجلة الاولى والوحيدة في البلاد التي تتخصص في مجال الاطفال الامر الذى لاقى ترحيبا كبيرا من كافة المؤسسات التربوية المهتمة بعالم الطفولة وقد عنون المحررون هذا العدد بشعار من اجل اطفال عرب سعـــداء

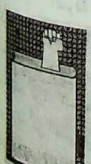

Digitized by Birzeit University Library

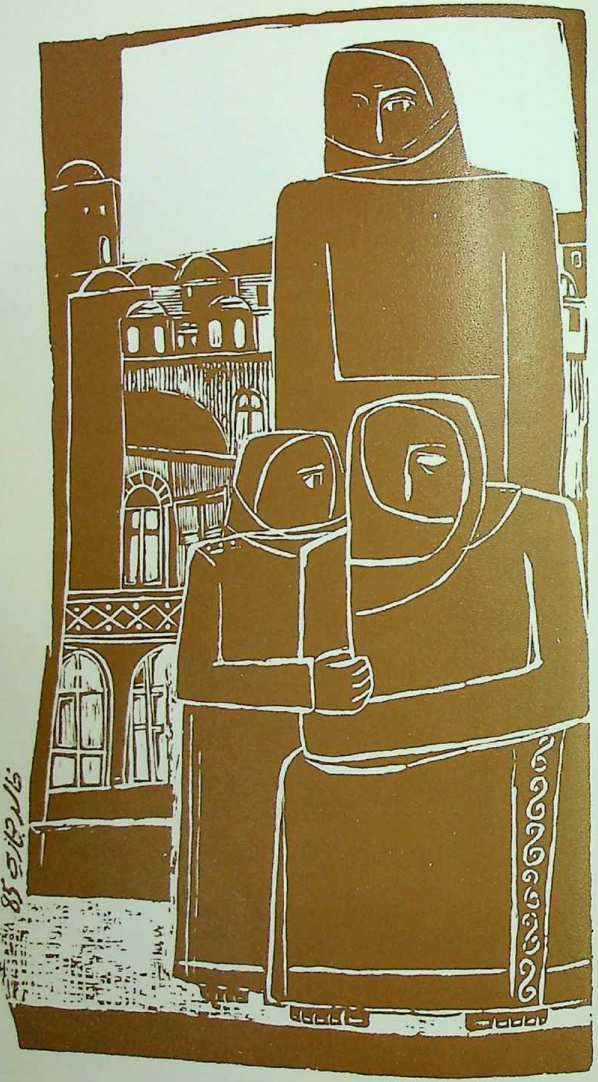

Digitized by Birzeit University Library

باسم الحياة :

بدون أسلحة نووية الى الالف الثالث -
نزع السلاح للتنمية

عن مجلة "المجلة" - المانيا الديموقراطية

AL-KATEB
For human culture and progress

Editor- Asa'd Al-Asa'd
P.O.Box 2048
Jerusalem
Tel-25503

78

الكاتب
للثقافة الإنسانية والتقدم

Digitized by Birzeit University Library